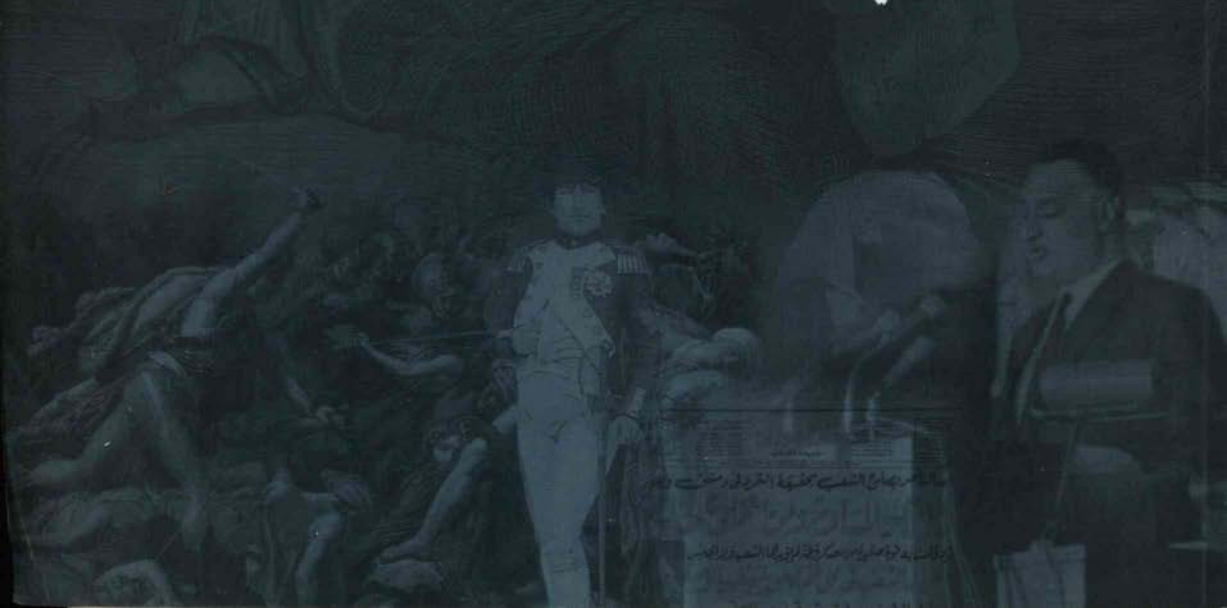




فَيْصَل جَلُول

مَصْرُ بِعْيُونِ الْفِرَنْسِيِّينَ

بحث في أصول الثقافة السياسية العربية



مصر بعيون الفرنسيين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مصر بعيون الفرنسيين

بحث في أصول الثقافة السياسية العربية

فيصل جلول



الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة
تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي
والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى
بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 9953-87-039-X

جميع الحقوق محفوظة للناشر



الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 785108 - 786233 - 785107 (961-1)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل

الانتضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

المحتويات

الاهداء

تمهيد

القسم الأول

في أصول الثقافة السياسية العربية: عناصر الخضوع والممانعة فيصل جلول 11

القسم الثاني

غزو السيف وغزو القلم

الباب الاول

حملة مصر

غزوة السيف وغزوة القلم فيصل جلول 38

حملة بونابرت: غريبة الأطوار لكنها تتطوي على فوائد جان تولار 49

الباب الثاني

حريق القاهرة

اين ومن وكيف ولماذا؟ فيصل جلول 66

حريق القاهرة جورج مينا 72

الباب الثالث

العدوان الثلاثي

الاسباب والنتائج فيصل جلول 88

غزو السويس: الحرب الأقصر في القرن العشرين شهادات مخططي الحملة 93

الباب الرابع

هزيمة ح�يران

- 107..... فيصل جلولنكسة ام نهاية المطاف؟
119..... اريك رولوحرب الأيام الستة: عندما انهار الجيش المصري

الباب الخامس

سيرة الرئيس

- 124..... جان لاکوتيرعبد الناصر: الأمل العربي

الباب السادس

غضب المحبين وغضب المتضررين

- 144..... فيصل جلولعبد الناصر يدافع عن عبد الناصر
158..... مكسيم رودنسونهل يؤذن غياب الرئيس بنهاية الناصرية؟

خاتمة

الإهداء

إلى نائلة وحلا وميسة

تمهيد

يبحث هذا الكتاب في آليات وطرق تكوين الثقافة السياسية في العالم العربي انطلاقاً من مصر التي شكلت خلال القرون الثلاثة الماضية قطبا جاذبا للعالم العربي قبل أن تكبلها اتفاقيات كامب ديفيد ابتداء من الربع الأخير من القرن الماضي بقيود همشت دورها وموقعها العربي المركزي.

ينطوي الكتاب على قسمين كبيرين. الثاني يضم نصوصاً مترجمة عن الفرنسية تشمل حملة نابليون بونابرت على مصر باعتبارها حدثاً تأسيسياً في تكوين الثقافة السياسية المصرية والعربية، وحريق القاهرة الذي بدا وكأنه المؤشر الأول في الانتفاضة المصرية والتمرد على الخضوع للغرب وحرب السويس عام 1956 التي ستطلق الناصرية بوصفها حركة تحرر عربية ذات بعد عالمي ومن ثم حرب حزيران - يونيو عام 1967 التي انتهزت لتدمير الناصرية والعودة بمصر والمصريين والعرب إلى ما قبل التحرر وإرغامهم على الانتظام مجدداً في موازين قوى عالمية وإقليمية مبنية على هرمية حضارية تأسست منذ الحملة الفرنسية وأخيراً ينطوي الكتاب على سيرة فرنسية لناصر في نص يقتفي أثره منذ نشأته وحتى وفاته وعلى نص صغير يطرح سؤالاً عن مصير الناصرية بعد وفاة مؤسسها.

ليست هذه النصوص مقدسة على الرغم من القدر العال من الموضوعية التي ميزت بعضها لذا كان لا بد من مساءلتها ومساءلة الذات عبر نصوص موازية ونقدية يجدها القارئ في أبواب مستقلة مع الإشارة إلى أن هوامش النصوص المترجمة والنصوص الموازية كلها من وضع المؤلف وكذلك الاختيار والترجمة التي تمت خلال سنوات متفرقة.

أما القسم الأول من الكتاب فهو يبحث في عناصر الخضوع والممانعة في الثقافة السياسية العربية انطلاقاً من المركز المصري واستناداً إلى مسلمة تفيد أن الأصل في تحالف العرب وتقدم غيرهم يكمن في الثقافة السياسية.

أخيراً لابد من توجيه الشكر للاصدقاء الذين ما انفكوا يبحثون على اصدار هذا الكتاب ما ان علموا بمشروعه، وبصورة خاصة صحبة المؤتمر القومي والمؤتمر الاسلامي والصحافيين والكتاب الذين تعودت لقائهم في مناسبات مهنية في العالم العربي واوروبا.

يبقى الشكر للاستاذ بشار شبارو صاحب الدار العربية للعلوم الذي صبر طويلاً ودون تذمر على انجاز هذا الكتاب منذ عرض عليه الفكرة صديقنا المشترك العزيز أحمد منصور مشكوراً بدوره على حماسه وتشجيعه.

القسم الأول

في أصول الثقافة السياسية العربية: عناصر الخضوع والمانعة

فيصل جلول

"ما انزل بالإسلام والمسلمين وبالعروبة والعرب مثل هذا الهوان إلا الدول التي وسمت نفسها بالديموقراطية ولا استعبدتهم إلا الزاعمون أنهم أنصار الحرية، فعلى المسلمين عموماً والعرب خصوصاً إذا أرادوا الاستشفاء من مرضهم أن يحسنوا تشخيصه"

(الأمير شكيب أرسلان⁽¹⁾)

بريطانيا العظمى وأنت شهيرة... وعندك طبعاً يجل الحمد والشكر
عهدناك للإسلام أكبر دولة... عهدناك والعمران دينك والبر

(الشيخ علي الريمائي⁽²⁾)

بني التاييز قد فزتم... وبالإيقاد قد جنتم
بلاد القدس شرفتم... فأهلاً أينما بتم
وسهلاً فيكم أجمع

(اسكندر الخوري⁽³⁾)

(1) ذكر الأمير شكيب أرسلان هذه الفقرة في كتاب "لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟" وقد نشر بخطه وتوقيعه في جنيف غرة محرم الحرام 1356/1944.

(2) انشد الشيخ علي الريمائي هذا الشعر في ذكرى السنة الأولى لاحتلال بريطانيا القدس في 9 كانون الثاني عام 1917. يجدر التذكير بأن الريمائي والخوري وغيرهما كانوا ضحية وعي نشره المستعمرون الذين قدموا غزوهم بوصفه عملاً حضارياً يرمي لنشر الحرية والتقدم والديموقراطية بمواجهة الاستبداد التركي. المشكلة أن عرب فلسطين صدقوا هذه المزاعم بعد ثلاثة أرباع القرن من احتلال الجزائر، وصدقها اليوم بعض عرب العراق بعد أكثر من ثلاثة أرباع القرن على احتلال القدس. تبقى الإشارة إلى أن مقتطفات الشعرية الثلاثة عثرت عليها في دراسة مهمة منشورة على الشبكة العنكبوتية بعنوان "الإنجليز في الأدب الفلسطيني" وقد أضعت اسم مؤلفها الذي يستحق اعتذاراً.

(3) قال اسكندر الخوري هذا الشعر يوم قدم الإنجليز إلى القدس.

يلاحظ مؤلف الدراسة المذكورة أن الشعر الفلسطيني اختلف تماماً بعد اتضاح أهداف الاحتلال البريطاني فكانت للريمائي والخوري أشعار مختلفة، وكان لآخرين أشعار تعكس الإحساس بالغدر والخيانة على غرار هذه الأبيات للشاعر عبد الرحيم محمود من قصيدة وعد بلفور.

معه يرجع بالعظيم الأكثر	رجحت موازين الخليف ومن نكن
يحفظ جميل العرب، يا للمنكر	وبنت له أسيفنا صرحاً فلم
يوماً وأية ذمة يخفر	غدر الخليف، وأي وعد صانه
نسي اليد البيضاء ولم يتذكر	لما قضى وطراً بفضل سيوفنا

احتلت مصر في القرن الثامن عشر موقعا استراتيجيا على خطوط التجارة العالمية المبنية عن الثورة الصناعية في أوروبا. جعلتها طريق الهند محطة أساسية للتجار الغربيين وهدفا لمطامع الامبراطوريات الأوروبية الاستعمارية المتنافسة على آسيا وأفريقيا بعد أن خسرت مستعمراتها الأميركية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وخصوصا بعد انتزاع الولايات المتحدة استقلالها من العرش البريطاني. ازداد الموقع الاستراتيجي المصري أهمية في القرن التاسع عشر مع إنشاء قناة السويس التي اختصرت طرق المواصلات التجارية وسهلت استعمار إفريقيا والشرق الأوسط. لكن مصر الجمهورية ستلعب دوراً أساسيا في النصف الثاني من القرن العشرين عبر مساهمتها في تحرير المناطق المستعمرة في العالم العربي وإفريقيا، وتاليا في القضاء على الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية وستشكل سدا قويا أمام استكمال المشروع الصهيوني النازع لإقامة إسرائيل الكبرى بعد تأسيس إسرائيل الصغرى.

في هذه السيورة تحولت مصر وبصورة تدريجية إلى مركز لإعداد النخب العربية والإسلامية التي كانت تتأهل في الأزهر والجامعات المصرية أو في المراكز التربوية الغربية التابعة للبعثات التبشيرية والمؤسسات الغربية التي انتشرت في المشرق العربي على نطاق واسع في القرن التاسع عشر، مستفيدة من ضعف السلطنة العثمانية العاجزة عن الرد على تحديات النهضة الأوروبية.

يمكن القول إجمالا أنه كان على مصر خلال ثلاثة قرون أن تلعب إلى هذا الحد أو ذاك دور القطب الجاذب للعالم العربي وهو دور كانت تنقسمه من قبل في ظل الدولة الفاطمية مع بغداد عاصمة الخلافة العباسية وحواضر الطوائف الأندلسية في العالم الإسلامي.

من هذا الموقع حلت القاهرة بالنسبة للعرب وقسم كبير من المسلمين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين محل بغداد ودمشق اللتان تهمشتا إلى عواصم مهمشة خربة في ظل السيطرة التركية، تدور في فلك القسطنطينية مركز الخلافة وبعيداً عن العالم العربي الذي فقد منذ أواخر القرن الخامس عشر مراكزه الدولية النافذة مع سقوط غرناطة.

أعادت مصر الروح للعرب بعد تهميش امتد لقرون أربعة ساد خلالها العثمانيون العالم الإسلامي، ستكف عن أداء دور مركزي في المنطقة العربية منذ الربع الأخير من القرن العشرين في عهد الرئيس الراحل أنور السادات الذي وقع سلاماً منفرداً مع إسرائيل استعاد خلاله شبه جزيرة سيناء مقابل انسحاب جوهري من الصراع العربي الإسرائيلي، أي التخلي عن دور القطب الجاذب للعالم العربي والإسلامي⁽⁴⁾. وتشهد مصر اليوم سياسة خارجية عموماً وعربية خصوصاً محكومة باتفاقها الاستراتيجي مع إسرائيل والولايات المتحدة وبالتالي انحساراً على كل صعيد وقوقعة تترافق مع صدور دعوات فرعونية وأخرى تتصل من تاريخ عربي إسلامي طويل ونزعة مصروية ضئيلة لا تتناسب قطعاً مع موقع وحجم ومصالح هذا البلد ومع تاريخه وحاضره ومستقبله.

إذا كان صحيحاً أن التوقع المصري ناجم عن ميزان قوى دولي وإقليمي قاهر للعرب وكابح لطموحاتهم وملائم لأعدائهم وبخاصة للكيان الصهيوني، فالصحيح أيضاً أنه يعبر عن تراكم ثقافة سياسية تنطوي منذ حملة نابليون بونابرت على عناصر خضوع تجمعت على مر السنين وأصبحت راسخة في اللاوعي المصري (و العربي) مقابل عناصر ممانعة جديدة ما برحت تظهر في صفوف قسم وافر من النخب السياسية والأدبية والشرط الأكبر من الرأي العام منذ الحملة نفسها.

والثابت أن شعوراً بالإحباط إزاء الانحسار المصري ما انفك يسود العالم العربي منذ ربع قرن لم تغلح خلاله بغداد ودمشق البعثية أو طرابلس الغرب القذافية أو بيروت العرفاتية في السبعينات وأوائل الثمانينات، أو الجزائر البومدينية في تعويض الدور المصري أو خلافته منفردة ومجتمعة ما أدى إلى أن يفتقر العرب ومازالوا يفتقرون إلى مركز تدور حوله حركتهم السياسية ويتحدد من خلاله

(4) كانت حرب أكتوبر عام 1973 نصراً جزئياً على إسرائيل لكنها انتهت إلى هزيمة سياسية تمثلت في اتفاقيات كامب دايفيد. ودخلت بعدها مصر مرحلة تمصير السياسة الخارجية والداخلية على حد سواء. إن النتيجة الأبرز لهذه الحرب هي وصول التجربة القومية بصيغتها البعثية والناصرية إلى طريق مسدود.

مستقبلهم السياسي ومعنى ذلك أن الثقافة السياسية السائدة في هذا البلد عدا عن كونها مسألة مصرية هي عربية في الصميم.

إن تسليط أضواء كاشفة على بعض أبرز مكونات الثقافة السياسية في مصر في وجهيها الخاضع والممانع ربما من شأنه أن يزودنا بتفسيرات تقريرية لحال الثقافة السياسية في العالم العربي برمته، وتالياً بتوصيف واقعي للبؤس السياسي الذي يضرب بقوة عرب هذه الأيام وصولاً إلى تحديد عناوين لثقافة سياسية مختلفة.

في وصف البؤس السياسي

عندما نولي أهمية حاسمة للثقافة السياسية في العالم العربي في سياق التطلع إلى نهضة عربية شاملة فإننا ننطلق من مسألة بديهية في حياة الشعوب والأمم يتحدد من خلالها مصيرها فإذا كانت هذه الثقافة طموحة وحيوية ومستقبلية ومعاندة للخضوع والاستسلام وفخورة ونهضوية كان المصير على هيأتها، وإذا كانت مبنية على الإذعان ومركبات النقص وعفوية ومدججة بالمفاهيم الخاطئة كان المصير أيضاً على صورتها ذلك أن ما يبنى في العقول هو الذي يحرك البشر ويحدد خياراتهم. فماذا في العقول العربية اليوم أو الأصح ما هو الشائع عند بعض العامة هنا وهناك في العالم العربي؟

قد نسمع في لحظة غضب أو في مناسبات مأساوية عبارات وأحكاما إستصغارية من نوع "العرب جرب" أو "اتفق العرب على ألا يتفقوا" أو "العرب يدمرون العمران" أو "العرب ظاهرة صوتية" أو "العرب أمة مهووسة بالمؤامرة" أو "الأمة العربية اختراع بعثي". وقد نسمع أيضاً أحكاما من غير العرب لا تقل استخفافاً بهم من نوع: "العرب يهربون لحظة إطلاق الرصاص الأولى في الحرب مع أعدائهم" أو "لسنا كالعرب حتى نهرب قبل بدء المعركة" أو "العرب لا يفهمون إلا لغة العصا" كما يردد المستشرق برنار لويس أو "العرب كالصراير يجب التصدي لهم بالمبيدات" بحسب حاخام صهيوني أو "يتوجب منع الرقص الشرقي - العربي لأنه ينتمي إلى ثقافة منحطة" بحسب حاخام آخر هو موشيه عامي أو "العرب ينتمون إلى حضارة متخلفة" بحسب سيلفيو برلسكوني... الخ. عندما ترد هذه الأقوال على لسان العرب وعلى السنة غيرهم فإنها تعكس قدراً مهولاً من السذاجة

والاستخفاف بالذات العربية وتقديراً بأئسا يملئ رؤوساً مطأطئة يسهل تحريكها في الاتجاهات الهابطة وبالتالي حمل أصحابها على الرضا بمرتبته دونية بين البشر.

وحتى لا يبدو أننا ننجح إلى التبسيط لا بد من تفسير لهذه الأوصاف والأحكام القذرة التي لا نستحقها قياساً بحضارتنا وأدوارنا التاريخية التأسيسية على كل صعيد. ليس لأمة كأمّتنا كانت ذات يوم تحكم أكثر من نصف العالم أن تتردد عن نفسها هذا النوع من الأوصاف الاحتقارية أو أن تقبل بأن يرددها الآخرون، ولأنها تتردد ذلك لا بد من تفسير، وللبحث عنه لا بد من العودة إلى الوراثة أي إلى ما نفترض أنه بدايات الرضوخ والانحدار.

مصدر البؤس السياسي العربي

ليس مصدر الخضوع في الثقافة السياسية العربية راهنا أو حديث العهد، إنه ممتد في تاريخنا خلال الألفية الثانية الأمر الذي يستوجب بعض الإحاطة والتظهير.

في العام 1930 تلقى العلامة النهضوي محمد رشيد رضا رسالة يقترح صاحبها أن يرد الأمير النهضوي أيضاً شكيب أرسلان في مجلة "النار" على سؤال مصيري: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدّم غيرهم؟ مختصر الرد الأرسلائي أن المسلمين تقدموا بواسطة الإسلام وتحلفوا عندما أهملوا واسطة تقدمهم. هذا الإهمال مائل في وجوه عديدة منها أن الكثير من نخب المسلمين وحدثيهم بخاصة كانوا وما زالوا يعتبرون التخلي عن الإسلام شرطاً للتقدم. لدحض هذا الحكم يبرهن الأمير الدرزي اللبناني على أن كل المتقدمين في الغرب لم يتخلوا قيد أنملة عن أديانهم ومعتقداتهم التي شكلت خلفية لهذا التقدم. ويقارن حضور الإسلام بين المسلمين - كوسيلة حضارية وليس كواجبات دينية فحسب - بعجز شعري لطرفة بن العبد.. كباقي الوشم في ظاهر اليد". للقول أن ضعف الحضور الإسلامي في ثقافة المسلمين يفسر منطقياً تخلفهم عن غيرهم طالما أن الإسلام نفسه يقدم تفسيراً لتقدمهم على غيرهم خلال قرون طويلة.

كان العرب في عصر الأمير الأرسلائي يكافحون من أجل البقاء حيث تتعرض أراضيهم للاستيطان الأجنبي والتنصير في الجزائر بخاصة وشمال إفريقيا عموماً وفي

فلسطين، وكان مصيرهم في عرف المستوطنين محكوماً بمصير الهنود الحمر من سكان أميركا الأصليين وكان لا بد من مواجهة هذا المصير بنهضة جديدة كانت دفاعية رأى أرسلان بشائرها في مشروع سكة الحديد بين الشام والحجاز وفي النظام الأممي الذي أقامه الملك عبد العزيز في المملكة العربية السعودية وفي مبادرة بنك مصر والمشاريع الرائدة التي أطلقها طلعت حرب في القاهرة وامتدت إلى سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز فضلاً عن مبادرات أخرى مماثلة. وعلى الرغم من أهمية الأمثلة النهضوية التي يشير إليها فإن التجربة المصرية تستحق وقفة قصيرة لما تسلطه من أضواء على واقعنا الراهن.

كان طلعت حرب نموذجاً للنهضوي الذي يتطلع إليه الأمير اللبناني. فهو شخصية متدينة يتمتع بوعي تاريخي وبادراك عميق لعناصر القوة والضعف في عصره ومسكون بإرادة قوية في امتلاك ناصية التقدم المفيد لمصر وللامة العربية. في ضوء هذه القناعة حوّل رأس المال إلى وسيلة إنتاج قومي حين كان غيره ينظر إليه بوصفه وسيلة تراكم ريعي شخصي عابر للمكان والزمان، ولعل مصر تدین لهذا الاقتصادي النهضوي حتى اليوم بالسينما الوحيدة في العالم العربي وبالكثير من المنجزات الصناعية الأساسية فضلاً عن بنك مصر بطبيعة الحال.

لم يكن بوسع طلعت حرب أن يصنع منفرداً ربيع العرب والمسلمين فكان أن قهرته ثقافة الخضوع المتراكمة كما ستقهر من بعد المشروع النهضوي الناصري.

المؤسف أن تجربة طلعت حرب لم تتحول إلى ظاهرة عامة بل ظلت مثالا فرديا يؤكد على أمثلة مشابهة في التاريخ العربي منذ العصر العباسي وهي أشبه بتجربة الخليفة المأمون صاحب مشروع المناظير الفلكية الشهيرة، فمنذ هذه التجربة كانت شخصيات عربية مسلمة تلمع منفردة دون أن تتحول إلى مدرسة جديدة بالانتشار كما يلاحظ المستشرق المنصف لويس يونغ في كتابه الشهير "العرب وأوروبا"⁽⁵⁾ ما يعني أن شرط النهضة يكمن ليس في تكوين حفنة من النهضويين المعزولين وإنما في ثقافة نهضوية عامة محمولة من سلطة سياسية تضع حداً لقرون من

(5) لويس يونغ "العرب وأوروبا" ترجمة عبد السلام العجيلي. دار الطليعة بيروت.

ثقافة الخضوع والتقوقع العربية. لكن قبل التوسع في الحديث النهضوي لابد من استكمال البحث في أحد أبرز جذور الانحدار العربي البعيدة.

فصل علوم العرب عن علوم الأجانب

يلاحظ لويس يونغ محقا في كتابه المذكور أن قضاة المسلمين اتفقوا على فصل علوم العرب عن علوم الأجانب مطالع الألفية الثانية وإن هذا الفصل ألحق أذى كبيراً بالحضارة العربية الإسلامية، والبادي أن هذا الأذى ما برح ممتدا حتى يومنا هذا ذلك أنه وضع اللبنة الأولى لعزل الإسلام والمسلمين عن محصلة تجارب الأجانب أي غير المسلمين. لقد حقق إنغزاليو الإسلام حينذاك انتصارا رجعيا ما زلنا ندفع ثمنه حتى اليوم.

يعرف المختصون بالفقه والفلسفة وقد صرف بعضهم عمرا مديدا في تظهير تلك المرحلة (6) تفاصيل الجدل الذي تم بين العلماء المسلمين حول العقل والإيمان وكيف انتهت بانتصار القائلين بالفصل وهو مستمر حتى هذه اللحظة في تفكير فقهاء أساسيين ومؤثرين في العالم الإسلامي.

ارتسم الجدل بين الفلاسفة المسلمين حول هذه المسألة وبخاصة بين أبو حامد الغزالي المشرقي الذي حسم القطيعة في نصه الشهير "فيصل التفرقة بين الشريعة والزندقة" وأبو الوليد ابن رشد قاضي قرطبة المغربي الذي رد على الغزالي بعد موته عام 1111 ميلادية في نص شهير بعنوان "فصل المقال بين الحكمة والشريعة من اتصال" وفيه يؤكد "على التكامل بين العقل والإيمان بقوله: "الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له" ويزيد شارحا في فصل المقال إن "من لا يعرف الصنعة لا يعرف المصنوع، ومن لا يعرف المصنوع لا يعرف الصانع، قد يجب أن نشرع في الفحص عن الموجودات على الترتيب والنحو الذي استفدناه من صناعة المعرفة بالمقاييس البرهانية".

(6) بذل الدكتور محمد عابد الجابري جهدا تأسيسيا في هذا المجال في مؤلفاته العديدة التي تتمحور حول العقل العربي وقد شكلت أعمال الجابري منعطفا حقيقيا لم يتخذ كامل الهيئة التي يستحقها بعد.

كان الغزالي مؤسسا لقطيعة مدمرة ومؤذية بين الإيمان الإسلامي والفلسفة التي تحمل في تضاعيفها تصورا عن الذات والعالم تصورا عن "الصنعة والصانع والمصنوع"، وعندما حاول ابن رشد المتوفي عام 1198 التصدي مبكرا لهذه المقولة وبالتالي إعادة الربط بين علوم العرب وعلوم الأجانب على قاعدة الاتصال بين الإيمان والحكمة جوبه بالرفض واللعة الشاملة، ولعله مازال ملعونا لدى بعض التيارات الدينية حتى يومنا هذا.

خلفت القطيعة المذكورة آثارا سلبية على مصير حضارة العرب إذ في خضم هذا الجدل ذوت الخلافة الأموية في الأندلس عام 1031م ونشأت ممالك الطوائف، ثم شرعت بالتساقط واحدة تلو الأخرى بدءا من طليطلة عام 1076م مروراً بقرطبة عام 1236م إلى اشبيلية عام 1246 وصولاً إلى غرناطة عام 1492م وكان سقوط هذه المدن يؤدي إلى اقتلاع سكانها وتسليمها بكامل هيئتها للغزاة، وليس غريبا أن يموت ابن رشد عام 1198 وان تسقط مدينته قرطبة بعد موته بأقل من أربعين عاماً.

في سياق التراجع الدفاعي الناجم عن الاعتزال أو الانعزال المذكور انطلقت في الفترة نفسها تقريبا حملات صليبية على مشرق العالم العربي ودامت لأكثر من قرن ونصف القرن ثم تلتها حملة مغولية مدمرة أعقبتها عصور دويلات لم يكن مصيرها أفضل من مصير ممالك الطوائف في الأندلس، وكان الصليبيون في المشرق كما ملوك النصارى في الأندلس يقاتلون العرب بالاتفاق مع فئات منهم إلى أن تمكن صلاح الدين الأيوبي من الانتصار عليهم في معركة حطين الشهيرة دون أن يؤدي هذا الانتصار إلى إعادة نظر شاملة بعلاقة علوم العرب بعلوم الأجانب، بل ربما كان انتصارا عسكريا حطم الاحتلال الصليبي دون أن يؤسس لوثة جديدة تتيح للعرب الحفاظ على نفوذهم ومراكمة هذا النفوذ وبالتالي امتلاك القدرة على الدفاع عن أنفسهم بوسائل مجدية وفعالة وقابلة للتوارث.

الحاصل أن استيلاء العرب المسلمين على بلدان أجنبية وحضارات معمرة كان يستدعي مواجهة تحديات كبيرة ومستجدة قهرها المسلمون الأوائل بالسيف تارة والبراغماتية تارة ثانية والاندماج تارة ثالثة إلى أن تراجعوا في أوج قوتهم أمام أسوار

الفلسفة الكلاسيكية اليونانية التي تنظر إلى العالم بمعايير دينوية. لقد ترافق ذلك مع توقف الفتوحات ومع بروز نزعة دفاعية عن إمبراطورية ما برحت تتسع منذ ثلاثة قرون لتشمل أكثر من نصف العالم المعروف في الألفية الأولى⁽⁷⁾.

بيد أن الدفاع الارتدادي والتحصن بالتقليد لم يعصم سلطة العرب من الانهيار، فكان سقوط الأندلس كما رأينا في أواخر القرن الخامس عشر في المغرب قد تزامن مع انهيار سلطة العرب في المشرق في معركة مرج دابق 1516 وصعود نجم العثمانيين الذين تعاملوا مع مقاطعاتهم العربية ليس بوصفها مرجعا للدعوة الإسلامية وحضنها ومنطلقها ورائد نهضتها وإنما باعتبارها أراض تابعة للسلطنة كغيرها من الأراضي الأخرى أي مصدرا للضرائب والمجندين.

لقد بات معروفا أن كتب ابن رشد أحرقت وانتصر دعاة القطيعة بين علوم العرب وعلوم الأجانب - في حين التقط القديس المسيحي توما الأكويني معاصر ابن رشد على ما يلاحظ محمد أركون في الكثير من محاضراته - التقط أهمية الاتصال بين الحكمة واللاهوت ومن هذا الاتصال ستحقق علوم الأجانب انتصارات ما زالت هي الأخرى ممتدة حتى يومنا هذا.

هكذا اعتبرت معادلة "الصانع والمصنوع والصنعة" الأجنبية ضربا من الكفر ذلك أن الأجنبي هو كافر بالتعريف الفقهي وكل ما يصنعه لا يمكن أن يخرج عن دائرة الكفر أي هو في باب المحرم الذي يحظر الأخذ به أو يجتنب أو لا يجذب.

وعلى الرغم من أننا نعيش اليوم في بحر من "المصنوعات" الأجنبية على كل صعيد فان فقهاء كثيرين في المذاهب الأربعة فضلاً عن المذهب الجعفري الخامس لا يستخلصون الدروس المفيدة من هذا الواقع، بل ربما هم غير مهتمين لإعادة النظر بقواعد المدارس المذكورة وربما يحتاج الأمر إلى معرفة ومتابعة فقهية لتبيين ذلك عن كثب وللوقوف على ما طرأ على هذا الصعيد غير أن من أواخر تداعيات هذه القضية ما عبر عنه مفتي الحرمين قبل عقدين عندما أكد على عدم جواز اعتبار

(7) اندمج غير العرب في الحضارة العربية بواسطة الإسلام، وأتاح لهم هذا الاندماج الحفاظ على هويتهم الثقافية شأن الأكراد والشيشان والسلاف والأتراك والفرس وغيرهم أو بواسطة اللغة العربية ما أتاح لهم الاحتفاظ بدينهم ومعتقداتهم الروحية شأن الطوائف الدينية غير المسلمة.

الأرض كروية طالما أن هذه الحقيقة العلمية حصيلة مبرهنة في علوم الأجانب الكافرين وليس من إقرار علوم العرب أي العلوم الدينية البحتة. لقد كان من الصعب على مفتي الحرمين أن يخرج عن معادلة الغزالي المذهلة: الأجنبي كافر وكل ما يأتيه يدخل في باب الكفر حتى لو كان إثبات كروية الأرض بالبرهان والدليل القاطع. وما يدعو للأسف أن دعاة القطيعة ربما ما زالوا حتى يومنا هذا الأكثر نفوذاً في إرشاد المسلمين وفي تقرير شؤونهم.

لا تروم هذه الملاحظة استرجاع الجدل بين ابن رشد والغزالي بل الإشارة إلى مصدر ضرر يلحق بنا يومياً باعتبار أن الإسلام عقيدتنا وهو الذي شكّل ويشكل إلى حد كبير فضاءنا الثقافي الشامل ولا يمكننا أن ننهض بمعزل عنه أو بالضد منه.

حملة بونابرت أو تأسيس هرمية الحضارات

أغلب الظن أن الاتجاه الذي تحكّم بفصل علوم العرب عن علوم الأجانب كان مدفوعاً بضرورة حماية الإسلام من التأثير الأجنبي وتحصين المسلمين عبر حملهم على التمسك الأرثوذكسي بتعاليمهم الدينية، ولربما تجلّت النزعة الدفاعية تلك في أقصى صورها بالحركات الصوفية التي تسمو عن الدنيا بالانصراف إلى الخالق وحده دون أن يعني ذلك أن يحمل هذه الحركات اعتزل الدنيا إلى حد الامتناع عن الجهاد ضد الغزاة الأجانب، بل نجد عدداً كبيراً من قادة النضال ضد الأجنبي ينتمون إلى الحركات الصوفية كعمر المختار في ليبيا أو الأمير عبد القادر الجزائري في الجزائر أو الحركة الصوفية في السودان، لكن على الرغم من ذلك ظلت الصوفية حركة دفاعية تعبدية اعتزالية ولا يغيّر من طبيعتها أنها لعبت دوراً تبشيراً في إفريقيا علماً أن هذه القارة لم تكن وهي ليست إلى اليوم مركزاً حاسماً في تقرير مصير العرب والإسلام والمسلمين.

لم يعصم إذن الانكفاء الدفاعي عن الإسلام بلاد المسلمين من الغزو والاحتياح في الأندلس وفي الشام وفي الرافدين كما رأينا، لكن أثر هذه الغزوات ظل محصوراً في المجال العسكري فحيث فشلت انتهى أثرها إلى أن قرر نابليون بونابرت تأسيس مستعمرة في مصر نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع

عشر وعلى الرغم من فشل حملته العسكرية فإن حملته الثقافية نجحت إلى حد كبير عبر تأسيس وعي هرمي لدى العرب تقف على رأسه الحضارة الغربية (المقبلة) المظفرة ليس بقوتها العسكرية وإنما بعلوم الأجانب التي كان المسلمون يخشون تأثيرها على دينهم ولعل أثر هذا الوعي ما زال قويا حتى اليوم في مصر التي شهدت بمناسبة المئوية الثانية للحملة الفرنسية نقاشا انتصر فيه الداعون إلى رفض وجهها العسكري وتمجيد ما يسمى بوجهها "التنويري"، بكلام آخر رفض فعل الهزيمة العسكرية للحملة وتمجيد أثرها الأصلي أي هرمية الغالب والمغلوب واستبطان هذه الهرمية في اللاوعي المصري والعربي: علوم الأجانب هي الأفضل والتخرج من جامعاتهم والحصول على شهاداتهم والافتخار بأوسمتهم والانكباب على تعلم لغاتهم والتفاخر بها مقابل هبوط علوم العرب وحصرها بالعبادات والواجبات الدينية وهبوط قيمة الشهادات المحلية وهبوط قيمة الأوسمة الوطنية واللغة العربية.. الخ. واللافت أنه منذ الحملة المذكورة نشأ ما يعرف بعلم الفرعونيات واعتبره الفرنسيون فتحا علميا يضاف إلى فتوحاتهم الكثيرة لكن أثره في مصر انتظم في هرمية حضارية مؤداها أن المصريين كانوا عظماء فقط قبل الإسلام وأن الحضارة العربية الإسلامية عابرة في بلادهم وأنهم يندرجون في سلم حضاري قمته البعيدة فرعونية وقيمتها قريبة غربية وتقع في أسفله الحضارة العربية الإسلامية⁽⁸⁾.

ما من شك أن التأسيس لوعي حضاري هرمي يقف الغرب على رأسه شمل انطلاقا من مصر العالم العربي بأسره⁽⁹⁾. فمقابل الفرعونية في مصر انتشرت الفينيقية والسبئية والرومانية والبابلية واليونانية والمتوسطية في أرجاء أخرى من العالم العربي وشكلت مصدرا تأسيسيا للوعي القطري الكابح للوعي العربي الجمعي سيطغى طيلة الشطر الأكبر من القرن العشرين الذي أمضاه العرب في الدفاع عن بقائهم ضد الاستعمار الاستيطاني وفي المحاربة مع الدولة العبرية.

(8) راجع الفصل الخاص بتفاصيل حملة بونايرت في مكان آخر من الكتاب والحملة بتقديري فعل تأسيس في ثقافة الخضوع التي تسلت إلى بلادنا منذ ذلك التاريخ.

(9) يقول شيمون بيريز في حديث عن تأسيس الدولة اليهودية في فلسطين "عندما جئنا إلى المنطقة لم يكن أحد يقيم اعتبارا للعرب، كنا نعتقد أننا نحمل إليهم التعليم والتطبيب والتطور" يختصر هذا القول الهرمية الحضارية المذكورة بأوضح صورها.

الحدائثة والعصرنة والتنوير والعلمانية

أن تحمل وعي أسفل الهرم فهذا يعني أن تتطلع إلى أعلى الهرم تماماً كما يتطلع ساكن الكوخ إلى صاحب القصر، أو أن تمنع عبر التمسك بدينك والانطواء عليه رافضاً واقع التبعية والخضوع معترفاً ضمناً بالعجز عن تغييره. أن تحمل وعي أسفل الهرم فهذا يعني أن تفكر من موقع المغلوب وأن تتشبه بالغالب وأن تقلده في مأكله وملبسه ونمط تفكيره على غرار ما كان ابن خلدون يصف علاقة الغالب والمغلوب. لقد تجسدت هذه العلاقة في المعرض العالمي الفرنسي في مئوية الثورة الفرنسية الأولى عام 1889 حيث جيء بنماذج بشرية من الشعوب المستعمرة في آسيا وإفريقيا وعرضت في أقفاص في باريس كما تعرض الحيوانات المفترسة. كان الفرنسي بخاصة والأوروبي عموماً ينظر بأعين من أعلى الهرم إلى مخلوقات غريبة "همجية" بالقياس إليه وافدة من أسفل الهرم. كانوا عبيداً وكان حراً. حدث ذلك على مقربة من برج إيفل الذي شيد للمناسبة من الحديد الصلب وعلق كوسام على صدر العاصمة الفرنسية الكلية القدرة ليجسد عصر الثورة الصناعية التي غيرت وجه العالم ورستحت الهرمية الحضارية المذكورة لكن كيف تقدم الأوروبيون وكيف تخلف غيرهم؟

الناظر من أسفل الهرم الحضاري والمقيد بوعيه كان عليه أن يأخذ باستنتاجات الغربيين أنفسهم التي صارت أشبه بالمسلمات الهندسية. لقد تم التقدم الغربي على قاعدة العقل. منه خرج مفهوم العلمانية وأفكار الحدائثة والعصرنة ومنه خرج التنوير، وكل تنوير يفترض بمقابله ظلامية أنه بالتعريف ضد الظلامية التي حصرت عموماً بالغيبيات والسلطة الكنسية وليس بالحضارة المسيحية وقيمها.

إذن هم وصلوا إلى أعلى الهرم بالعقل التنويري وعلينا إن أردنا بلوغ القمة الحضارية أن نسير على رسمهم. ومن رغب بالسير في خط معترض يمكنه اللجوء إلى الخطوط المعترضة الموجودة أيضاً في أعلى الهرم حيث الطريق من التخلف إلى التقدم ومن الظلام إلى النور مرسومة بوضوح في الفلسفة الماركسية: التاريخ بدأ من المجتمع المشاعي ثم الرق ثم الإقطاعي ثم الرأسمالي وسينتهي بالحقبة العمالية حيث يسيطر الناس على وسائل الإنتاج ويتساوى البشر كلهم في قاعدة من "كل حسب

حاجته ولكل حسب طاقته" هنا يفصح التنوير العقلاني عن صورته الأكثر وضوحاً: لا بد من تهدم كل البنى الاجتماعية والثقافية السابقة على الرأسمالية أي على الوعي الحضاري الهرمي. لقد دعم كارل ماركس استعمار الجزائر لكونه يندرج في هذه السيرورة ونحن نعرف أن هذا الاستعمار الطويل وسّع المسافة الفاصلة بين الجزائريين وبين المتروبول بدلاً من أن يمحوها وحافظ بإخلاص على ترتيب الغالب والمغلوب طيلة 130 عاماً.

في الحالتين كان الأمر يعني ببساطة بالنسبة للعرب والمسلمين الأخذ "بعلوم الأجانب والتخلي عن علوم العرب" أي عن الإسلام أي عن الأساس الذي يقوم عليه وجودهم. بعبارة أخرى كان على العربي أن يتخلى عن سبب وجوده التاريخي من أجل بلوغ افتراضي متعذر سلفاً لقمة الهرم الحضاري العتيد⁽¹⁰⁾.

لقد أمضى الحداثيون العرب القرن العشرين في هذه السيرورة وهم ما زالوا فيها حتى الآن، في حين أمضى الاصوليون العرب القرن العشرين في حالة دفاع عن النفس ازداد خلالها اقتناعهم بفصل علوم العرب عن علوم الأجانب إلى أن شهد الربع الأخير من القرن العشرين صحوة إسلامية لم تعترف بالمفهوم الرشدي حول ضرورة الاتصال بين "الشريعة والحكمة" إلا أنها عملياً كانت تأخذ بهذا المفهوم، ويمكن القول دون تردد أن "الصحوة الإسلامية" أخذت بمنحى التفكير النهضوي عملياً لكنها نظرياً ظلت متمسكة بـ "فصل التفرقة بين الشريعة والزندقة" ولعلنا نجد في الحرب الأهلية الجزائرية في عقد التسعينات تجسيدا لهذا الأمر: مجتمع جزائري معرّب بواسطة الإخوان المسلمين وفق "علوم العرب" ونخبة حاكمة فرنكوفونية حدائية متشعبة بـ "علوم الأجانب" كان يكفي فقط أن تخضع هذه النخبة للضغط الغربي الديمقراطي المزعومة كي يخرج التناقض إلى السطح ويقع الانفجار الكبير.

إن معادلة "النور" و"الظلام" و"الحداثة" و"التقليد" و"التقدم" و"التخلف" انتشرت في العالم العربي بواسطة المثقفين العرب المسيحيين الذين كانت الثقافة

(10) لحّص لي أستاذ جامعي فرنسي جوهر ما يريده العرب بالقول أنهم يريدون التكنولوجيا دون قيمها وأن الغرب لا يناسبه هذا الانتقاء.

الغربية قد أصبحت ماثلة في صفوفهم منذ ما قبل انقياد الإمبراطورية العثمانية فكانوا الأكثر اتصالاً بثقافة الغرب ولغاته والأكثر قدرة على التعبير عنها في كنف الحضارة العربية الإسلامية أي في نقل علوم الأجانب دون طرح الكثير من الأسئلة عليها من هذا الوعي الهرمي بل من هذا البطن الأيديولوجي نشأت حركة الحداثة في الشعر. على غرار الحداثة الغربية التي قضت بتحطيم مناهج النظم التقليدية الموروثة منذ مئات السنين وإطلاق ما عرف بالقصيدة الحرة سوى أن تأثير الشعر الحديث ظل محصوراً في فئة نخبوية بل معزولاً إلى الحد الذي دفع الشاعر أدونيس أحد رواد الحداثة إلى القول أن اكتمال الحداثة شرطه تدهم البنى الثقافية والاجتماعية العربية أي القيام بثورة حدائية شاملة على الطريقة الغربية وهو أمر متعذر بطبيعة الحال بسبب الممانعة الدينية، وعليه لم يكن غريباً أن ينتشر بين العرب الشعر الأكثر قرباً من التفعيلة عبر قصائد نزار قباني وليس عبر أشعار أدونيس النموذجية في حداثتها.

في مسائل التقدم والتخلف جرى العمل على تدهم كافة الروابط التي كانت تتيح للعرب انسجاماً مجتمعيًا وثقافة موحدة كان الشعر العربي أحد أبرز وسائلها. وكان التقدم يعني تدمير نمط العمارة المحلي واستبداله بنمط العمارة الغربية. نحن نعيش اليوم في مدن عربية - باستثناء صنعاء - منسوخة بلا روح وبلا تقدير للمكان وتاريخه. مرة أخرى يمكن القول باختصار أن هيئتنا الحالية هي هيئة أسفل الهرم على كل صعيد وذلك على الرغم من محاولات التقدم الحثيثة التي بذلناها خلال القرن العشرين وكان أهمها وأكثرها جرأة وفائدة التجربة الناصرية.

القومية والشيوعية والليبرالية

الواضح أن "علوم الأجانب" ونظرياتهم السياسية كانت وما زالت إلى حد بعيد سيدة الثقافة السياسية العربية. لقد لاحظنا خلال القرن العشرين كيف أن الأيديولوجيات القومية والشيوعية والليبرالية قد شكلت أدوات مهمة للعمل السياسي العربي في شقيه المعارض والحاكم. كان تصور التيار القومي العربي يستند

إلى خلاصة التجارب القومية الأوروبية مثال: توحدت إيطاليا وألمانيا حول إقليم قاعدة وجيش قوي ومنهجية الوحدة الاندماجية، إذن يمكن للعالم العربي أن يسير بحسب القوميين العرب على النهج نفسه. و كان على مصر الناصرية أن تلعب هذا الدور ومن بعد بغداد ودمشق البعثية دون جدوى.

لقد فشلت التجربة القومية في العالم العربي لأسباب عديدة من بينها أنها تهدد هرمية الغالب والمغلوب بوسائل الغالب وأفكاره ولأنها بالمقابل اصطدمت مع التيار الديني، بل لأنها في لا وعيها أو في وعيها تستند إلى معادلة الظلام والنور: "التدين ظلام والحادثة الغربية نور". ولأنها أهملت حقيقة أن التجربتين الإيطالية والألمانية تمت في قمة الهرم أي في سياق صراع أوروبي - أوروبي على العالم ناهيك عن أن مصير الوحدة العربية كان مرهوناً بالأصل بمصير الصراع العربي - الإسرائيلي وبموازين القوى الدولية أي بمصير معادلة الغالب والمغلوب.

رغم ذلك استطاعت الناصرية أن تحدث ثورة في الوعي السياسي العربي ونحن ندين لها بإنجازات حاسمة على كل صعيد (يمكن العودة إليها في مكان آخر من هذا الكتاب).

كانت الناصرية تجربة سياسية قصيرة (16 عاماً) استندت إلى مناورات ناجحة بين القوتين العظميين خلال الحرب الباردة لكنها تعرضت لضربة إسرائيلية - غربية قاصمة عام 1967 ليبدأ من بعد التيار القومي العربي بالتراجع، علماً أن الناصرية كانت ربما الأقرب إلى روح الهوية العربية والأقل تمسكاً بالأيديولوجية القومية الكلاسيكية. إنها ضرب من القومية التجريبية التي قلبت الوعي السياسي العربي رأساً على عقب في حين كان البعث الأكثر تمسكاً بالأيديولوجيا القومية الكلاسيكية وقد فقدت هي الأخرى بريقها بعد الهزيمة في حزيران - يونيو 1967 لتتحول من بعد إلى غطاء لدول عسكرية محاصرة ومغامرة كما هي حال بغداد البعثية في عهد صدام حسين في حين راحت دمشق البعثية تتكيف وتتحول إلى طريقة في الحكم الدفاعي المحاصر وفي الحالتين لم تتمخض التجربة عن نهضة علمية أو تنمية تزود التيار القومي بوسائل لكسر معادلة الغالب والمغلوب على الصعيد العالمي.

لم تكن "الشيوعية" العربية أفضل حالاً من شقيقتها "القومية" اللدودة. معروف أنها نشأت وانتشرت وسط تيارات المعارضة وحركات المقاومة العربية وظفرت بحكم جنوب اليمن وكانت تغلف في هذا البلد تناقضات وصراعات تقليدية وقبلية ومناطقية وتحلو من الروح المحلية قياساً بالتجربة الماركسية الصينية⁽¹¹⁾ التي اجتازت الحرب الباردة وتجتاز اليوم العولة الليبرالية دون قيود أو صعوبات إيديولوجية من المؤسف أنها كبلت ونمّطت الشيوعية العربية فكان أن ألقته الحرب الباردة على قارعة الطريق لتحتل هامشاً ضئيلاً في الخارطة السياسية في هذا البلد العربي أو ذاك، وقد اتسعت عزلتها بعد أن فشلت في التكيف مع التطورات الدولية ما بعد الحرب في حين نجحت الشيوعية الإيطالية في التحول إلى قوة سياسية مؤثرة بحسب حسابها في الخارطة السياسية في بلاد الطليان.

أما الليبرالية فإنها كفت منذ زمن بعيد عن أن تكون في بلدان المنشأ تياراً ينطوي على مفاهيم متصلة بالعدالة الاجتماعية والنهضة القومية وباتت تنزع للتوسع والهيمنة الرأسمالية ذات الكلفة الاجتماعية الباهظة أما في بلداننا فإنها لم تتمكن من الاستقرار في أوج صعودها فنمت على هوامشها شخصيات محدودة التأثير في القرن الماضي، أما في مطالع هذه الألفية فإن ما يسمى بالليبراليين العرب الجدد - عددهم لا يتعدى المئة - ويكاد معظمهم أن يصنف في خانة عملاء الاحتلال الأجنبي ويجتهدون عموماً في ترويج حروب الرئيس الأميركي

(11) حاول الماركسيون العرب التقدم على المسرح السياسي بعد هزيمة حزيران - يونيو عام 1967 لكن محاولتهم كانت قصيرة المدى ومحدودة الأثر. فقد فشلوا في تثبيت "منظمة الأنصار" في لبنان 1970 و 1971 التي كانت تضم شيوعي بلاد الشام في تحويل الصراع العربي الإسرائيلي في وجهة ماركسية واحقق اليسار الماركسي في إسقاط النظام الأردني عام 1970 وأحيط النظام العربي الماركسي الوحيد في جنوب اليمن بعزلة وسيصاب بضربة قاصمة بعد 16 عاماً إثر مجزرة يناير الشهيرة. وفي السياق فشل انقلاب عسكري ماركسي في السودان 1971 وخسرت جماعة صلاح جديد الماركسية الصراع على السلطة في الفترة نفسها في سوريا وفشلت محاولة ماركسية لاستلام السلطة في العراق عبر حرب عصابات الأهواز واحقق ثوار ظفار الماركسيين العمانيين في العام 1976. من بين عوامل إخفاق هذا التيار بل ربما في أصلها، أن دعائه كانوا ماركسيين حرفيين ولم يملروا ماركسية عربية على غرار رفاقهم في الصين وكوبا وأوروبا كما أشرنا في المتن.

جورج بوش والتصدي للإسلام السياسي. لم يصبح الليبراليون الجدد والرايح أنهم لن يتحولوا إلى ظاهرة تستحق البحث والتحليل والتقييم ذلك أن خطابهم السياسي هو امتداد لخطاب الغزاة الأجانب بلغة عربية ركيكة وبلهجات محلية لا تحلق عالياً⁽¹²⁾.

الممانعة والمقاومة

انبثقت ممانعة قوية للثقافة السياسية الغربية سواء في الحكم أم المعارضة في العالم العربي وتمثلت بتيارات الإسلام السياسي "حركة الإخوان المسلمين" بخاصة وبالتيارات الإسلامية التقليدية المستندة إلى نظرية الفصل بين علوم العرب وعلوم الأجانب. تراوحت أشكال الممانعة بين الدعوة للحفاظ على التقاليد المحلية المهددة استناداً إلى تفسير متشدد للنص الديني ورفض شامل وكلي للحضارة الغربية والامتناع في بعض الحالات عن استهلاك منتجاتها والاعتراف بنتائج علومها وما زالت بعض أشكال الممانعة ذات البعد الدفاعي الانعزالي تتقهقر إلى يومنا هذا: رفض التلفزيون. رفض الانترنت. رفض قيادة المرأة للسيارة ومن قبل رفض التلفون ورفض العلوم الحديثة وما شابه وكان الرفض أقل راديكالية وعشية في حالات أخرى. لكن الوجه الآخر وربما الأهم لممانعة التيارات الدينية تمثل في التصدي للاحتلال الأجنبي في شمال إفريقيا وحفظ هوية بلدانها بمواجهة الغزو الاستيطاني وقد توجت هذه الممانعة بمقاومات مظفرة انتصرت في الجزائر التي كادت أن تصبح أثراً بعد عين وفي عموم إفريقيا الشمالية.

لم تقتصر الممانعة على الإسلام السياسي بطبيعة الحال فقد تمثلت أيضاً ومازالت بتيارات قومية ويسارية وماركسية لعبت أدواراً مهمة خلال الحرب الباردة وأقل أهمية من بعد كما لاحظنا من قبل وكانت هذه الممانعة قوية أيضاً وشبه شاملة في تعزيز الثقافة المناهضة لإسرائيل.

بيد أن معنى الممانعة ينطوي بالضرورة على رهان كان مختلفاً باختلاف

(12) وصف الليبرالي العراقي كنعان مكية وهو تروتسكي سابق الصواريخ الأميركية المنهمرة على بغداد خلال الغزو الأخير بأن وقعها على أذنه أشبه بموسيقى بتهوفن.

التيارات المذكورة فهو ينهض على استعادة الوعي الإسلامي الشامل للأمة واستئناف دورها الحضاري وهو بالنسبة للآخرين استكمال التحديث وامتلاك أدوات التقدم العصري ومصادر القوة اللازمة، أي تحقيق نهضة علمية سياسية تتيح للعرب استئناف دورهم الحضاري المرتجى في إطار اندماجي مع الحضارة الغربية وفي ظل قواعدها السائدة عالميا وفي سياق ثقافتها وبفعل أدواتها. بكلام آخر كان الممانعون دينيا يرون الخلاص عبر الاحتماء من النهضة العدوانية الغربية بالإسلام في حين يرى الحداثيون وجوب الانخراط بالنهضة الغربية نفسها والتشبه بها من أجل نهضة قطرية أو قومية عربية مماثلة لها.

لقد بات معروفا أن طرفي الممانعة لعبا أدوارا دفاعية: الحفاظ على الأرض وطرد الاحتلال عنها والتمسك بالدين والهوية الدينية بالنسبة للإسلام السياسي. وتحقيق الوحدة العربية بالنسبة للتيار القومي بوسائل وأدوات سياسية منقولة عن بلدان المنشأ الأوروبي وتفتقر إلى التكيف المحلي ناهيك عن محاولات ماركسية أممية لم تعمّر طويلا واقتصرت في حالات كثيرة على الاضطلاع بأدوار في التحرر الوطني وفي ردف السياسة السوفيتية بقوى محلية ضمن إطار "أممي" عابر للقوميات وناقد لها بوصفها بورجوازية أو بورجوازية صغيرة⁽¹³⁾.

في العموم توزعت تيارات الممانعة في مصر والعالم العربي على اتجاهين كبيرين، الأول إسلامي يرفض الحضارة الغربية ويقاوم انبثاتها في بلداننا بطرق ووسائل مختلفة وتتراوح مقاومته بين الرفض الجزئي والمطلق لهذه الحضارة والثاني يقبل الحضارة الغربية بوصفها متقدمة وعصرية ويرفض احتلالها العسكري ويمنعها إلى هذا الحد أو ذاك في سيطرتها السياسية على العالم ساعيا إلى الارتقاء العربي عبر الانتقال من قاعدة الهرم الحضاري الغربي إلى درجات أعلى في اتجاه قمته.

(13) اشترط اليسار الماركسي الفلسطيني لتحرير فلسطين تغيير أنظمة البورجوازية الصغيرة العربية والأنظمة الرجعية الملكية أي تدمم بنى العالم العربي السياسية قبل الوصول إلى القدس!! لا نعرف حركة تحرير وطني واحدة في التاريخ تخيلت مهمة عبثية من هذا الطراز فيما العدو يطرق أبواب بلادها.

إن تقارير التنمية العربية التي صدرت بعد تفجير برجي التجارة العالمية في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 هي بمثابة مذكرات لتنبيه هذا التيار إلى أنه لم يضطلع بالدور التنموي الذي اضطلعت به دول أخرى في العالم داخل الهرم الحضاري الغربي وفق المقاييس الغربية، ولمخاطبة هذا التيار بأن عليه أن ينهض مجدداً بعد أن بات الخطر الإسلامي داهماً وأن هذا الخطر ناجم أصلاً عن إخفاق هذا التيار في الاضطلاع بالمهام التاريخية التي حددها لنفسه بأثر من الثقافة السياسية الغربية نفسها.

البادي أن التيارين المذكورين استنفدا كل الوسائل المتاحة لهما في الدفاع عن العرب والمسلمين خلال فترة تتعدى القرن ما يستوجب البحث عن أنماط ووسائل وآليات تفكير مبتكرة، أي بلورة ثقافة سياسية عربية إسلامية جديدة ومختلفة، بل إلى قطيعة تاريخية مع الثقافة السياسية السائدة على الصعيد الدولي ومع الأشكال المجربة في ثقافة العرب السياسية في جناحيها التقليدي الديني والحداثي المتعدد المرجعيات⁽¹⁴⁾.

عناصر تجريبية لثقافة سياسية مختلفة

يلوح لي أن القطيعة المرتقبة تمر بالضرورة بالبحث عن عناصر مختلفة لثقافة سياسية عربية ناهضة. لم يبدأ البحث مع هذه الصفحات وليس قاصراً على كاتب هذه السطور بيد أنني اقترح ما اعتبره على سبيل التجريب عناصر أولية لثقافة سياسية أخرى عبر الخطوط التالية:

أولاً: منهجياً لا بد من الكف عن البحث عن حلول سياسية لقضايانا العربية عند الآخرين دون إهمال حصيلة التفكير الأجنبي الغربي سواء بوصفه

(14) تقدم تجربة حزب الله اللبناني الناجحة في مجابهة إسرائيل دليلاً على ثقافة سياسية مرنة معاصرة وواقعية مبنية على إيمان ديني راسخ. إنما الأصل في تحييد ثقافة الفتنة واتقاء شرورها وفي الإصرار على الصراع مع عدو الجميع دون غيره استناداً إلى عنصرين أساسيين تجمع عليهما الأمة هما الإسلام والقومية العربية، والواضح أن الحزب استخلص دون ضجيج دعاوي دروس الهجمات الناجحة والفاشلة مع الدولة العبرية وعممها في صفوفه أولاً ومن ثم لدى الرأي العام العربي والإسلامي عبر مواقفه واستراتيجيته الدعاوية ما جعل الصهاينة يعتبرون الصراع معه كما الصراع مع جمال عبد الناصر من قبل بوصفه مسألة حياة أو موت.

حمالاً لرؤى الآخر المسيطر أو مصدراً لتفاعل مفيد مع الأنا العربية مع الحرص الدائم على تجنب العداء المطلق مع ثقافة الآخرين على أن تكون قيمة ما يصلنا من ثقافتهم محددة بمنفعته لنا. بكلام آخر أن نقيس ما ينتجه الآخرون بمقياس المنفعة والتقدم للعرب والمسلمين. وإذا كان لا بد من سند فلسفي لهذا المنهج فهو الرشدية. لذا انتهز الفرصة للإشارة إلى ضرورة اللجوء منهجياً إلى ابن رشد بما يفضي إلى أن نكون مسلمين شأن طلعت حرب وغيره ممن عملوا بهدي الرشدية عن قصد أو عن غير قصد فكانت نتائج أعمالهم باهرة ولم تفقد قيمتها حتى يومنا هذا.

ثانياً: تجنب ما كل من شأنه المس بجوهر هويتنا العربية الإسلامية فلا قيمة عربية لإنتاج ثقافي عربي ما لم يضيف لبنة جديدة إلى نهضتنا المأمولة.

ثالثاً: شن حرب لا هوادة فيها على الأفكار والنصوص التي تعيد صياغة ثقافة الفتنة في مجتمعاتنا كائناً ما كان مصدرها الديني أو الحداثي.

رابعاً: التحلي بتصميم صريح على اقتفاء أثر تجارب ناجحة نهضت بوسائلها الخاصة والإفادة منهجياً من طرق نهوضها وليس تقليدها حرفياً فلا أحد نهض وينهض على صورة غيره. إن نهوض اليابانيين والصينيين وبعض الآسيويين المسلمين استند إلى تصميم وطني وقومي جدير بالتقدير فكانت الوطنية أو القومية عندهم "حق" يشهد على كل حق آخر لا يضاده ولا ينفيه.

خامساً: الكف عن الاعتقاد بأننا متخلفين بسبب أنظمتنا السياسية فهذه الأنظمة هي محصلة التخلف وليست سببه ذلك أن تخلفنا يندرج في هرم حضاري لا يمكن تعديل طبقاته إلا بنهضة شاملة وليس عن طريق تبديل نظام بنظام آخر، فكل نظام بديل عن النظام القائم سيلاقي المصير نفسه ما لم يكن علامة على نهضة شاملة للجميع.

سادساً: لم تنهض حضارة واحدة خلال التاريخ إلا عبر مواجهة أو مجاهدة مع الخارج بما في ذلك الحضارة العربية الإسلامية. لقد نهض الغربيون على الغزو وبواسطة الحروب والسيطرة والهيمنة ويسودون اليوم بواسطة نظام دولي ينظم الهيمنة ويضبط سياسات الدول الخاضعة أو المهادنة أو الشريكة من موقع أدنى

ومواقفها ومصالحها تحت سقف الهيمنة المذكورة. إن شعار الحفاظ على مستوى معيشة الغربيين الذي يطرح خلال حروب يشنها دورياً "تحالف دولي" مزعوم على بلداننا يعني وجوب استمرار الهيمنة والخضوع وبالتالي حملنا على البقاء حيث نحن حتى يبقى مستوى المعيشة الغربي حيث هو أي فرض احترام الهرمية الحضارية بالقوة العسكرية إزاء محاولات النهوض الدورية التي نسعى وتسعى إليها الشعوب والأمم الخاضعة.

والجدير ذكره أن الغزو إلى الخارج لا يتم دائماً بالوسائل العسكرية فأحياناً يتخذ شكل اجتياح سلمي ذلك أن الحضارة اليابانية والآسيوية عموماً نهضت وتنهض بالغزو السلمي خارج حدودها. لقد صوّر اليابانيون كل السلع المنتجة في الغرب ونسخوا ما يشبهها في بلدانهم ومثلهم فعل الصينيون. وإذا عدنا إلى الوراء نلاحظ أن الإسلام ما بلغ الحضارة التي بلغها إلا بعد أن سيطر على "علوم الأجانب" واستخدم طاقاتهم ووسائلهم على كل صعيد.

بالمقابل ما هزمت حضارة من الحضارات وما تراجعت حضارة من الحضارات إلا عندما استسلمت لفتن داخلية تستنزف قواها وتحطم وسائلها وتتيح لأعدائها والطامعين فيها سبل إخضاعها وقهرها.

سابعاً: إن ثنائية الحداثة والتقليد معادلة اعتمدها الغرب المنتصر في سياق إصلاح داخلي يؤكد انتصاره ويعززه. والثنائية نفسها تطرح علينا أو نطرحها على أنفسنا في سياق تكيّف واع أو غير واع مع شروط موقعنا السفلي في الهرم الحضاري، بكلام آخر تطرح هذه الثنائية في سياق أفضلية وصلاحية ثقافة الآخر وتختلف وعدم صلاحية ثقافتنا. إن الخروج من هذه الثنائية شرط ضروري لنهضة عربية إسلامية حقيقية.

ثامناً: إن الشرط المكمل لنهضتنا يتمثل في مراكمة المعرفة في بلداننا وفي تحرير الطاقات المؤهلة للإنتاج المعرفي وفي هذا المجال لا بد من الإقبال الواسع على ترجمة أمهات المعرفة المتداولة في عصرنا كما دعا ويدعو المفكر المغربي عبدالله العروي في مناسبات مختلفة.

تاسعاً: تحتاج الأمة العربية إلى بلورة كتلة تاريخية نهضوية من الصعب

انبثاقها وتمحورها بمعزل عن ثقافة سياسية ناهضة. إن ترديد اقتراح الكتلة التاريخية خلال اللقاءات القومية بوصفه إجراء تنظيميا واختصاره بتجميع فعاليات تنتمي إلى بلدان عربية مختلفة يخلق انطبعا واعدة لكنه خادع. إن تجارب البعث والحركات القومية الأخرى بنيت على هذا التصور وآلت إلى ما آلت إليه مما نعرفه جميعا ما يعني أن الكتلة التاريخية تقوم على قطيعة ثقافية تاريخية أو لا تقوم.

القسم الثاني

غزو السيف وغزو القلم

الباب الأول

حملة مصر

غزوة السيف وغزوة القلم

فصل جلول

لماذا احتاج نابليون بوناپرت مصر؟ أمن أجل تحرير المصريين من المماليك كما يقول في بيانه الشهير الموجه للشعب المصري؟ أم من أجل تحضير (من حضارة) هذا البلد كما يقول آخرون؟ بل من أجل إقامة مستعمرة فيه بحسب كثيرين وبالتالي قطع طريق الهند على بريطانيا؟ ربما احتاج مصر من أجل هذه الأسباب وغيرها. فالنقاش ما زال محتدماً حول دوافع الحملة وأهدافها ونتائجها. بيد أن الخلاف السياسي حول هذه الحملة لا يشغل العرب والمصريين كثيراً فهم يتفقون عموماً على كونها حملة استعمارية وبالتالي لا يقرون مع جان تولار - يلي نصه المترجم - عندما يكتفي بالقول فقط! أنها غريبة الأطوار ويختلفون معه ومع غيره بشدة حول نتائجها. فالحدائيون العرب يميلون إلى النظر إليها من باب "رب ضارة نافعة" ويعتبرون أنها أيقظت الشرق من سباته وكانت سبباً في طرح سؤال النهضة الأساسي: لماذا تقدّم الغرب ولماذا تأخر المسلمون؟ في حين يرى الإسلاميون أن نتائج الحملة كانت وبالا على الأمة الإسلامية ويحصرّون النظر في مقاتلتها، بخاصة المجازر التي ارتكبتها بوناپرت في الأعوام الثلاثة التي استغرقتها الحملة. فهل من متسع للنظر إليها بعين مختلفة؟ سنسعى لألقاء الضوء على وجوه الحملة المختلفة علنا نضيف إلى نص السيد تولار عناصر ضرورية وإطاراً يفصح عن الظروف التي تحكمت بهذا العدوان الذي شكل منعطفاً حقيقياً في مصر والعالم العربي⁽¹⁾.

(1) الهوامش التوضيحية في هذا القسم كلها من وضعنا وليست واردة في النص الفرنسي وقد اعتمدنا في صياغة الملاحظات التمهيدية على عدد كبير من مصادر تلك الفترة أهمها الآتي ذكره:

- A. Arnaud Coignet «De L'expédition À La Description D'egypte». www.mairie-dieppe.fr
- B. Extrait De La Correspondance Du Premier Consul. www.1789-1815.com
- C. Bataille De Pyramide. www.herodote.fr
- D. Amiral Henri Labrousse: La Mer Rouge Et L'expédition De Bonaparte En Egypte. www.stratisc.org
- E. Napoleon Bonaparte. www.brunette.brucity.be
- F. Les Mamelouks Sous L'empire. www.histoire.org

كانت فرنسا عشية الحملة قد خرجت من عهد اليعاقبة الراديكالي الترهيبى بزعمامة مكسيميليان روبسبير وسادها نظام عرف باسم (مجلس المديرين أو الإدارة 1794) المؤلف من خمس مديرين يتولون الشؤون التنفيذية ويسقطون بالقرعة سنويا عضوية واحد منهم على أن يرشح النواب عضواً بديلاً ويصادق الشيوخ عليه. في حين يتولى الشؤون التشريعية مجلس تمثيلي من خمسمائة نائب يقترح أعضاؤه التشريعات التي تحتاج إلى مصادقة مجلس من 250 شيخاً عرفوا باسم "مجلس الكبار" وفيه كان يفترض أن يكون سن العضوية ما فوق الأربعين عاماً. هكذا كانت السلطات مفتتة في هذا العهد الذي دام حوالى خمس سنوات كان "مجلس الإدارة" يخشى خلالها من عودة الراديكاليين والمفصلة حيناً وعودة الملكيين حيناً آخر ما أدى إلى عدم استقرار في فرنسا على كل صعيد. (ألغى "المجلس" نتائج ثلاث انتخابات ناجحة لأنها كانت ستأتى بالملكيين إلى السلطة التشريعية)

في أوروبا كانت الثورة الفرنسية ما زالت مهددة من طرف الملكيات التي تدعم حركات التمرد الدورية في هذا البلد ولاسيما التمرد الكاثوليكي في منطقة الفاندي شمال شرق فرنسا في حين كان الإنجليز يحاصرون مدينة تولون التي دانت لهم في أواخر عهد الترهيب.

وخارج أوروبا كانت الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية قد تلقت ضربة قاصمة في أميركا الشمالية حيث خسرت خلال حرب الـ 7 سنوات (1756 - 1763) كندا ولويسيانا ووادي أوهيو عموماً، وستخسر أوروبا كل مستعمراتها الأمريكية بعد نهاية تلك الحرب بسنوات قليلة مع حصول الولايات المتحدة على استقلالها. لذا كان على فرنسا بخاصة وعلى أوروبا عموماً أن تتجه إلى استعمار مناطق جديدة تعويضاً عن خسارتها الأمريكية.

في هذا الوقت كانت مناطق شبه القارة الهندية مسرحاً للاستعمار البريطاني وموقع تنافس شديد بين الإمبراطوريات الأوروبية الشرهة ويشمل هذا التنافس بطبيعة الحال الطريق البحري من أوروبا إلى الهند وتحتل مصر عليه موقعاً استراتيجياً.

وسط هذه الظروف المضطربة على الصعيدين الداخلي والخارجي ظهر نابليون بونابرت كمخلص لبلاده. كان ظهوره الأول في معركة تولون عام 1793 ضد الإنجليز حيث لعبت مدفعيته دوراً كبيراً في استعادة المدينة، وكان قد لعب دوراً مهماً في قمع مسيحيي الفاندي المتمردين ومن ثم في حماية نظام "الإدارة" من التمرد الملكي (5 أكتوبر - تشرين الأول عام 1795)⁽²⁾.

لن يقتصر دور بونابرت على حماية النظام من الخارج فقد ذهب إلى ابعد مما يريده "المجلس" الذي كان يرغب بحرب تخفف الضغط الخارجي عن الحكم. انتصر نابليون في حملته الإيطالية ووقع إتفاقية كامبو فورميو عام 1797 التي حددت النمسا ووسعت حدود الجمهورية الفرنسية في منطقة نفوذ ملكية أساسية حيث نشأت جمهوريات في المناطق التي اجتاحتها بونابرت على حدود الراين وصارت تابعة للجمهورية الفرنسية. ولتقدير أبعاد هذا الانتصار لا بد من التذكير إن الجغرافية والحدود الطبيعية (أنهار - جبال - بحار - صحارى) كانت حينذاك عنصراً حاسماً في سياسات الدول الخارجية والداخلية. فضلاً عن ذلك وفرت حملة إيطاليا الأموال اللازمة لنظام "الإدارة" المفلس.

بعد الحملة الإيطالية صار بونابرت زعيماً وطنياً شعبياً في (نظام غير شعبي) على ما يؤكد بحق جان تولاير. فما الذي يفعله بشعبيته وما الذي يفعله نظام الإدارة بجنرال تصعب السيطرة عليه. هنا التقت مصلحة الطرفين على احتلال مصر كمحطة للسيطرة على إمبراطورية الهند البريطانية ومواجهة بريطانيا - ما برحت تقود التحالف الأوروبي الدائم ضد الجمهورية الفرنسية - في الهند أي في معقلها الأبرز تمهيداً للانقضاض عليها في عقر دارها "... لن يطول الوقت بحسب بونابرت - في رسالة إلى مجلس الإدارة في 16 آب 1797 - حتى نكتشف أن تدمير بريطانيا يمر باحتلال مصر". علماً إن مشروع اجتياح مصر لم يكن جديداً فهو مطروح على طاولة الفرنسيين منذ انتهاء حرب السبع

(2) انقسم ملكيو فرنسا في عهد الجمهورية إلى قسمين. قسم قرر مغادرة البلاد والعمل على إسقاط نظام الحكم الجديد من الخارج وقد أطلق على أفرادهم اسم المهاجرين وقسم فضل الاندماج في النظام الجديد وخوض اللعبة السياسية الديمقراطية.

سنوات لا بل إن اقتراحا تقدمت به السلطات الفرنسية إلى الباب العالي من أجل شراء هذا البلد لكنه باء بالفشل.

غزوة السيف

اختار بونايرت اللحظة المناسبة لمباغطة الأسطول البريطاني المسيطر على البحر المتوسط والمرب منه. فقد كان يحكم بريطانيا في ذلك الحين رئيس الوزراء وليام بيت وهو حديث السن (37 عاماً) والتجربة وكانت بلاده تعاني من الإفلاس ويقوم بحارتها بتمرد في بورتسموث منذ بعض الوقت في حين تعيش أيرلندا انتفاضة عاصفة بدعم فرنسي.

أما مصر فكانت حينذاك خاضعة للمماليك الذين يحكمونها ظاهرياً باسم الإمبراطورية العثمانية لكنهم عملياً سادة البلاد بلا منازع وكانوا يوفرّون الحماية للبيوتات التجارية البريطانية اتقاءً لشر البريطانيين وخوفاً من سطوتهم في حين كانوا مرتاحي البال تجاه الفرنسيين حلفاء السلطنة، الأمر الذي كان يتسبب بضرر أكيد للبيوتات التجارية الفرنسية وهي إلى جانب الإيطالية تمثل القسم الأكبر من التجار الأجانب في مصر وقد فرت هذه البيوتات دعماً جديداً لحملة بونايرت على كل صعيد ولعل هذا ما يفسر حديث نابليون في مصر عن إهانة المماليك للتجار الفرنسيين والاعتداء على حقوقهم.

وإذا كان البريطانيون على علم بحملة عسكرية بقيادة بونايرت دون أن يعرفوا وجهتها بدقة فإن المماليك والعثمانيين لم تساورهم أية مخاوف في هذا الشأن ما يفسر سقوط مصر بسهولة (دامت معركة الهرم ساعتين فقط) ولعل مفاجأتهم ناجمة عن خيبتهم الطويلة في التحالف مع فرنسا منذ عهد الملك فرانسوا الأول واحترام باريس الصارم لقواعد التحالف. ولكن ما غاب عنهم هو أن "مجلس الإدارة" ارتفعت نشوته إلى السماء بعد الحملة الإيطالية وقرر تغيير قواعد اللعبة الدولية وإهمال التقاليد الدبلوماسية. ولو كان لليقظة حضور في أروقة السلطنة العليا ومماليك مصر لاكتشفوا دون عناء البحث المعمق أن الفرنسيين اجتاحتهم حليفهم سويسرا قبل الحملة مباشرة (بداية العام 1798) من

أجل تغطية تكاليف غزو مصر وزرعوا جمهوريات صغيرة في أسبانيا وكانت حليفهم أيضاً، فلماذا يحترمون تحالفهم مع السلطنة أكثر من احترامهم للتحالف مع جيرانهم!! ولو كانوا على يقظة لأدركوا - اقله من خلال سفرائهم - أن فرنسا كانت تسعى منذ بعض الوقت إلى تغيير العالم على صورتها الجمهورية وتخوض حروباً لهذه الغاية⁽³⁾.

تلك هي ظروف سقوط مصر السريع في قبضة بونايرت عام 1798 لكنه سقوط مؤقت ذلك أن الأميرال هوراتيو نيلسون سيدمر الأسطول الفرنسي (في أبو قير) بالقرب من الإسكندرية دون أن تصاب السفن البريطانية بخسائر جديرة بالذكر. ويسود اتفاق بين المؤرخين إن حملة مصر فشلت عسكرياً ابتداءً من تلك المعركة وإن ما حصل من بعد لا يعدو كونه تداعيات لكارثة أبو قير. فقد حاول بونايرت التعويض عن الفشل البحري بانتصارات برية. هاجم فلسطين وتراجع أمام أسوار عكا ووباء الطاعون الذي ضرب جيشه. صد من بعد حملة تركية مضادة في أبو قير وقهر الانتفاضات المصرية الدورية التي لم تتوقف طيلة سنوات الحملة الثلاث واضطر للهرب خفية من مصر تاركاً قيادة جيشه للجنرال كليبير⁽⁴⁾.

(3) تلاحظ أوجه شبه عديدة بين خلفيات ودوافع الحملة الفرنسية على مصر وخلفيات ودوافع حملة المحافظين الجدد في الولايات المتحدة على العراق وأفغانستان والشرق الأوسط عموماً. لجهة العبث بالقواعد الدبلوماسية الدولية وإعادة النظر بالتحالفات الغربية والدعوة إلى تغيير سياسي بالعنف على خلفية ثقافية ودينية.. الخ

(4) جان باتيست كليبير المولود في ستراسبورغ عام 1753. كان من أشد المنافسين العسكريين لبونايرت ويقال إن هذا الأخير رفض اصطحابه معه في هربه إلى باريس لكي يحرقه عبر توقيع اتفاق مع الإنجليز للانسحاب من مصر. و تفيد بعض الروايات أن بونايرت ضرب موعداً للقاء بكليبير يوم هربه فإذا بهذا الأخير يفاجأ برسالة من قائده تفيد انه غادر مصر وعينه على رأس الحملة الأمر الذي جعله يستشيط غضباً. وبالفعل وقّع كليبير اتفاقاً مشرفاً في العريش في 24 كانون الثاني - يناير مع الأميرال سيدني سميث، غير أن الأميرال الإنجليزي الآخر كيت لم يحترم بنود الاتفاق وطلب من الفرنسيين أن يستسلموا على أن يعاملوا معاملة السجناء. رفض كليبير هذه الإهانة وقرر القتال وانتصر في معركة هيليو بوليس وسيطر على أعالي النيل وبدا انه يستعيد زمام الأمور في مصر إلى أن فاجأه سليمان الحلبي بطعنات قاتلة في 14 حزيران - يونيو عام 1800. دفن كليبير في ستراسبورغ مسقط رأسه ونش النازيون المتعصبون للالزاس واللورين جثته خلال الحرب العالمية الثانية ثم أعيد دفنه بعد الحرب.

لكن هذا الأخير سيقتل بخنجر الأزهري سليمان الحلبي⁽⁵⁾ ليخلفه الجنرال مينو⁽⁶⁾

(5) سليمان الحلبي طالب سوري ولد في قرية عفرين شمال غرب حلب عام 1777 وكان والده محمد أمين تاجر يبيع السمن وزيت الزيتون، فلما بلغ سليمان العشرين من عمره أرسله برأ عام 1797 إلى القاهرة لتلقي العلوم الإسلامية في جامع الأزهر حيث انخرط في (رواق الشوام) المخصص لطلبة بلاد الشام في الأزهر. توطدت هناك صلته بالشيخ أحمد الشرقاوي أحد قادة ثورة القاهرة الأولى ضد الفرنسيين في أكتوبر 1798، وهي الثورة التي شهدت قصف الجامع الأزهر وتدنيسه بخيول الغزاة ثم أنتهت إلى الحكم على ستة من شيوخ الأزهر بالإعدام كان بينهم الشيخ الشرقاوي الذي اقتيد إلى القلعة حيث ضربت عنقه مع أعناق الشيوخ المجاهدين الخمسة الآخرين وفصلت رؤوسهم عن أجسادهم ودفنوا في قبور لا يعرف أحد مكانها حتى اليوم.

بعد إخماد ثورة القاهرة الأولى، تضاعفت مظالم الغزاة، وطورد كل مشبوه بانتمائه إلى المقاومة الشعبية فاختفى من اختفى، وخرج من مصر من خرج، ومنهم سليمان الحلبي الذي توجه عام 1800 إلى مسقط رأسه. ليس معروفا كيف نبتت الفكرة في رأس الحلبي لكن الثابت أنه التقى أثناء وجوده في القدس في مارس 1800 بمحافظ المدينة (أحمد آغا) وأن حوارا دار بينهما حول فكرة الإغتيال، ثم توجه الحلبي بناء على تعليمات آغا إلى الخليل ومنها إلى غزة حيث نزل ضيفا على (ياسين آغا) الذي أعطاه أربعين قرشاً تركية لتغطية تكاليف سفره إلى مصر على سنام ناقة في قافلة تحمل الصابون والتبغ، ولشراء سكين أو خنجر من أحد المحال في غزة وهي السكين التي قتل بها فيما بعد الجنرال كليبر.

استغرقت الرحلة من غزة إلى القاهرة ستة أيام، انضم بعدها سليمان إلى (رواق الشوام) حيث أربعة فتيان من مقرئي القرآن من فلسطين هم: محمد وعبد الله وسعيد عبد القادر الغزي، وأحمد الوالي، ابلاغهم سليمان بعزمه على قتل الجنرال كليبر، وبأنه نذر حياته لتحرير مصر من الغزاة.

في صباح 15 يونيو 1800 توجه سليمان إلى "بركة الأزبكية" حيث كان الجنرال كليبر يقيم في قصر (محمد بك الألفي) الذي اغتصبه بونايرت وأقام فيه، وتبعه إلى قصر (ساري عسكر داماس) المجاور، ثم تسلل إلى حديقة القصر وتظاهر أنه فقير وله حاجة فمد كليبر يده اليسرى لسليمان الحلبي حتى يقبلها، فأمسك بها وطعنه أربع طعنات قاتلة في كبده، وسرته، وذراعه اليمنى، وفي جده الأيمن. (يشغل مكان مقتله الآن محطة بنزين على ناصية شارع الألفي والجمهورية بالقرب من ميدان الأوبرا). كذلك تمكن من طعن كبير المهندسين قسطنطين بروتانين ست طعنات غير قاتلة، وفر من المكان، بعد أن تلقى ضربة قاصمة على رأسه.

بعد ساعة عثر عليه اثنان من العساكر الفرنسيين هما جوزيف برين، وروبيرت في حديقة القصر والسكين في يده، والدماء تتعب من رأسه العارية. وقال الجندي جوزيف برين فيما بعد: "لقد أضطررنا أن نضربه بالسيف عدة مرات لكي نحمله على المشي". حكم على الحلبي بأن تُحرق يده اليمنى حتى عظم الرسغ حتى تحترق العظام، ثم أن يعدم بالخازوق، كما حكمت المحكمة على أحمد الوالي ومحمد وعبد الله الغزي وسعيد عبد القادر الغزي (هارب) بالإعدام وفصل رؤوسهم عن أجسادهم على أن يتم ذلك أمام سليمان قبل إعدامه.

الذي وقع استسلاماً مهيناً مع البريطانيين قضى بان تنقل البواخر البريطانية ما تبقى من حملة بونايرت إلى فرنسا لتكون الحصيلة هزيمة عسكرية فرنسية مجلجلة. لكن انتصار بونايرت الثقافي سيكون مدوياً.

... وغزوة القلم

قبل بونايرت لم يسبق أن اجتاحت فاتح عسكري بلداً أجنبياً بجيش من المثقفين الأمر الذي يطرح سؤالاً كبيراً حول دوافعه الحقيقية. يعدد جان تولاير بعض هذه الدوافع غير أن تلميذه أرنو كوانيه يضيف بعداً في غاية الأهمية إذ يؤكد أن بونايرت برر الحملة المصرية باسم "الحضارة" للالتفاف على أنصار التنوير الفرنسيين الذين انتقدوا الكولونيالية ودافعوا عن حق الشعوب بتقرير

في تمام الساعة 11.30 من يوم 28/06/1800، نُفذ حكم الإعدام بالفلسطينيين الثلاثة أمام عيني سليمان، ثم حُرقت أجسادهم حتى التفحم، ووضعت رؤوسهم على نيايت، ثم غرس وتدل الخازوق في مؤخرة الحلي (تل العقارب)، وترك جثمانه المغروس في أحشائه الخازوق عدة أيام تنهشه الطيور. واعقب ذلك دفن جثمان الجنرال كليبر في (قصر العيني)، بعد تشييعه في احتفاء رسمي ضخم، حيث وُضع في تابوت من الرصاص ملفوفاً بالعلم الفرنسي، وفوق العلم سكين سليمان الحلي.

بعد أن تولى الجنرال جاك مينو قائد القاهرة السابق قيادة الحملة الفرنسية في مصر حمل معه إلى باريس عظام الجنرال كليبر في صندوق، وعظام الحلي في صندوق آخر، وعند إنشاء متحف (أنفالسيد) بالقرب من (متحف اللوفر) في باريس تم تخصيص رفان في إحدى قاعات العرض؛ رف أعلى وضعت عليه جمجمة الجنرال كليبر، وإلى جانبها لوحة صغيرة مكتوب عليها: جمجمة "البطل" الجنرال كليبر، ورف أدنى تحته وضعت عليه جمجمة سليمان الحلي وإلى جانبها لوحة صغيرة مكتوب عليها: جمجمة "المجرم" سليمان الحلي. (نقلنا الرواية بتصرف عن موقع المورق كوم).

(6) مينو جاك عبدالله. تولى قيادة الحملة الفرنسية بعد اغتيال كليبر وهو من الجيل القلتم من الجنرالات الذي تبوأوا مناصب في العهد الملكي. امتنع عندما تسلم كليبر قيادة الحملة وهو الأقدم منه مرتبة وسناً. اسلم في القاهرة وتزوج من مصرية مسلمة حتى يكسب عطف المصريين غير أن إسلامه لم يشفع له لدى الأهالي المتمردين الأمر الذي اضطره إلى عقد صلح مهين مع البريطانيين بعد أن أصيب بمرض الطاعون وكان آخر من غادر مصر من الفرنسيين مع أسرته. في فرنسا اقنع زوجته المسلمة باعتناق المسيحية وعادت الأمور إلى نصابها بالنسبة لتدينه. ظل مينو في بلاده رمزاً للعار في هزيمة مصر إلا أنه بدأ يستفيد مؤخراً من اتجاه متنام لإعادة الاعتبار إليه.

مصريها بنفسها. ويرى كوانيه⁽⁷⁾ أنه منذ العام 1750 كان الغرب يعي تفوقه المادي الذي فسّر بأنه يدين به للعقل وكان يعي تراجع الشرق الذي فسّر بأنه ناجم عن الاستبداد ما يفقد الحضارات العثمانية والفارسية والصينية مصداقيتها وهي التي كانت تسحر الغربيين قديما وتبهرهم. كان الإيديولوجيون ومنهم فولني يسوغون الاحتلال باسم "الحضارة" التي تضبط العنف وتدرج حركة الاستعمار في مفهوم هرمي لمراحل التاريخ والعصور الجغرافية المختلفة. بكلام آخر ضربت إيديولوجيا "الحضارة الغربية" المفهوم الحضاري السابق عليها لصالح تصنيف يتمحور حول مركزيتها فصار الاحتلال ليس فعلاً عدوانياً بل عملاً حضارياً. وعليه يتم تحضير الناس بالسيطرة عليهم تماماً كما تحضر الحيوانات المتوحشة عبر السيطرة عليها. ولا يفعل مناصرو حملة بونايرت العرب سوى تأكيد هذه الصيرورة عندما يقارنون بين وحشية المماليك وتحلفهم وتنوير الفرنسيين وتفوقهم وبالتالي اختيار التنوير الوافد مع الغازي المتفوق على التخلف المقيم مع الأهل المهزومين. إذن حجة "النور" استخدمت في الانتصار والهزيمة العسكرية بحسب المفهوم الغربي وليس بقياس التقدم والتخلف المبني على الأخلاق والعقل.

إن اصطحاب جيش من المثقفين إلى مصر يندرج في هذا الإطار ويرمي إلى جعل المصريين يتلمسون التفوق الغربي العلمي أي استحالة انتصارهم على الغرب، ليس لأنهم لا يملكون وسائل الانتصار وأدواته العسكرية المبنية على الإرادة والافتخار الحضاري بل لأنهم لا يملكون المعرفة الغربية التي تجعل من التفوق المادي قدراً يصعب نفيه من جهة. ومن جهة ثانية لماذا يموت المسلم في مقاومة بونايرت دفاعاً عن حضارة متخلفة وأدنى مرتبة من الحضارة الغربية المنتصرة. هكذا بعد أن انتصر بونايرت على المماليك نظم عروضاً علمية في القاهرة لكي يبرهن للقاهريين أن انتصاره على المماليك هو انتصار علمي في الأصل وليس عسكرياً وبالتالي لا راد لهذا الانتصار. إنه قدرتي ابدئي.

(7) راجع مقاله الهام المذكور أعلاه في قائمة المصادر الفرنسية.

من كان مستعدا في أواخر القرن الثامن عشر لمواجهة هذا المنطق طالما أن أحدا لا يواجهه اليوم في عمقه فضلاً عن إهمال مناهضي الحملة بالأمس كما اليوم الخلل في ميزان القوى المرتسم حينذاك. فسكان القاهرة البالغ عددهم 200 ألف نسمة كان عليهم مجاهدة أكثر من 30 ألف جندي فرنسي - ما يعادل ربع سكان العاصمة تقريباً - مزودين بأحدث الأسلحة المعاصرة علماً أن سكان مصر بأسرها لم يكن يتجاوز الـ 3 ملايين نسمة.

في مصر أراد بونابرت أن يثبت للمصريين أنهم ينتمون إلى حضارة خليقة بالهزيمة لأنها بالضبط تقع في مرتبة أدنى من الحضارة الغربية، وإن هذه الحضارة إن هزمت بالسلح فهزيمتها مؤقتة وغير نهائية وإن المطلوب هو النظر إلى المستقبل والبناء على صورتها وليس على صورة الحضارة العربية الإسلامية المتخلفة بالقياس إلى الحضارة الغربية. يبقى أنه منذ الحملة شاع هذا المفهوم التحضيري كل فترة الاستعمار في العالم الثالث، وذلك إلى حد بات معه من الصعب الانتباه إلى معنى اتخاذ بونابرت المتنور والديموقراطي قراراً باستئناف تجارة العبيد التي ألغتها الثورة الفرنسية في بداية انطلاقها ناهيك عن مبادرته لإعادة الألقاب الملكية التي ألغتها الثورة وأشياء أخرى من هذا القبيل.

أما الوجه الآخر للحملة الثقافية على مصر فيمكن في تعزيز اعتداد الفرنسي بحضارته وببلاده وبجيّشه وبعلميه. فالمعرفة قوة حقيقية بالنسبة للفرنسي وللغربي عموماً. بل هي أصل القوة. لذا اعتبر أن الإنجاز الأكبر للحملة هو كتاب "وصف مصر" وبخاصة فك رموز الهيروغليفية ناهيك عن الغنائم الأثرية التي حملها المحتلون معهم والتي مازالت تملأ المتاحف الفرنسية حتى اليوم. لقد كان كتاب "وصف مصر" في حينه أثراً معرفياً فرنسياً ذا أبعاد عالمية وهو ككل مقتنيات الحملة المعرفية كان يرفع من شأن فرنسا في موازين القوى المعرفية الأوروبية والدولية وهذا أمر في غاية الأهمية بالنسبة لبلد ظل طيلة قرون يلعب دوراً أساسياً على المسرح الدولي.

يبقى الوجه الفرعوني للحملة وهو يبرز بوضوح هرمية أخرى محلية ما زالت آثارها ماثلة حتى اليوم.

كان التركيز الفرنسي على الحضارة الفرعونية يريد القول أن الحضارة العربية الإسلامية عابرة في هذا البلد. "الفرعوني أصلاً" بنظر الثقافة المنبثقة عن الحملة والمستمرة حتى يومنا هذا. في المحصلة تبدو الحضارة العربية الإسلامية التي ينتمي إليها أهل مصر متخلفة وضيئلة بالقياس إلى حضارتين مجيدتين واحدة ساحقة في قدمها والثانية حديثة عقلانية ومنتصرة بتقنيات يبرهنها العقل.

إن القول بهزيمة نابليون بوناپرت في مصر يصح في جانبه العسكري، أما في الجانب الثقافي فقد حققت الحملة نصراً باهراً ما زالت آثاره ماثلة حتى اليوم ليس في مصر وحدها بل في العالم العربي والإسلامي برمته.

قد يكون من سوء حظ المصريين وحظنا جميعاً أن نابليون بوناپرت لم يكن جنرالاً فحسب بل كان عضواً في الجمع الفرنسي أيضاً وهو قاريء روسو وفولتير وفلاسفة التنوير وصديقاً للإيديولوجي الأهم في حينه فولني⁽⁸⁾ الذي أمضى 4 سنوات في مصر وسوريا ونشر رحلته الشهيرة عنها وكان بوناپرت صديقاً أيضاً لـ "ماغيلون" أحد أبرز التجار العاملين في مصر والذين كانوا يمثلون مع الإيطاليين النسبة الأكبر من التجار الأجانب في هذا البلد وقد مولوا الحملة وشجعوا على قيامها.

لقد اجتمع السيف والقلم أصلاً في قائد الحملة فلم يكن بد من أن تظهر على تلك الصورة وأن تكون بلا جدال اجتياحاً علمياً وعسكرياً في الآن معاً، أما آخر انتصاراتها فهي ماثلة إلى يومنا هذا في القاهرة المعز التي تحمل عمرانها العربي الإسلامي

(8) كونستانتان شاس بيف المعروف بـ كونت دو فولني 1757 - 1820. حصل على مرتبة نبيل في عهد بوناپرت الإمبراطوري الذي أعيدت خلاله الألقاب. سجن في عهد البعاقبة بتهمة التعاطف مع الملكية واشترك في انقلاب بوناپرت على الجمهورية لكنه رفض أن يتولي منصباً رسمياً كوزير أو قنصل في العهد القنصلي الذي مهد لعهد بوناپرت الإمبراطوري. لكنه انتخب نائباً لرئيس مجلس الشيوخ واستقال من بعد ليتفرغ للكتابة. وهو فيلسوف ومستشرق تعلم اللغة العربية في دير مسيحي في جبل لبنان. عين في 6 ديسمبر - كانون الأول عضواً في الجمع العلمي الفرنسي وأسس جائزة حول أفضل عمل في اللغات الشرقية. وكان قد تجول خلال 4 سنوات في مصر وسوريا وعاد عام 1787 إلى فرنسا لينشر نص رحلته التي جلبت له الشهرة. كان من أكبر وأهم منظري حملة نابليون المصرية.

وتتكرر لمؤسستها بينما تنبت في أرجائها مومياوات فراغة آلاف القرون المنصرمة...
يا له من نصر مذهل!!⁽⁹⁾

كان لا بد من إضافة هذه العناصر لتوسيع إطار الحديث عن الحملة الذي يرد مفصلاً وبالقدر الأكبر من الموضوعية في نص جان تولا. وقد نشر هذا النص في مجلة l'histoire الفرنسية الشهيرة في تشرين الثاني - نوفمبر عام 1983 وكتبه ربما يعتبر الاختصاصي الأبرز في تاريخ نابليون بونابرت العام والخاص وقد وضع مؤلفات عديدة حول الحقبة البونابرتية التي طبعت فرنسا وأوروبا والعالم، ويحظى المؤلف بسمعة طيبة في بلاده وفي الأوساط الدولية المهتمة بهذه الفترة وذلك لاتسام أعماله بالموضوعية والإنصاف ودائماً في الإطار المنهجي الشكافي للهرمية المشار إليها على لسان تلميذه الوارد ذكره في السياق. فإلى النص.

(9) من مفارقات حملة مصر أن نابليون بونابرت جلب معه إلى فرنسا حارساً مملوكياً يدعى روستان بقي معه حتى مماته. وفي مصر نظم كليبر فرقة مملوكية سماها مينو من بعد "ممالك الجمهورية" وقد عادت هذه الفرقة مع الفرنسيين وشاركت في معركة أوسترليتز وتشير بعض الروايات إلى أن المقاتلين المماليك لعبوا دوراً مهماً في هذه المعركة ويقال إنهم شاركوا أيضاً في واترلو، لكن الأمر المؤكد هو أن من بقي من المماليك وعائلاتهم تعرض للابادة على يد الفرنسيين في مدينة مارسيليا بعد هزيمة بونابرت في واترلو. من جهة ثانية أجرى السيد دومينيك بوديس دراسة حول الفرنسيين الذي بقوا في مصر ولم يرغبوا في العودة إلى بلادهم مع عساكر الحملة وتبين له أن هؤلاء اندمجوا تماماً في المجتمع المصري لكنهم احتفظوا بأسماء تشير إلى مناطق سكنهم الفرنسية. مثال: محمد التولوزي نسبة إلى مدينة تولوز وعلي المارسللي نسبة إلى مدينة مارسيليا. تبقى الإشارة إلى ارتكاب الفرنسيين مجازر رهيبة خلال حملتهم المصرية من ضمنها اغتيال 4000 آلاف أسير في عكا وتدمير كل المدن التي مرت فيها الجيوش الفرنسية في طريق عودتها إلى القاهرة. ويروى أن نابليون طلب من أطبائه قتل المرضى الفرنسيين بالطاعون غير أن هؤلاء رفضوا قائلين نحن هنا لنشفي المرضى لا لنقتلهم.

من مظاهر الوحشية الأخرى في الحملة طلب نابليون من قادة جيشه في العام الثاني قتل ستة أشخاص يومياً على الأقل لترهيب السكان وقصف مظاهرة قاهرية بالمدفعية واقتحام الأزهر بفرق الخيالة... إلى غير ذلك من البشاعات الأخرى التي يروي تفاصيلها عبد الرحمن الجبرتي في كتابه الشهير عن الحملة "عجائب الآثار في التراجم والأخبار". ويتجاهلها جان تولا في نصه الوارد في هذا الكتاب.

حملة نابليون بونابرت على مصر غريبة الأطوار... لكنها تنطوي على فوائد

بقلم: جان تولار

لا يوجد في تاريخ بلادنا حملة غريبة الأطوار كحملة مصر عام 1798 م. وهي غريبة الأطوار لأنها اقتضت إرسال أفضل جيش في فرنسا في بواخر معرضة للأسر أو للغرق بواسطة الأسطول الإنجليزي الذي كان يسيطر على البحر المتوسط بلا منازع، وغريبة الأطوار لأن رجالها استقلوا البواخر دون أن يعرفوا وجهة السفر. وغريبة الأطوار أيضاً لأنها قضت باجتياح بلد في شهر تموز - يوليو حيث الحرارة شديدة الارتفاع، ما يفصح عن جهل كامل بمناخه، ناهيك عن أننا لم نعلن الحرب على هذا البلد من قبل.

من جهة ثانية كانت هذه الحملة غريبة الأطوار لأن غرضها المعلن هو تأسيس مستوطنة في وقت كنا نطرح فيه شعار حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها. وبلغت الغرابة قممتها عندما تحول الجيش الفرنسي المحتل إلى أسير لاحتلاله وأصبح غير قادر على العودة إلى فرنسا، في حين تخلى عنه قائده (بونابرت) وعاد إلى باريس من أجل إنقاذ الجمهورية التي كانت مهددة من قوى مؤتلفة كان تكتلها متوقفاً منذ وقت طويل.

لكن على الرغم من غرابة أطوارها فإن حملة مصر قد غيرت وجه التاريخ. فهي أتاحت ولادة علم عبر اكتشاف أجماد حضارة إن لم تكن منسية Egyptologie المصريين فقد أصبحت غامضة. وأتاحت الحملة انطلاقة اقتصادية لمصر وأعادتها لها مكانة في الشرق الأوسط كان يبدو أنها فقدتها. لهذا كله ما زالت هذه الحملة تمارس تأثيراً خلافاً رغم أنها ليست الأكثر إهماراً بين حملات بونابرت. ولهذا أيضاً ما برحت بيبليوغرافيا الحملة تغني بأعمال جديدة في السنوات الأخيرة. فقد أعيد نشر كتاب بنوا - مشان والسيرة الذاتية لـ (فيليبو) الفرنسي الملكي المدافع عن عكا وحليف الإنجليز.

والطبعة الأصلية ليوميات أحد الأشراف المصريين (عبد الرحمن الجبرتي) في القاهرة بين 1798 - 1801. والتي أنجزها جوزيف كيوك. ورسومات غير معروفة لنويل ديوجين مرفقة بتعليقات رائعة لفرناند بوكور. وإحصاء للأطروحات الجامعية التي تناولت الحملة أعدها ج - أ - غوي... الخ

بعد إعلان سلام كامبيو - فورميو عام 1797 أصبح نابليون بونابرت الجنرال الأكثر شعبية في الجمهورية. كان جنرالا شعبيا في نظام غير شعبي، وبالتالي عليه أن يستخلص النتائج الملائمة من هذه الوضعية.

وبما انه يتمتع بحس سياسي ما أنفك يميزه، فقد خلص إلى أن قيامه بانقلاب على هذا النظام لم يكن أوانه بعد. ذلك أن حكم (الإدارة) [كان مؤلفا من مجلس يضم 5 مديرين يتولون السلطة التنفيذية ودام من 1795 إلى 1799 وقلبه بونابرت الذي أقام على أنقاضه النظام القنصلي ليصبح إمبراطورا من بعد]. كان ما زال صامدا وصلبا بعد أن تخلص من خصومه اليمينيين (التيار الملكي) واليساريين (اليعاقبة) معاً. ناهيك عن أن الرأي العام كان ما زال متحفظا حيال الجنرالات السياسيين خصوصاً بعد التجارب الفاشلة للجنرالات لافايت وديموريز وبيشيغري. يضاف إلى ذلك أن شعبية بونابرت لم تكن ناتجة عن انتصاراته فحسب وإنما عن إخلاصه للشرعية وهو إخلاص برهن عليه وأكدته دائما، لذا كان تجاوزه للشرعية أو الإيحاء بهذا التجاوز يعد بالنسبة إليه موقفا انتحاريا.

كان عليه إذن أن ينتظر اللحظة المناسبة وأن يذكر بوجوده دائما. هكذا عمل على أن ينتخب عضوا في المجمع الفرنسي في 25 كانون الأول - ديسمبر 1797 لكن ذلك لم يكن كافياً لجذب الانتباه طويلا إليه، فخلص إلى أن حملة عسكرية كبيرة، ضرورية لكي يبقى في قلب الأحداث. لكن إلى أين تتجه هذه الحملة؟ هل يمكنه استعادة مشروع سابق لشن حملة عسكرية على إنجلترا؟ هذا الخيار بدا له مليئا بالمخاطر والمخازير، فقد اخفق هوش من قبل ولم يكن بونابرت واثقا من انه سيفعل أفضل من سلفه.

في هذا الوقت، وتحديدًا في 3 تموز - يوليو 1797م قرأ تاليران (وزير الخارجية) دراسة خلال جلسة عامة للمجمع (الفرنسي) حول الفوائد التي يمكن

جنيتها من المستعمرات الجديدة في الظروف الراهنة. وذكر في هذه الجلسة بمشروع أعده شوازيل وينادي بالتنازل عن مصر لفرنسا. فمصر كانت في حينه (على الموضحة) إذ في العام 1785م كان سافاري قد نشر رسائله عن مصر وبعد عامين أطلق فولني رحلته إلى مصر وسوريا، قبل ذلك لم نكن نعرف أشياء كثيرة عن هذه المقاطعة التابعة للإمبراطورية العثمانية ولم يكن ماضيها المجيد معروفا بطريقة جيدة. لكن لماذا الاستيلاء على مصر؟ الجواب بنجده عند تاليران⁽¹⁰⁾ الذي كان يقول بنهاية السيطرة التركية على الشرق الأوسط وأوروبا ويرى انه لا بد من الإفادة من ذلك وبالتالي القبض على تركتها والحفاظ على تجارة فرنسا في الشرق. وفي 27 كانون الثاني - يناير 1798 حدد تاليران نواياه بوضوح: (...) لن تستمر الإمبراطورية العثمانية أكثر من 25 سنة وستكون مقاطعاتها الأوروبية فريسة لإمبراطوريتين، وهذا مناقض بالطبع لرأي مونتسكيو الذي قال في مكان ما (...) ستدوم الإمبراطورية العثمانية طويلا لأنها عندما تتعرض للتهديد من أي قوة، ستهب الأمم التجارية الكبرى الثلاث لنجدها) مهما يكن من أمر فإذا ما تأكدت حسابات الذين يعرفون الإمبراطورية

(10)تاليران (1754 - 1838) ينتمي إلى عائلة من النبلاء. أصيب بعرج في رجله في سن الرابعة حال دون أن يصبح جنديا لكنه تلقى علوما دينية. طبع الدبلوماسية الفرنسية بين العام 1790 و1838 . كان مقربا من ميرابو في سنوات الثورة الأولى ومن دعاة الاعتدال وفي العهد المونارشي نصح الملكية المنهارة باعتماد سياسة مسالمة ومعتدلة وقبول الآخرين للحفاظ على النظام دون أن يصغي احد لأقواله. في الجمهورية الصاعدة كان يؤكد أن "الاحتلال والحرية تعبيران متناقضان". وكتب في العام 1792 يقول "الغنى لا يعنى السيطرة على ممتلكات الغير وإنما إعطاء قيمة للممتلكات الفرنسية. ذلك أن الأراضي الفرنسية تكفي الفرنسيين. والجمهورية الفرنسية يمكن أن تكون نافذة في أوروبا من خلال نموذجها وليس بواسطة القوة". كان وزيرا للخارجية في عهد "مجلس الإدارة" في العام 1797. وخدم مصالح نابليون بونابرت وكان من المقربين منه بعد انقلاب برومير وصار أيضاً وزيرا لخارجيته لكنه انقلب عليه وكتب بنفسه وثيقة خلعه عام 1814 ليلتحق بخدمة لويس الثامن عشر الذي عينه وزيرا للخارجية وختم حياته في عهد لوي فيليب دورليان كسفير في لندن.

اعتبر من ابرز الدبلوماسيين في تاريخ فرنسا فقد خدم بمهارة أكثر السياسات تطرفا دون أن يكف عن انتقادها في السر وكان يتمتع بموهبة الكاتب ويهوى الشعر ويمتلك صفات رجل الدولة من أقواله الشهيرة أن "وزير الخارجية يجب ألا يكف عن أن يكون وزيرا للخارجية طيلة 24 ساعة".

العثمانية أفضل من غيرهم فإن على الجمهورية (الفرنسية) أن تتخذ تدابير تتيح لها اقتطاع الأجزاء التي تناسبها من التركة العثمانية، وأضع مصر في المقام الأول وبدون تردد، وجزيرة كريت وليمنوس. إن مصر التي جعلتها الطبيعة قريبة جداً منا تقدم لنا فوائد جمة في العلاقات التجارية سواء مع الهند أو مع غيرها. فضلاً عن إن مناخها وأرضها يمكن أن تغنيانا عن مستعمراتنا في الهند الغربية. أما جزيرتا كريت وليمنوس فهي تجعلنا أسيادا في أرخبيل بحر إيجه ومضيق الدردنيل لكن التمتع بهذه الانتصارات يفترض ارتياد جزيرة مالطا بحرية).

وعما سيكون موقف القسطنطينية من هذا التوجه؟ يرد تاليران قائلاً: (...). لماذا يجب أن نواصل بذل التضحيات لمصلحة قوة تقترب من حفتها، وصادقتها ملتبسة؟ ثم إن مصر لا تمثل شيئاً بالنسبة لتركيا ولا سلطة للأتراك عليها).

في 14 شباط - فبراير عام 1798م تسلم حكم الإدارة تقريراً حول (المسألة المصرية) ورد فيه: (.. إن مصر الواقعة في عقدة مواصلات بين أفريقيا وآسيا وأوروبا لا ينقصها إلا حكومة عاقلة تكشف عن الكثير من مصادر الغنى والرخاء فيها. يجب أن يعاد فتح طريق السويس أمام التجارة مع الهند بدلاً من طريق رأس الرجاء الصالح المكلف الطويل. ينطوي هذا المشروع على ثورة اقتصادية، وسيكون في حال تنفيذه بمثابة ضربة قاصمة للانجليز، ويخدم مصالح فرنسا بسبب موقعها على البحر المتوسط. إن شعوب أوروبا، ستفقد عاجلاً أو آجلاً مستعمراتها الأميركية ولن تحظى فرنسا بتعويض أفضل من هذا التعويض). وكانت أجهزة تاليران تحرص على لفت الانتباه إلى أنه بعد احتلال مصر، يمكن لفرنسا أن ترسل حملة عسكرية من السويس إلى الهند وتتصل بسلطان هندي محلي (دعمته فرنسا بعد أن طرد الإنجليز من مقاطعته عام 1784 م). وكانت الأجهزة نفسها تؤكد أن إنجلترا لا تستطيع أن تصدى للحملة على مصر، إذا تمت بسرعة، لأنها ستكون مضطرة ساعتهذ لمواجهة احتمال إنزال بحري على شواطئها. وتشير أيضاً وأيضاً إلى أن روسيا وبروسيا والنمسا لا يمكنها أن تحتج على الحملة المصرية، لأنها منشغلة بضم بولونيا، ولا يمكن أن تحتج وهي نفسها شطبت المملكة البولونية عن الخارطة. وأخيراً كانت الأجهزة تطمئن بأنه يمكن إرسال بعثة إلى القسطنطينية

للحصول على رضا الباب العالي. ذلك كله لا يدع مجالاً للشك أن تاليران هو صاحب فكرة الحملة على مصر. لكن متى فكر نابليون في هذه الحملة؟

إذا ما رجعنا إلى يوميات ديزيه⁽¹¹⁾ نلاحظ أن بونايرت ربما تحدث عن الحملة المصرية للمقربين منه خلال حملة إيطاليا. ومن المعروف أنه قرأ كثيراً عن الشرق في مذكرات البارون توت وفي تاريخ العرب لماريني فضلاً عن تاريخ الأب رينال حول الهند الشرقية والغربية. ويمكننا أن نؤكد أنه كان على علم بأفكار تاليران. هكذا بدا له أنه لا بد من اغتنام هذه الفرصة الجيدة. أليست هذه الوسيلة المناسبة للابتعاد مسافة عن حكم (الإدارة) وترك الأوضاع تتفاقم في البلاد؟ خصوصاً أن الانتصار في هذه الحملة بدا له سهلاً بحسب تأكيدات القنصل ماجلان. وأخيراً الشرق يستجيب لخيال بونايرت فالتوجه نحو الهند عبر مصر يضعه في منزلة الإسكندر المقدوني.

طرح كثير من المؤرخين فرضية تقول إن بونايرت كان يحلم بإقامة إمبراطورية يمكن رسم حدودها في مناطق سيطرة الأتراك، وتحدث كثيرون عن الحلم الشرقي لبونايرت من ادوار دريو إلى بنوا - مشان وتداولوا صيغا عديدة لهذه الإمبراطورية، لكن هذه الصيغ ربما كانت تهدف إلى خلط الأوراق وطمأنة حكم الإدارة إلى نواياه. وهو نفسه رجع إلى هذه الفترة في جزيرة القديسة هيلانة، لكنه لم يفصح عن حقيقة نواياه في العام 1798 م. في كل الحالات كان بونايرت يبدو خلال حملة مصر وكأن أنظاره موجهة نحو فرنسا وإن الحلم الغربي عنده يتغلب على الحلم الشرقي.

وإذا كان صحيحاً أن هذه الحملة تندرج تماماً في السياسة التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، فإن النظر إليها عن قرب يتيح القول بأنها كانت خياراً

(11) الجنرال ديزيه 1768 - 1800: كلفه بونايرت باحتلال منطقة أعالي النيل وتولي الحكم فيها. فعل ذلك بنجاح باهر من علامته أنه لقب بـ "السلطان العادل". بعد مغادرة نابليون مصر طلب منه كليبير عام 1799 أن يعود إلى القاهرة للتفاوض مع الأتراك والإنجليز ونجح في توقيع اتفاق العريش في كانون الثاني 1800 ثم غادر إلى باريس في 3 مارس وذهب إلى إيطاليا حيث قتل بعد شهر عن عمر لا يتعدى الـ 32 عاماً.

جنونيا، لأن احتلال مصر كان سيحرم فرنسا حينذاك من جيش و جنرال مجريين في وقت كانت فيه مهددة بالحرب. ناهيك عن انه كان من الصعب ضمان اتجاه هذه الحملة، هذا إذا أهملنا رد الفعل التركي، لأنه وعلى الرغم من الأقوال المطمئنة، فإن الحملة تنطوي في الحد الأدنى على خطر التخلي عن الحليف العثماني. كان ينبغي إذن أن يذهب تاليران إلى القسطنطينية كي يشرح للسultan (سليم الثالث) بان الأمر لا يتصل بعمل حربي ضده، لكن هذه الزيارة لم تتم لأسباب مختلفة.

لقد بدا تاليران مستخفا عندما توجه نابليون نحو مصر، وبخلاف الاعتقاد السائد يروي جوزف (بونابرت) إن أخاه كان مترددا كثيرا ولم يكن شديد الحماس لأنه كان يحسب إلي أي مدى كان هذا الرهان جازيا، ويؤكد على ذلك فوشيه⁽¹²⁾ الذي يروي في مذكراته أن بونابرت كان يشعر بان حملة مصر هي فخ نصب له. تفسير ذلك أن حكم (الإدارة) كان بالتأكيـد، ينظر بعين الرضا، إلى ابعاد جنرال مـربك للغاية، عن باريس. لكن رغم ذلك كله كان نابليون يستعجل الاستعدادات، فغادر في 4 أيار - مايو إلى تولون... ومنها انطلقت الحملة.

تم التحضير للحملة وسط إجراءات سرية للغاية كي لا تتسرب أخبارها إلى الانجليز المسيطرين على البحر المتوسط وكي يتمكن الأسطول الفرنسي من الإبحار خفية. لذا لم يبلغ الجنود بوجهة الحملة. مثال ذلك أن ميـرا⁽¹³⁾ الموجود في حامية

(12) جوزيف فوشيه. (1759 - 1820) سياسي فرنسي تقلب في عهود مختلفة. كان ثوريا في عهد الثورة وإمبراطوريا في عهد الإمبراطورية وملكيا في العهد الملكي العائد. شغل منصب وزير الداخلية في كافة العهود المذكورة وطرد من منصبه مرة واحدة في عهد بونابرت بسبب عداوة نشبت بينه وبين شقيقين من أشقاء الإمبراطور. عرف بنفوذه الواسع جراء منصبه سواء في فرنسا أو أوروبا.

(13) يواكيم ميـرا (1767 - 1815): ينتمي إلى أسرة كانت تدير نزلا لكنه لمع في الجيش وحصل على ألقاب ومناصب عليا. التقى نابليون بونابرت في العام 1795 وسغير هذا اللقاء سيرة حياته. شارك في حملة إيطاليا ومصر. وساهم في تسلم بونابرت السلطة في 18 برومير إذ فرق بـخيالته مجلس الـ 500 مئة الكبار الذين رفضوا انقلاب بونابرت. تزوج من كارولين شقيقة الإمبراطور. في العام 1805 صار أميرا بعد إعادة الألقاب وتسلم عرش إيطاليا ليصبح ملكا على نابولي وألغى النظام الإقطاعي فيها. قتل بعد هزيمة بونابرت في واترلو بعد ان رفض النظام الملكي تثبيت ولايته الايطالية.

إيطاليا، تلقى أمرا بالانتقال إلى ميلانو، وفيها تلقى أمرا آخر بالذهاب إلى جنوى بسرعة قصوى، وعلم فقط انه سيقود اللوئين 14 و18 دراغون في (الحملة الكبيرة) التي ما انفكت وجهتها مجهولة.

في مثل هذه الظروف تم تحضير الحملة واستغرقت الاستعدادات شهرا واحدا، لأن التأخير كان ينطوي على خطر تسرب أخبارها إلى الانجليز. أما تغطية نفقات الحملة فقد تمت بواسطة الأموال التي أخذت من سويسرا أثناء التدخل الفرنسي.

خيم زهول كبير على العسكريين عندما شاهدوا مثقفين واختصاصيين يصعدون إلى البواخر: 12 عالم رياضيات و3 علماء فلك و16 مهندسا مدنيا و13 عالم طبيعيات و5 مهندسي مناجم و4 مهندسين معماريين و8 رسامين و10 أدباء و22 اختصاصيا في الطباعة مجهزين بأحرف لاتينية ويونانية وعربية... أما لائحة الشخصيات المعروفة والتي أعدت للرحلة فهي مثيرة للدهشة، ومن بين هؤلاء: مونج وبيرتولي وجوفروا سان هيلير وعالم الآثار جومار وفيفيان دونان وكونتية المشهور بأقلام الرصاص والشاعر بارسيفال غراند ميزون وفنان تشكيلي وعازف بيانو.. هكذا لم تشمل الحملة أفضل جيوش فرنسا فحسب (35 ألف رجل) وإنما أيضاً نخبها العلمية. لكن لماذا كل هذا الحشد من الاختصاصيين؟ هل يعبر عن إرادة بإدراج الحملة ضمن التقليد العظيم للرحلات العلمية في القرن الثامن عشر؟ أم أنه ذريعة لتغطية الاحتلال؟ في كل الحالات يمكن لنا أن نتخيل حجم الكارثة لو أن نيلسون⁽¹⁴⁾ اعترض هذه الحملة في البحر.

(14) الأميرال هوراسيو نيلسون (1750 - 1805) يعتبر من أبرز البحارة المقاتلين في العالم ومن أبرز الذين وضعوا حدا لأحلام نابليون بونابرت التوسعية في أوروبا وكان كابوسا حقيقيا للفرنسيين في حين اعتبره مواطنوه سدا وطنيا في مواجهة الإمبراطور الفرنسي الفاتح. بدأ حياته العسكرية البحرية في الهند عام 1777 لكنه سرعان ما أصيب بالحمى وعاد إلى بريطانيا ولن يركب البحر مجددا إلا مع انتصار الثورة الفرنسية، وانخرط في مواجهتها كبقطان أولا ثم كأمرال وقد أصيب في كل المعارك البحرية مع الفرنسيين وقتله قنص في البحرية الفرنسية. في العام 1794 أصيب بشظايا قنبلة في عينه أثناء حصار مدينة تولون الفرنسية. في العام 1795 فقد عينه اليمين. في العام 1797 أصيب بجرح في يده اليمين تسبب بقطعها. في العام 1798 أثناء قيادته لمعركة أبو قير أصيب في عينه مجددا وفي العام 1805 اغتاله القنص البحري الفرنسي روبري غيامار. كان طيلة سنوات خدمته لا يكف عن ملاحقة الفرنسيين ومطاردهم في البحار.

أبحرت في 19 أيار - مايو 1798 مائتا سفينة جاءت من إيطاليا. كيف توصل أسطول بهذه الأهمية إلى الإفلات من رقابة الإنجليز البحرية؟ لقد أخطأه نلسون مرتين لكنه واصل تقدمه وفي طريقه استولى بونايرت على مالطا التي يمكن استخدامها محطة وفيها فقط عرف المبحرون رسمياً بهدف الحملة. وفي أول تموز - يوليو نزل الفرنسيون في الإسكندرية، فكانت مفاجأة تامة لسكانها الذين لم يكن لديهم أي دليل يسمح بتوقع مثل هذا العدوان لذا كانت مقاومتهم محدودة.

في 2 تموز - يوليو، وجه نابليون بمهارة، بلاغا للسكان أشار فيه إلى انه: (... منذ زمن طويل يشتم البكوات الذين يحكمون مصر، الأمة الفرنسية، ويحيطون تجارتها بالإهانات. ها قد حان وقت عقابهم).. لكنه لم يأت لعقاب المماليك فقط وإنما كمحرر: (... إن وجدت أراض جيدة فهي لهم. وإن وجدت جارية جميلة أو وجد حصان جميل أو بيت جميل فهو لهم. إذا كانت مصر مزرعة للمماليك فليبرزوا عقد الملكية الذي أعطاه الله لهم... لا فالله عادل ورحيم للشعب المصري)... وبما انه عادل ورحيم فقد اختار بونايرت بطل المساواة كي يأتي إلى مصر ويحرر المصريين. ولئن قيل انه كافر، فهذا غير صحيح: (... أنا احترم الله ونبيه والقران أكثر من المماليك) ويضيف في بلاغه قائلاً: (... السنا نحن الفرنسيين الذين قضوا على البابا الذي طالب بمحاربة المسلمين. الم ندمر فرسان مالطا، لأن هؤلاء التافهين كانوا يعتقدون بان الله أمرهم بمحاربة المسلمين؟ الم نكن في كل القرون أصدقاء الصدر الأعظم - حقق الله رغباته - وأعداء أعدائه. بالمقابل الم يتمرد المماليك دائماً على سلطة الصدر الأعظم وهم لا يعترفون بسلطته حتى الآن؟).

يظهر هذا البلاغ أن نابليون استعلم جيداً حول ما يدور في مصر التي كانت خاضعة بالفعل للمماليك، وسيطرقهم عليها ناتجة عن سلسلة من التطورات. فخلال الاحتلال العثماني أطلق الأتراك يد الحامية المؤلفة من الإنكشاريين الذين تولوا شؤون البلاد. وكان الإنكشاريون يجندون حينذاك من أبناء الأسر والرعايا المسيحيين، ثم يتلقون تربية إسلامية فيصبح ولاءهم حصراً للدولة. وكانوا يمنعون من الزواج ومن ممارسة نشاطات أخرى غير النشاط العسكري. واتسع التجنيد

الإجباري من بعد وصار يشمل أبناء المسلمين الذين كان يحق لهم الزواج، فأسسوا عائلات وصاروا يزاولون منها أخرى لتغطية النقص في مداخيلهم، ومن بعد اتسعت هذه الشريحة العسكرية حتى صارت تشمل العبيد الذين جاء بهم العثمانيون من القوقاز ومن بين هؤلاء انبثق الماليك.

كان الماليك يسيطرون على شعب من الحرفيين الصغار والفلاحين وأصحاب الدكاكين الذين يتحملون بفارغ الصبر عبودية باتت خارج التاريخ. لقد كان انحطاط مصر على الصعيدين الاقتصادي والسياسي أمرا لا جدال فيه في هذا الوقت من نهاية القرن الثامن عشر. لكن احتلالها لم يكن يمثل السهولة التي كانت متوقعة، حيث أعدت الحملة الفرنسية على جناح السرعة واجتاح الفرنسيون مصر في تموز - يوليو بواسطة تجهيزات لم تكن ملائمة أبدا لارتفاع الحرارة الشديد في هذا الفصل. وتؤكد ذلك شهادات الجنود الذين ضربتهم حمى الزهار وحمى أخرى متنوعة. دون أن ننسى أنهم كانوا يفتقرون إلى أي دافع لاحتلال مصر، وذلك بخلاف معارك فالمي⁽¹⁵⁾ وجيماب⁽¹⁶⁾ حيث كانوا يدافعون عن مسقط رأسهم. لهذا انتشرت بينهم شائعات نبذ صداها في رسالة بعثها فرانسوا بيرنوايه مدير ورشة الملابس التابعة للجيش، إلى زوجته ويقول فيها: (... لقد استعلمت حول ما كانت حكومتنا تنوي عمله، عبر إرسالها جيشا للتمركز في أراضي الصدر الأعظم، بدون إعلان حرب وبدون أي دافع معلن. كان يكفي لفهم ذلك التمتع بقليل من الفطنة. ذلك أن بونابرت أصبح لديه الكثير من التأثير في فرنسا بفضل عبقريته وبفضل الانتصارات التي حققها بواسطة جيش بات لا

(15) معركة فالمي (20 أيلول - سبتمبر 1792) تعتبر من أبرز معارك الدفاع عن الجمهورية الفرنسية. هاجمت النمسا وبروسيا والقوى الملكية الفرنسية قوات الجمهورية وتركزت المعارك في فالمي حيث ربح الجمهوريون الحرب بواسطة المدفعية وقد أشيع حينها أن دانتون أحد زعماء الثورة رشا قائد القوات المهاجمة الدوق شارل دو برونزويك بمجموعة من الماسات سرت من التاج الفرنسي واختفى أثرها قبل أربعة أيام من نهاية المعركة لكن أسبابا أخرى طرحت لتفسير هزيمة المهاجمين من بينها أن هؤلاء كانوا منهكين وأصيبوا بمرض حمى الزهار وعانوا من التعب الشديد. اعتبر انتصار الجمهورية في فالمي حدثا أساسيا في مصير النظام الفرنسي الجديد.

(16) جيماب (6 تشرين الثاني - نوفمبر 1792) هي المعركة الثانية في الدفاع عن الثورة الفرنسية بمواجهة أعدائها. وقعت بالقرب من بلجيكا انتصر فيها الثوريون بفضل تفوقهم العددي.

يقهر. لقد صار بونابرت مزعجا حتى لا أقول عقبة بالنسبة لأولئك الذين يقبضون على زمام السلطة في فرنسا. فأرسل إلى مصر. ولم أتمكن من كشف أشياء أخرى غير ما ذكرت).

إن جيشا يضحى به لا يمكن أن تكون معنوياته مرتفعة، وهذا ما يفسر وقوع حالات انتحار في صفوفه.

وأخيرا أعاد انتصار الأهرام في 21 تموز - يوليو، على أبواب القاهرة، بعض الأمل للجنود، وعلى أبواب القاهرة يقال أن نابليون خاطبهم بقوله: (... أيها الجنود إن تاريخ أربعين قرن ينظر إليكم). لكن يبدو أن هذه العبارة صاغها بونابرت في جزيرة القديسة هيلانة أثناء إملائه الشهيرة التي روى خلالها مذكراته.

هذا الحماس لن يدوم طويلا، ففي أول آب - أغسطس، فاجأ نيلسون الأسطول الفرنسي في ميناء أبو قير، فتحطم كله تقريبا، وعليه صار نابليون المنتصر أسير انتصاره، ولاحق هذه المرة الكارثة بعينها. لذا بدأ تاليران في باريس يتعد عن الحملة ويلقي بمسؤوليتها على دولاكروا سلفه في وزارة العلاقات الخارجية. لكن بونابرت ليس من النوع الذي يستسلم بسهولة. فابتداء من هذه اللحظة، قرر أن يطور مصر ومن هذه اللحظة ستبدأ المرحلة الأكثر روعة في الحملة.

في 22 تموز - يوليو ومن خلال بلاغ وجهه لأبناء القاهرة نجد عناصر خطة التطوير المذكورة: (... يا شعب القاهرة أنا راض عن سلوككم. لقد أحسنتم صنعا بعدم مناهضتي. لقد جئت إلى مصر بهدف القضاء على عرق المماليك، وحماية تجارتها ومصادرها الطبيعية. إذن فليطمئن أولئك الذين يشعرون بالخوف، وليرجع إلى منازلهم أولئك الذين هربوا خوفا. ولتتم الصلاة اليوم كالعادة وأريد أن تتواصل دائما. لا تخافوا على عائلاتكم ومنازلكم وممتلكاتكم، ولا تخافوا بصورة خاصة على الدين وعلى النبي الذي أحبه. وبما أنه من الملح ألا يضطرب الهدوء، فسيقوم لهذه الغاية ديوان (حكومة) من 7 أشخاص يجتمعون في مسجد الأزهر. وسيكون اثنان مع قائد المدينة وسيهت 4 بحفظ الهدوء العام والإشراف على الشرطة).

قام فرانسوا شارل بعمل جردة حساب لما فعله الجنرال في الأرض المحتلة، في كتابه (بونابرت في مصر) ويتبين منها انه غداة معركة الأهرام، جرى تركيز 4 مستشفيات عسكرية في الجيزة وبولاق والقاهرة والقاهرة القديمة. ويرى الكاتب أن: (الطب دخل إلى هذا البلد الذي يقال انه كان مهده الأول، وذلك على يد دو جينيت الطبيب المسؤول عن الحملة، ولاري رئيس جراحي الجيش، وسائر أطباء الجهاز الصحي). وألقت أطروحة جامعية راهنة أعدها سيرج جاغايو الضوء على الطب والصحة في مصر في القرن التاسع عشر، وحول التأثير الذي خلفته المستشفيات العسكرية الفرنسية، في نهضة الطب في هذا البلد.

والنتائج الإدارية للحملة مهمة أيضاً. ففي المجال المالي نظمت الضرائب وأصبحت موحدة ووزعت بعدالة وتبعا لنوعية الأراضي وأحصي السكان. وحصرت علاقات التجار والحرفيين بالمحاكم العسكرية وذلك لحمايتهم من ابتزاز المماليك.

وحتى يواصل تغطية مصاريف جيشه لم يتردد بونابرت بالاستيلاء على أملاك المماليك. ووطد الجمارك في القاهرة وانشأ فيها دارا للعملة، تولى مسؤوليته بيرتولسيه وكوستاز ومونج. هكذا بذل نابليون ما بوسعه لكسب عطف المصريين، وفي طليعة مساعيه احترام المعتقدات وضرب إقطاعية المماليك. وباشر سياسة تنفيذ أشغال كبيرة من ضمنها مبادرة المهندس لوثير بتحضير مشروع لوصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط عبر برزخ السويس. وأصلحت قنوات الري القديمة من أجل إحياء الزراعة.

وعلى الصعيد الثقافي انشأ بونابرت الذي كان يوقع بلاغاته بوصفه عضوا في الجمع الفرنسي، مجمعاً مصرياً على النمط الفرنسي نفسه. ونشر صحفاً من بينها بحريد مصر والعقد المصري. غير أن الاهتمام الأكبر تركز حول ماضي مصر. وكان ملفتا أن يثير هذا الماضي اهتمام الجنود العاديين مثل ديجوين (...). وهذا ما كشف عنه بوضوح كتاب فيفيان دونان الشهير (وصف مصر).

لقد تمكن الفرنسيون من القيام بكل هذه الأعمال وبامكانات ضئيلة ووسط اضطراب امني كان يتصاعد مع توسع الاحتلال. ففي محافظة المنوفية اغتيل جوليان مساعد بونايرت أثناء قيامه بنقل رسالة من قائده إلى الجنرال كليبير فتمت تصفيته مع مرافقيه. وهوجمت الحامية الفرنسية في المنصورة وأبيدت تماماً. وكاد مصير الفرنسيين في دمياط أن يكون مشابهاً. وأودت انتفاضة القاهرة في 21 تشرين الأول - أكتوبر، بحياة الجنرال دوبوي ومساعد بونايرت المفضل سيلكويسكي.

كان التأثير الإنجليزي أو المملوكي في تظاهرات العداء للفرنسيين، محدوداً للغاية بالقياس إلى التأثير الديني، فالخوف على الدين ظل قويا على الرغم من مظاهر التسامح التي عبر عنها بونايرت تجاه الإسلام. ودور الدين في تظاهرات العداء أكد عليه فولني الذي زار مصر قبل الحملة وتنبأ في العام 1788 إن (...) السيطرة على مصر تستدعي القيام بحروب ثلاثة: الأولى هي ضد الانجليز والثانية ضد الباب العالي والثالثة وهي الأصعب ضد المسلمين الذين يتألف منهم شعب هذا البلد) غير أن العداء للفرنسيين لم يكن شاملاً. فبعض الأشراف اهتم بالمساعي الفرنسية لابقاظ بلد كان مخدراً في ظل السيطرة المملوكية، ومن بين هؤلاء عبد الرحمن الجبرتي الذي نحتفظ بيومياته. فهذا البرجوازي القاهري المتعلم، هرب من القاهرة اثر وصول الفرنسيين إليها. وعاد بعد التطمينات التي أذاعها بونايرت. لا بل رضي أن يكون عضواً في الديوان الثالث الذي شكلته السلطات الفرنسية والتي كانت تسعى لإشراك الأشراف في الإدارة المحلية.

لم يرفض الجبرتي هذا التعاون على الرغم من التحفظ الذي يظهر في يومياته. فلماذا تعاون مع الفرنسيين؟ هل تعاون بدافع انتهازي أم بسبب الخوف أم لقناعته بأن المحتل الفرنسي يمكنه تحديث البلد؟ ونلاحظ في يومياته انه ذكر بطريقة ايجابية، إعدام اللصوص الفرنسيين ورأى في ذلك دليلاً على أن بونايرت يريد فرض احترام الممتلكات.

ولكن الأوضاع تفاقمت فيما بعد بسبب الحصار الإنجليزي وصعوبة المواصلات وافتقار السلع وغلاء أسعارها. لقد ارتفعت أسعار كل السلع المستوردة

عبر المتوسط، واضطر عدد من الحرفيين إلى تغيير مهنتهم بسبب الكساد ونقص الزبائن وكانت المهن الجديدة أقل مرتبة من الأصلية ولعب هؤلاء دوراً مهماً في مناهضة الاحتلال وتأجيج الغضب الكامن.

ونعود إلى فولني الذي تحدث، إضافة إلى ردود فعل الأهالي المصريين المتميزة بكره الأجانب، عن خطر التدخل التركي، وتأكد هذا الخطر في أيلول - سبتمبر عام 1798. ففي ذلك الحين وصلت إلى القاهرة شائعات عن احتشاد قوات تركية كبيرة في سوريا.. ولكي يستبق الهجوم التركي، قرر بونايرت مواجهة الخصم في مكان احتشاده، وبالتالي اغتنام المناسبة والاتجاه نحو القسطنطينية لإيجاد أسطول يسمح له بالعودة إلى فرنسا.

سيطر نابليون بداية على غزة وحيفا واخترق الجيش التركي بالقرب من الناصرة في 16 - 4 - 1799

وهو كان في الأصل يستهدف عكا ذات التحصينات القوية، والتي كان يدافع عنها من الداخل فيليبو احد أنصار النظام الملكي الفرنسي. وكانت الإمدادات تصل إلى عكا عن طريق البحر وبواسطة الأسطول الانجليزي الذي يقوده سيدني سميث، في حين كان احمد باشا الجزار والي عكا وطرابلس ودمشق، يمثل روح المقاومة التركية في المدينة.

تمكن الفرنسيون من اختراق خط الدفاع الأول عن عكا، لكن العدو بنى خطاً دفاعياً ثانياً محوره قصر الجزار نفسه، وصمد هذا الخط بسبب النقص في المدفعية الذي كان يزعج بونايرت بصورة أساسية. وبعد حصار دام شهرين، اضطر للتخلي عن عكا، خصوصاً بعد تضافر المؤشرات حول احتمال إنزال بحري تركي على شواطئ مصر.

وتجمع الشهادات المتوفرة على هبوط معنويات الجيش المنسحب من عكا، وكانت صفوفه مدججة بالجرحي والمرضى والمصابين بوباء الطاعون. وهذا الوباء لم يكتف نابليون أمره، في تقريره الذي أرسله إلى (الإدارة) في 28 حزيران - يونيو 1799 حيث يقول: (...ظهر الطاعون في الإسكندرية منذ 6 اشهر، وكان ظهوره خطيراً، لكنه لم يكن خطيراً في دمياط، وفي غزة ويافا تفاقم كثيراً، لكنه لم ينتشر

في القاهرة والسويس وأعلى مصر. وخسائرننا منذ وصول الجيش الفرنسي إلى مصر وحتى 28 حزيران - يونيو 1799م هي 5344 رجلاً. وحملتنا على سوريا حققت إنجازاً كبيراً. فقد أصبحنا أسياد الصحراء كلها وأجهضنا مشاريع أعدائنا لهذه السنة، لكن فقدنا أيضاً رجالاً ممتازين. فتوفي الجنرال بون متأثراً بجراحه ومات كافاريللي ومساعد دي كروازيه وجرح كثيرون.

كان بونابرت يستهدف من هذه الرسالة طلب تعزيزات فرنسية، ما يثبت أنه لم يكن يائساً بعد وأنه كان إلى حد ما متفائلاً بدليل أنه عرض في رسالته، للصلات التي حاول إقامتها بين كل من فرنسا ومكة والهند غير أنه لم يكن مقتنعاً بأن (الإدارة) سترسل له تعزيزات في وقت كان خطر الحرب ماثلاً على فرنسا. حتى أنه لم يكن واثقاً من وصول رسالته إلى باريس.

لكن النقص في الإمكانيات العسكرية لم يؤثر على معركة أبو قير الثانية. فقد تمكن بونابرت من تدمير الإنزال البحري التركي في ميناء أبو قير بوسائله الخاصة. فحل هذا الانتصار محل هزيمة أبو قير الأولى ضد الإنجليز، لكنه لم يغير شيئاً في مصير الحملة، فمستقبل نابليون في الشرق ظل مسدوداً بالكامل بسبب النقص في القوات. ويروي ميو، إن بونابرت استدعى ميرا عشية معركة أبو قير الثانية وقال له: (.. هذه المعركة ستقرر مصير العالم) لم يفهم ميرا في حينه معنى هذه العبارة الذي سيتضح في التطورات اللاحقة.

في 17 آب - أغسطس 1799، علم بونابرت أن السفن الحربية لم تعد تتحول في عرض الإسكندرية وأبو قير فاغتنم الفرصة وأصدر في 22 آب - أغسطس بلاغاً إلى جيشه جاء فيه (.. في ضوء الأنباء الواردة من أوروبا، قررت العودة إلى فرنسا، وعهدت بقيادة الجيش إلى الجنرال كليبر وستصل إليكم أخباري قريباً، ولا أستطيع أن أفصح أكثر من ذلك. يؤلمني أن أترك جنودي الذين أتعلم بهم أكثر من أي شيء آخر. لكن غيابي سيكون مؤقتاً والجنرال الذي سيقودهم يتمتع بثقتي وثقة فرنسا).

هل عاد بونابرت إلى فرنسا بمبادرة شخصية أم تلبية لتعليمات وصلته من حكم (الإدارة)؟ ما يمكن تأكيده، هو أنه تلقى أوامر بالعودة وأخرى بالبقاء، في ظل ظروف مشوبة بالغموض الشديد فقرر العودة واستباق الأمور.

غيرت حملة مصر مسار التاريخ حتى قبل معركتي أوسترليتز⁽¹⁷⁾ وينا⁽¹⁸⁾ وجلبت لبونايرت مجدا هائلا. فالانتصارات التي تحققت في ظلال الأهرام وبالقرب من الأماكن المقدسة كانت تحتاح الخيال الشعبي وقد انتشرت في وسائل التعبير المختلفة التي كانت تعكس انتصار الجنود الفرنسيين في بدلائهم العسكرية العظيمة على شخصيات غريبة معمرة، وفي وسط هذه الانتصارات جنرال واثق من نفسه يعطي أوامره وكله ثقة بالنصر. هكذا وجدت فرنسا الزعيم الذي كانت تبحث عنه ليضع حدا لحالة الفوضى التي أشاعتها الثورة.

كانت الدعاية حول انتصارات بونايرت عفوية غالبا، ولكنها دبرت أحيانا بمهارة. فمن جهة كان هو نفسه قد استخدم وسائل دعائية خلال انتصاراته في إيطاليا، وذهب إلى حد إنشاء صحف تتحدث عن مجده الشخصي. لكن في مصر كان بونايرت مقطوع الصلة بفرنسا، وبالتالي من الصعب أن يملئ الموضوعات التي تتناول حملته. غير أن أخويه جوزف وخاصة لوسيان، كانا يعرفان كيفية تضخيم انتصاراته وبثها في الخيال الشعبي. وسيفاجأ نابليون نفسه بتأثير حملته. فقد شعر بجملة الاستقبال الشعبي له، منذ نزوله إلى شاطئ فريجييس وحتى وصوله إلى باريس حيث كانت

(17) معركة أوسترليتز (2 ديسمبر - كانون الأول 1805) سميت بمعركة الأباطرة الثلاثة الذين كانوا يحكمون فرنسا وروسيا والنمسا. وقعت بعد عام واحد من تتويج بونايرت إمبراطورا. اتخذ بونايرت قرار الحرب في هذه المعركة عندما أيقن أنه لا يستطيع ضرب بريطانيا بحرا فقرر التخلص من حلفائها برا. أفصح نابليون عن براعة مشهودة في هذه المعركة التي هزم فيها مئة ألف جندي واسر عشرين جنرا لا و30 ألف جندي خلال أربع ساعات وغنم 120 مدفعا صهرها وصنع منها مسلة فاندوم التي ما زالت قائمة في باريس حتى اليوم. أدت المعركة إلى اعتراف أوروبا بسيطرة فرنسا على إيطاليا. في ختامها خاطب الإمبراطور جنوده بالقول: لا أعداء تخشونهم في أوروبا بعد اليوم.

(18) معركة فينا (14 تشرين الأول - أكتوبر عام 1806) مكملت لأوسترليتز. وقعت بتحريض من فريدريك غيوم إمبراطور النمسا الذي أقام تحالفا رباعيا مع السويد والساكس وإنجلترا. بعث بإندار لبونايرت بسحب قواته من الضفة اليمنى للراين خلال أربعة أيام. هزم التحالف ودخل نابليون إلى برلين في 27 أكتوبر بعد تحطيم الجيش الروسي وخسارة بروسيا لنصف أراضيها واضطرارها لدفع تعويضات حرب بلغت 120 مليون فرنكا. يروى أن الفيلسوف الألماني هيجل كان أستاذا في فينا ويعكف على إنهاء كتابه: "ظاهرة العقل" وقد شهد المعركة واستنتج على أثرها بـ "نهاية التاريخ". بمعنى أن المجتمعات الإنسانية بعدها ستتحوّل نحو الديمقراطية الليبرالية.

تظاهرات الترحيب الضخمة تستقبله على امتداد الطرقات التي سلكها. مثال ذلك في مدينة افينيون إذ يروي الجنرال بولار في مذكراته العسكرية أن جمهوراً ضخماً تجمع لاستقباله، وعندما اطل الرجل العظيم بلغ الحماس ذروته وعلا التصفيق والصراخ (يعيش بونابرت) وقد رافقته هذه الأجواء إلى المنزل الذي أقام فيه حيث كان المشهد كهربائياً. ومنذ ذلك الحين صار بنظر الفرنسيين الشخص المؤهل لإنقاذ فرنسا التي كانت حالتها مثيرة للشفقة بسبب هزائم جيوشنا وسياسة حكومة (الإدارة).

كانت حملة مصر غريبة الأطوار بكل تأكيد. فلم تجن فرنسا فوائد مباشرة منها. أما تطورات الحملة اللاحقة فتمثلت باغتيال كليبير في حزيران - يونيو عام 1800م فحل محله الجنرال مينو في قيادة الجيش. وعلى الرغم من اعتناقه الإسلام، لم يتمكن من الحفاظ على الاحتلال. ذلك أن الأهالي كانوا يعتبرون الفرنسيين جسماً أجنبياً يجب طرده من مصر. وقد استندوا إلى الانجليز في مقاومتهم للجيش الفرنسي دون أن يفضلوا الانجليز على الفرنسيين. وأدى ذلك إلى استسلام مينو بشروط مشرفة لم تشفع له لدى المؤرخين طيلة الفترة الماضية، غير أنه بدأ يستفيد تدريجياً من محاولات معينة لإعادة الاعتبار إليه. لكن مصر ضاعت واحتضر حلم تاليران بإنشاء مستعمرة فيها. على الرغم من ذلك فقد أدت هذه الحملة الأولى إلى شق قناة السويس وتنظيم النيل وإلى تحقيق نهضة اقتصادية وسياسية واكتشاف مصر لماضيها. هذا الدرس هو الذي استخلصه يوسف شاهين في فيلم سينمائي يحققه بالتعاون مع فرنسا عن بونابرت في مصر⁽¹⁹⁾.

جان تولار

باريس 1983

(19) اخراج السينمائي المصري يوسف شاهين بمناسبة مئويتها الثانية فيلماً عن حملة مصر بعنوان: "وداعاً بونابرت" أكد من خلاله المعاني التي يشير إليها جان تولار. سوى أن الفيلم لم يحظ بنجاح في فرنسا ومصر على السواء جراء إصرار المخرج على التأكيد المعاند للوقائع أن المصريين لم يعبأوا بالممالك وكانوا متسامحين مع الغازي الفرنسي.

الباب الثاني

حريق القاهرة

أين ومن وكيف ولماذا؟

فيصل جلول

في 26 كانون الثاني - يناير عام 1952 اندلع في القاهرة حريق هائل استمر من الثانية عشرة ظهرا حتى الحادية عشرة ليلا. وقع الحريق في وسط المدينة وطال بحسب الدكتور عصام الطاهر وهو شاهد عيان⁽¹⁾ مواقع ومبان يشغلها الأوروبيون أو يترددون عليها وقدر عددها بـ 700 مبنى موزعة على الشكل التالي: 300 محل تجاري. 117 مكتب أعمال. 13 فندقا. 30 مكتبا لإدارة شركات. 40 دار سينما. 8 محلات ومعارض كبيرة للسيارات. 10 متاجر لبيع السلاح. 73 مطعما ومقهى وصالة. 92 حانة للخمر. 16 ناديا ومصرفا واحد هو الإنجليزي باركليز بنك. وتؤكد الدكتورة جليلة القاضي⁽²⁾ أن العدد الصحيح هو 711 مبنى تقع كلها في وسط العاصمة وتحديدا في الأزبكية وعدلي وشوارع عماد الدين وفؤاد وإبراهيم وسليمان باشا وعبد الخالق ثروت وامتد الحريق إلى الظاهر والفجالة وشبرا وشارع الهرم.

تفصح هوية المباني المستهدفة عن أن الحي الأوروبي أو ما كان يسميه الخديوي إسماعيل (في بلادي قطعة من أوروبا) أتت عليه نيران المتظاهرين (المجموعة المناضلة أو الجناحة أو السرية من بينهم) مما أدى بحسب الدكتورة القاضي إلى تغيير عمراني حاسم إذ انتقل وسط القاهرة بعد الحريق من الأزبكية إلى ميدان التحرير.

والحق إن ما حصل يومذاك هو مجموعة من الحرائق وليس حريقا واحدا يصنفها المتهم الوحيد في العملية أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة ومن ثم حزب مصر الاشتراكي يصنف الحرائق في مجموعات ثلاثة: المجموعة الأولى اندلعت صباحا مع إحراق كازينو بديعة (لبنانية من عائلة مصابني) والمجموعة الثانية امتدت من الواحدة إلى الثالثة بعد الظهر وطالت دور اللهو وصالات السينما ذات الصفة البريطانية والمرحلة الثالثة التي استمرت حتى الحادية عشرة ليلا وطالت أماكن

(1) جريدة الشعب المصرية 24 - 1 - 2002.

(2) جريدة المصري الصادرة في كندا 29 - 1 - 2003.

متنوعة. ويرى حسين أن الذين قاموا بها هم "مجموعة من اللصوص والمتآمرين" ودائماً بحسب جريدة الشعب المشار إليها أعلاه.

وتتعدد الروايات حول الوسائل المستخدمة في الحريق بتعدد شهود العيان، فالدكتور الطاهر يؤكد أنه رأى بأمر العين صبية وشبان يشعلون حريقاً بقطع مبللة بالكاز وأعواد الثقاب في حين يرى آخرون أن المواد المستخدمة هي عبارة عن مسحوق على شكل "بودرة" شديدة الاشتعال وهي لم تكن متوفرة إلا في الثكنات البريطانية، في حين يجزم جورج مينان الذي نقدم شهادته مترجمة أن الحرائق كان يشعلها كوماندوس بواسطة صفائح البنزين وأن حرائق أخرى أشعلت بواسطة مشعل أو أكسيدريكي.

على الرغم من مضي أكثر من خمسين عاماً على الحريق مازال فاعله مجهولاً. فالقضاء المصري فشل في العهد الملكي في إثبات التهمة على المناضل الراديكالي أحمد حسين. ولم يحدد العهد الجمهوري الوليد بعد شهور من الحريق هوية الفاعلين ولم تبادر جهات مستقلة - على ما اعلم - إلى إجراء تحقيق تتضح من خلاله المسؤوليات وبالتالي القول أن الأيدي التي أحرقت القاهرة الخديوي إسماعيل الأوروبية فعلت ذلك من أجل أغراض محددة.

في غياب تحقيق جدي حول الحريق جرى تداول عدد من الفرضيات انطلاقاً من سؤال عن المستفيد أو المستفيدين من الحادث وهو يطرح عادة في علم الجريمة لتحديد هوية المتهم فيها ونختصر الفرضيات التي ما برحت متداولة في الخطوط التالية:

أولاً: فرضية أحمد حسين المناضل الشعبي والمتهم الوحيد في العملية. قيل أنه يمثل التيار الراديكالي الثوري المناهض للبريطانيين وللقصر الملكي والرافض لحكومة الوفد والذي يحتفظ بنفوذ في الأحياء الشعبية التي خرجت برمتها إلى الشوارع يومذاك وبالتالي لديه مصلحة حقيقية في توسيع الصراع بين الوطنيين والقصر والمحتل البريطاني. سوى أن البكباشي جلال ندا يقول أن حسين كان مريضاً يوم الحريق وأنه قدم له العلاج بنفسه⁽³⁾. ولو كان حسين مسؤولاً فعلاً عن الحريق لأعلن تبنيه لاحقاً إذا أقرضنا إنه كان خائفاً من العقاب في العهد الملكي. فالحريق

ساعد في انبثاق ثورة يوليو - تموز 1952 التي لا تكن احتراماً للأوروبيين والحادث مر عليه الزمن وبالتالي من السهل تبنيّه دون تحمّل تبعات هذا التبني. ناهيك عن أن محاكمة الرجل لم تتمتع بابطس شروط العدالة واتسمت بفضائح بالجملة من بينها أن البوليس السري اخترع شهوداً مزورين فشل أحدهم في التعرف على المتهم في حين أكد علي ماهر رئيس الحكومة المعين بعد الحريق أنه اتصل بأحمد حسين في منزله في ذلك اليوم وبالتالي من الصعب أن يحرق القاهرة وهو في بيته.

ثانياً: فرضية الضباط الأحرار. وهي تستند إلى التطورات اللاحقة إذ هيا الحريق مناخاً أفضل للقيام بالثورة بعد أن تبين أن القوى السياسية المعارضة والمالية والقصر الملكي كلها عاجزة عن السيطرة على البلد وتلبية مطالب القسم الأكبر من المصريين برحيل بريطانيا، وتغيير الأوضاع الاقتصادية والاستجابة لتحدي الصراع مع إسرائيل. غير أن أحداً من الضباط المصريين أو المنفصلين عنهم لم يثبت التهمة على عبد الناصر وأصدقائه. ولو كان هؤلاء مسؤولين عن الحريق لما ترددوا في تبنيه في ذروة صراعهم مع القوى الاستعمارية بعد غزو السويس كعمل يدعو إلى الافتخار.

ثالثاً: فرضية القصر الملكي وهي ترتكز إلى حقيقة أن الحريق أطاح بحكومة الوفد التي كانت تحكم بإرادتها وليس بإرادة الملك وإن هذا الأخير كان يعمل على رجليها بفارغ الصبر. وقد رحلت بالفعل بعد حريق القاهرة ما يوحي بأن القصر الملكي ربما يقف وراء ما حصل. هنا أيضاً لاشيء مؤكداً خصوصاً أن ثوريي يوليو استولوا على الأرشيف الملكي بعد الإطاحة بالملك وكان بوسعهم إثبات التهمة على العرش من خلال وثائقه أو من خلال رجاله لو كانوا فعلاً متأكدين من تورطه في الحريق⁽⁴⁾.

(4) أكد لي سامي شرف في ربيع العام 2005 في الجزائر خلال عشاء على هامش "المؤتمر القومي العربي" أن اللواء في المخابرات محمد امام قائد البوليس السياسي اعترف بعد الثورة ان القصر الملكي كان متورطاً في حريق القاهرة" لقد استدعيته إلى مكنتي لسؤاله عن بعض الامور ومن ضمنها حريق القاهرة فأكد لي أن الملك هو الذي حرقها وستجد تفاصيل الحوار معه في كتابي الذي سيصدر قريباً" والكلام دائماً لسامي شرف. وفي السياق نفسه أكد لي الدكتور كمال عبد اللطيف الطويل أن تنظيم "أخوان الحرية" المشبوه الذي كانت ترعاه المخابرات البريطانية اتهم أيضاً باشغال الحرائق في القاهرة وأن عدم ذكره في الوثائق البريطانية المنشورة لا ينفي مشاركته في الحريق.

رابعاً: فرضية بريطانيا. يرى البعض أن لبريطانيا مصلحة حقيقية في ما حصل بدليل أن الحريق أطيح بالحكومة الوفدية التي كانت تصر على الجلاء الأمر الذي جعل القوات البريطانية ضامنا وحيدا من انزلاق مصر في الفوضى وعودة الملك للالتصاق بالمختلين، بعدما أخذ بالابتعاد قليلا عنهم لمسيرة الشارع المصري ناهيك عن الحديث عن المواد الحارقة التي استخدمت والتي لا تتوفر إلا في الثكنات البريطانية. لو صحت هذه الفرضية لكان من الصعب أخفاء تورط البريطانيين طيلة أكثر من نصف قرن خصوصاً أن الأرشيف البريطاني كشف النقاب عن أحداث تورطت فيها حكومة صاحبة الجلالة وكانت اخطر بكثير من حريق القاهرة.

خامساً: فرضية المؤامرة الصهيونية. وهي تستند إلى القول أن إسرائيل دبرت العملية لحمل اليهود والرساميل اليهودية على مغادرة مصر والهجرة إلى إسرائيل وإلحاق الأذى بمسار التحديث والتطور المصري بعد 4 سنوات على نشوء دولة إسرائيل. وإذا كان صحيحا كل ما ينسب للصهيونية فلماذا لم تتوفر إثباتات دامغة حتى الآن حول الحريق ولماذا لا يكشف النقاب عن عملاء إسرائيل الذي احرقوا القاهرة الأوروبية ثم هل يعقل أن تحمل إسرائيل مئات الآلاف من المصريين إلى الشوارع في ذلك اليوم احتجاجا على مجزرة الإسماعيلية التي تمت في اليوم السابق وهل يمكن لها أن تكون مستفيدة من قتل الجنود المصريين في مبنى المحافظة وأن تتركب انتفاضة مصرية للاحتجاج على مقتلهم وأن تدبر حريق القاهرة خلال الانتفاضة؟

سادساً: فرضية الأطراف المتعددة. ربما تكون هذه الفرضية الأقرب إلى الواقع وذلك لأسباب عديدة من بينها أن الحريق لم يكن ناتجا عن مخطط معد سلفا بل ارتسم تدريجيا في مخيلة المحتجين على مجزرة الإسماعيلية. وللتذكير نشير إلى أن الوزارة الوفدية أمرت جنودا متمركزين في مبنى المحافظة وثكنتها بالمقاومة حتى الموت في مواجهة القوات البريطانية التي كانت تحاصرهم وقد سقط في الجاهمة حوالي 150 مصريا بين قتيل وجريح. توج الحادث - بحسب تلخيص عصام الطاهر الهام لوقائع تلك الفترة - شهورا طويلة من الصراع بين الوفد واليسار الراديكالي من جهة وبين الملك وأحزاب الاحتلال والبريطانيين من جهة أخرى.

فقد فاز الوفد بانتخابات عام 1950 وشكّل حكومة خرجت تدريجياً عن سيطرة الملك واتخذت قرارات مناهضة للاحتلال، من بينها إلغاء معاهدة العام 1936 والطلب من البريطانيين البقاء في منطقة القناة وعدم الخروج منها والتغاضي عن حرب العصابات التي كان يشنها الوطنيون ضد القوات المحتلة أو دعم المشاركين فيها. وقد ازدادت هذه العمليات بعد تظاهرة المليون شخص التي نظمت في 14 - 11 1951 لدعم قرار إلغاء المعاهدة. في هذه الأجواء المحمومة وقعت مجزرة الإسماعيلية والرد الانتقامي عليها من خلال حرق كل ما يرمز إلى الوجود البريطاني والأوروبي في مصر.

في ضوء ذلك يبدو من غير المستبعد أن يكون الحريق قد بدأ بطريقة عفوية في كازينو بديعة وأن تكون أطراف عديدة استغلته فأشعلت حرائق في أماكن أخرى. وفي هذا السياق من المحتمل أن يكون أنصار أحمد حسين قد شاركوا في الحريق ومجموعات مرتبطة بالضباط الأحرار، خصوصاً أن شهادات عديدة تؤكد مشاركة عسكريين نظاميين في إشعال الحرائق، وكذا الأمر بالنسبة لأنصار الوفد وربما عملاء استخبارات أجنبية فضلاً عن اللصوص والجانحين والفقراء الذين كانوا يعيشون في أحياء فقيرة معدمة فيما القاهرة الأوروبية تتجمع فيها كل مظاهر الثراء والثروة والصفوة المصرية المؤيدة للقصر والاحتلال الأجنبي. ويبدو لي منطقياً أن يبادر الفقراء المعدمين إلى الانتقام من أحياء الغنى الفاحش في لحظة انتفاضة كذلك التي شهدتها القاهرة يوم ذاك.

أما الامتناع عن كشف النقاب عن تفاصيل الحريق الدقيقة وتحديد هوية الفاعلين فقد يكون ناتجاً عن تعدد الأطراف وتعذر حصر التهمة في طرف وعن الخوف من العواقب المالية التي يمكن أن تترتب على حرق ثروة أوروبية - مصرية هائلة، ولربما أيضاً لوجود مستفيدين كثر من الحدث في السلطة والمعارضة والجيش ما أدى إلى اعتقال أحمد حسين بوصفه كبش محرقة نموذجي في ظرف من هذا النوع.

ولعل من بين غرائب هذا الحدث الكثيرة أن البريطانيين والغربيين عموماً لم يجروا بشأنه تحقيقاً جديراً بالاحترام؟

إذا ما تجاوزنا هوية المسؤول أو المسؤولين عن حريق القاهرة يمكن القول أنه كان مقدمة حاسمة للثورة المصرية في 23 تموز - يوليو. فقد لحقت هزيمة كبيرة بالغرب في عاصمة المعز في ذلك اليوم على ما يؤكد شاهدنا الفرنسي جورج مينان وكان الضباط الأحرار يستعدون خلال الشهور التالية لإشعال حرائق أخرى في مصر والعالم العربي والعالم الثالث ستؤدي إلى انهيار النظام العالمي الكولونيالي مرة واحدة وإلى الأبد.

الشاهد الفرنسي

النص الذي تقدمه مترجما في هذا الكتاب حول حريق القاهرة عدا عن كونه شهادة مباشرة وفريدة من نوعها من موقع الحريق فانه ينطوي على إضافة أساسية تكمن في انه يعبر عن وجهة نظر غير محايدة ولربما حاقدة طرحها المؤلف الصحافي جورج مينان بوضوح من خلال أوصاف ونعوت وأحيانا شتائم قبيحة تعكس إحساسا لا يخطيء بالهيار موقع نفوذ غربي من الدرجة الأولى في العالم العربي.

عندما نشر النص بالفرنسية في صحيفة "لو دوفينييه ليبيرييه" في شباط - فبراير عام 1952 لاقى إقبالا كبيرا وعندما أعيد نشره في العام 1986 في كتاب مستقل مع أربعين نصا آخر حول أبرز أحداث القرن العشرين، اعتبر أيضاً الأهم بين النصوص المنشورة ليس فقط بسبب بنائه المحكم ودقة ملاحظاته وإنما أيضاً بسبب لغته التي تمتاز فيها المشاعر الخاصة والانتماء القوي والخيال الخصب.

ولا بد من لفت نظر القارئ إلى أننا اعتمدنا ترجمة حرفية للنص مع بعض التدخل الذي حصرناه دائماً في هلالين وذلك في كل مرة وجدنا ضرورة من أجل المزيد من الإيضاح أو التأكيد أو ما شابه ذلك.

في تقديمه لهذا النص ولنصوص أخرى وقّعها أبرز نجوم الصحافة في فرنسا يستعيد هنري لاموريه قول ألبير كامو الشهير عن العمل الصحافي "انه تأريخ اللحظة" ولان النص هو بالفعل تأريخ لتلك "اللحظة العربية" الحاسمة في حياة مصر بعين غربية فإنه جدير بالوصول إلى من يرغب في الوقوف على المزيد من تفاصيل حدث أساسي في تاريخنا الحديث والمعاصر.

حريق القاهرة

بقلم: جورج مينان

لقد عشت ساعة بساعة تراجيديا سبت القاهرة.
القاهرة... "كل شيء على مايرام يا سيدتي المركيزة"⁽¹⁾.. هكذا يمكن تسمية الحوار القصير الذي دار قرابة الساعة الرابعة بعد الظهر، على خط الهاتف بين الإسكندرية والقاهرة.

- الو! شيردز أوتيل؟ هنا السيدة بـ من بـ وشركائه في الاسكندرية.
... احمد حضر لي غرفتي. ساصل في الليل عبر الطريق الصحراوي. لاتنس يا احمد ان تحضر الشاي الخاص بي!

- هناك أمر ما يا سيدتي... أخشى كثيراً ألا تكون غرفة سيدتي جاهزة.

- غير جاهزة يا احمد؟! ستكون حتما المرة الأولى.

- نعم يا سيدتي. وللمرة الأولى لا يوجد شاي في شيردز ايضا.

- لا شاي في شيردز؟! لكن يا احمد انها الثورة!

- بالفعل يا سيدتي. انها الثورة.. منذ ساعتين شيردز اوتيل يشتعل.

ومع ذلك بدأ النهار بداية حسنة. كان شبيها بصباحيات الشتاء الافريقي، حيث لطافة الطقس تذكر بصباحاتنا الربيعية. مع فارق ان العطر المنعش الذي ينبعث من النسغ النامي عندنا، حلت محله هنا رائحة القذارة الابدية الممزوجة بالتوابل والتي تثيرها الشمس. إنها رائحة الشرق. لتلطيف هذا الانتقال (من جو إلى جو) كان ما زال في اقصى حلقي اثر طعم منعش لآخر كأس "هايدسيك"⁽²⁾ تناولته في بار "شركة الطيران الفرنسية" التي اقلتني قبل ساعتين إلى مطار القاهرة. وكان في جيبي أيضاً بعض الاحتياطي من علب سجائر "الغولواز"⁽³⁾.

(1) تطلق هذه العبارة في فرنسا للإشارة إلى حالة اللامبالاة في ظروف بالغة الصعوبة أو الخطورة.

(2) نوع من الشمبانيا ما زال متداولاً حتى اليوم في فرنسا.

(3) نوع من السجائر الفرنسية التي كانت مشهورة عالمياً وربما ما زالت في الدول الناطقة بالفرنسية.

شباط/فبراير 1952.

بائعو راحة الحلقوم، جاذبة الذباب، وماسحو الاحذية بواسطة البصاق، ومقعدون مقطوعة اقدمهم يرتدون خرقا من القماش البالي، كل هؤلاء كانوا يحتلون زوايا الشوارع، بينما الملصق الاعلاني للقاهرة المتعدد الالوان يوحى بشرقية جديدة. شعرت وأنا استهلك خلسة كيسى الأول من الفستق المحمص، انه من الصعوبة بمكان ان يتقمص المرء، في مثل ذلك الصباح، نفسا أخرى غير تلك التي تميز سائحا أوروبيا كاريكاتوريا.

الكوماندوس يضرب في الساعة 11 صباحا

بدأت القضية بغربة شديدة. فجأة شيء ما بدا وكأنه لا يتطابق مع هذه البانوراما. شيء ما لا يمكن ادراكه. شيء غريزي لكنه في الوقت نفسه مؤكد تماما. اولا لجهة التفاصيل: كان بائع الفول، الساكن فوق فطائره، يضرب بضاعته بهدوء. والكهل الذي كان يمر عنزته (الشاة) بين السيارات، بدأت عنزته تجره، والنسوة السود السمينات، واطفالهن كالصرر على اذرعهن، يهرولن على طول الرصيف بحركات مروحية ثم اخذت صفائح النوافذ تترقع في الجو.

ادركت خلال ذلك ان الجميع يسير في نفس الاتجاه. حاولت السيارات شبه المستوقفة، وسط هذه الجمهرة المتضخمة تدريجيا، ان تواجه الموقف بزماميرها، فالميكانيك يضمن مناعة ما جبال ما تنويه تلك السيقان الضامرة، أي غريزة التمرد القاتل. اما انا المذهول فقد حطيت في تلك المعمة.

بعدها لعلت هرجة الزمامير ومن ثم لا شيء البتة. الشارع فارغ تماما. وساد صمت عجيب.

ثم بدأت العارضة.

لم يكن عددهم كبيرا في عمق جادة فؤاد الأول - شانزليزيه القاهرة - خمسون من الصبية يتأطرون مقابل العمارات ويتصدرهم علم. بدون ذلك العلم الاخضر، ذي الهلال الابيض، كان يمكن اعتبار التظاهرة مجرد تجمع لشبان يمرحون خلال عيد رأس السنة. كان يتوجب الاقتراب من التظاهرة للتحقق من أن الفرح لا يسكن تلك الوجوه.

في الصف الأول كتفان غير مرئيين يحملان بزهو شخصا يرتدي الزي العسكري الرسمي و"البيرية" الخضراء: "انه متطوع من القناة". كان الشاب الاسمر يهتف بعبارات قصيرة ويؤكد عليها بحركة حاسمة من ذراعيه. ويستعيد الجمع، كما في الكورس القديم، ما يقوله الشاب، بصوت واحد اصم بغرابته.

في الخلف كانت الاقدام العارية تتمدد مخربشة الاسفلت بأظافرها السوداء. في رأسي انا الاوروبي كان لأول ضجة احدثها زجاج تكسر للتو، وقع منه الصباح. فعلى بعد خمسين متر مني كان الكوماندوس يضرب سينما أل" ريفولي".

انذار في البار

ادركت فندققي في الوقت المناسب. هناك لمحت فراشين نوبيين يقفلان بقبضاتهم السوداء العملاقة بوابة المدخل الحديدية. قبل ذلك اقفلت بوابة البار وهو التدخين. فتحول بذلك، البالاس المحروم من النور، إلى معقل مظلم، حيث الخوف بدأ يقتفي اثره. لمحة بصر خفيفة من تحت الباب جعلتني اعرف ان الريفولي "لؤلؤة سينمات الشرق" تشتعل.

في ظلمة الفندق المصفحة، عود ثقاب يقرقع منيرا للحظة، جلد المقاعد المهجورة اللماع. هناك التقيت صاحب الفندق. انه يوناني حاذق، تحدث معي قبل قليل بلغات متعددة وجعلني اتسلى لساعة من الزمن. الآن اقلع عن ترحيبه الاحتفالي: هذا أنت يا سيدي؟ اصعد بسرعة إلى المطعم. الآخرون فوق. سألق بكم. قبل أن يختفي اثر عود الثقاب رايت مسدس البراوننج المنكل الصغير الذي يحمله في وسطه.

في الطابق الأول، وفي قاعة الطعام الكبرى كان الشحم الرخيص الثمن المتجمع حول اللمبات الصغيرة يبحث عن انعكاس في الكريستال الشاحب للثريات المعلقة على مقربة من السقوف العالية. في هذا المكان اجتمع ذلك القطيع (النزلاء) غير المرئي والهامس، الذي لجأ إلى المطعم. من جهتي ارتأيت ان المكان يفتقر إلى الهواء الكافي فخطر لي ان اعمل وفق المبدأ القديم التقليدي الذي يقضي بالصعود إلى السطح في مثل هذه الحالات.

في هذا الوقت كان انقطاع الكهرباء قد ادى إلى تعطل المصعد. سرت على الادراج بعكس حركة النازلين عبرها والذين يهرولون نحو قاعة الطعام. في مستوى الطابق الثالث كانت سيدة إيطالية مسنة قد حوصرت في المصعد بين طابقين، وتطلب النجاة في الآن معاً من السيدة العذراء ومن ابناء الله على الارض، الذين جاؤوا بسلم صغير وشمعدان. الخدم. الخدم ما زالوا يطيعون (الأوامر) وكانت هذه اشارة طيبة فذلك أفضل بكثير من ان نكون أيضاً بحاجة لحماية مؤخرتنا.

ستتيج لي (من الآن فصاعداً) شرفة البناية الاسمنتية الدائرية العريضة التي تطل من علو طبقاتها الثماني، على ملتقى جادة فؤاد الأول مع جادة سليمان باشا (ستتيج لي) مركزاً للمراقبة فريداً من نوعه وهو ما لم اكن احلم به في حالتي تلك. منها ساشاهد طوال عشر ساعات ما لم يجرؤ نيرون على القيام به.

في الاسفل، أي في الساحة، حيث فاجأتني الأحداث قبل قليل بدأ المكان يمتلئ من جديد، عبر كافة الازقة الموصلة اليه. ها هي الموجة المهتاجة والمؤلفة من اولئك الذين هربوا من الساحة من قبل، ها هم يرجعون الآن نحو الريفولي. على شرفة السينما كان رسم "سبنسر تراسي" ذو الخمسة أمتار يتلاشى في اللهب وتتلاشى قسمات وجهه المتجهمة على الكرتون. الآن امسكت جمهرة الناس بالقضية، هؤلاء هم جمهور البطاقات البريدية الحار والملون المؤلف من لابسى الجلابة، أي قميص النوم الطويل الذي يعتبر الزي الرسمي للفقير في هذا البلد.

ماسحو الاحذية وبائعو البطاطا المقلية والشحاذون والمشردون والاطفال البناديق وخدم كل العالم، كل هؤلاء خرجوا من جحورهم، يركضون بين البنايات البشعة ويستعيدون منتصرين السيطرة على أرصفة القاهرة الجميلة البيضاء التي كانت في حريق ذلك اليوم تقود إلى موعد مع القيامة.

كان الحريق يتأجج منذ ساعة عندما جاءت سيارة الإطفاء الأولى مختربة المكان كعربة في ساحة للسباق. الشاحنة جديدة ويواكبها صفان من الاطفائيين السود الشجعان. كانت قبعاثهم النحاسية تلمع تحت اشعة الشمس كعرف الديك.

لن يدوم الحماس الكبير الذي ترافق مع وصولها الا لومضة من الزمن. فقد افترش اربعة من المتظاهرين الأرض، وجلس كل منهم تحت دولاب بقرب الحاجز الواقى من الصدمات. كان جرس الانذار الضخم في الشاحنة يرن كجرس رئيس احد المؤتمرات لكن بلا جدوى. بدأت المفاوضات (مع الاطفائيين) وكانت تتخللها شعارات معهودة: "الموت للانجليز! الرحيل للأجانب! دماء إخواننا الذين سقطوا في الاسماعيلية تنادي بالثأر".

ثم هتفوا بصوت واحد. "الاطفائيون معنا!!"

خلال خمس دقائق كف جرس الاطفائية عن الاحتجاج وبعد خمس أخرى بدأ جنود النار يصفقون للشباب الذي يهتف وخلال ربع ساعة اختفت عربة الاطفائية في زاوية شارع سليمان باشا قبل ان تم تدويرها واحدا من خراطيمها.

في نار الحقد

في هذا الوقت كانت الريفولي تبصق كتل اللهب من فتحات طبقاتها الخمس. لقد تمكن المشاغبون الاكثر جرأة من غيرهم من الدخول إلى البناء واضعين محارم رطبة على انوفهم، ثم انتشروا في باحة. كانوا يرقصون على حافة الفراغ (بعيدا عن اللهب) على طول الكورنيش، كحشرات صغيرة رشيقة الحركة ومستديرة كسلسلة ويتناقلون كل ما لم يحترق بعد من هذه البناية الفخمة. في أعلى السطوح، وبهدوء على ما يبدو، كانت تتساقط كالمطر، طاوولات اللعب الطويلة والتي استقبلت في السابق لاعبي البريدج الأكثر تميزاً في المدينة. وكانت تتساقط أيضاً المقاعد الضخمة وكراسي البار، واطقم اقداح الشراب واواني الجاد وسجادات الموسيقى الساحرة. كل هذه الاغراض كانت تجمعها في الاسفل، مجموعة من الحاضرين، وتدفعها إلى بحمرة ذات شكل هرمي، تتأجج دورياً وبلا توقف. كان لهيب الحمرة يتداخل مع لهيب البناء ليتحول إلى مشعل ضخمة ترتفع قمته عالياً إلى السماء دون ان تدرك مداها العين المجردة.

... وأحيانا كانت تقع من اعلى السطوح قطعة اثاث وتتكسر على الجمهور فيحمل جسد أو جسدان ويتواصل الاحتفال دون توقف.

البوليس معنا

حوالى الساعة الثانية ظهر رجال البوليس الذين اختفوا بسحر ساحر في البداية. جاءوا في شاحنة مكشوفة تقل فصيلا من الجنود من رتبة شاويش. يرتدي افراد الشرطة هؤلاء خرقا بالية ويعتبرون هنا حراس الامن والمسؤولين عن السلام. لقد فرض الانجليز على مصر شرطة مسلحة لها من العدة بالتمام والكمال قصب الخيزران، مستندين إلى فعالية هذا الاسلوب في الجزر البريطانية.

حذار...

ماذا سيفعل هؤلاء البائسون ضد من هم أكثر بؤساً منهم؟
البارحة برزت قضية الاسماعيلية الشهيرة - المبرر الأكيد لأحداث هذا اليوم - خلال ذلك قام سراج الدين باشا وزير الداخلية الدموي، بأعطاء اوامر بالهاتف من مكتبه في قيادة الوفد تقضي بتزويد شرطة قضبان الخيزران الموجودين في القناة بالاسلحة. واعطى الشرطة اوامر بالمقاومة حتى الموت في وجه القوات الانجليزية التي تحاصر مركز الجندرمهناك. كان يوجد 48 من "البولوك نظام" أي افراد الشرطة الملحقين. هؤلاء ماتوا في سيدي ابراهيم. ماتوا من أجل ماذا؟

هذا السؤال كان يطرحه المتظاهرون على رجال الشرطة الذين جاءوا لقمعهم. جرت الامور مع هؤلاء المدافعين عن النظام بسرعة اكبر مما جرى مع الاطفائيين قبل قليل. استغرق الأمر دقيقتين من التخاطب ثم صارت القضية في الجيب. لقد تكررت حكاية الدواليب ثم اتجهت الشاحنة بدورها نحو الطريق مرورا بزاوية شارع سليمان باشا يرافقها هتاف الجمهور بصوت واحد، هذا الجمهور الذي سهى للحظة خلال وجود الشرطة ثم استأنف اعمال التخريب بحماس متصاعدا.

قادة الاوركسترا السريون

لكن مالذي حل بكومانندوس البداية؟ ساعرف الجواب حين القي نظرة شاملة على المكان بكامله. فحتى الآن كنت وحدي في هذا البرج الاسمنتي، وكنت قد

تركت عيوني مسمرة على هجوم الريفولي. لم اكن اعرف انه خلال الساعات التالية ستختفي بدورها 25 صالة سينما أخرى وتاكلها السنة اللهب من مواقع أخرى بالطبع. وما حسبته حتى الآن ضبابا كان في الواقع دخانا رهيبا تصاعد من الحريق الذي يمتد عبر المدينة الاوروبية. ما فعله الكوماندوس في الريفولي ربما استغرق عشر دقائق أي الوقت الكافي لدس النار في البارود. سأعرف من بعد ان فريق الصدم هذا كان يتجول منذ ساعتين في الشوارع برفقة فرق أخرى، ليفجّر الاهداف التي اختارها بدافع الحقد الذي يحتزنه الشحاذون لمدة طويلة من الزمن.

انها المرة الأولى التي نشهد تظاهرة عبيد مسلحة بصفائح البنزين، لكن اخرين هم الذين وضعوها في ايديهم.

في الرابعة بعد الظهر تحول قلب المدينة إلى محرقة واسعة الاطراف، يغطيها دخان كثيف. وشيئا فشيئا كانت قرعة الحريق تحل محل ضجيج الاصوات المتنافرة والصادرة عن الانتفاضة.

من برجتي الذي لم يعد بالامكان البقاء فيه جراء شهب اللهب المتصاعدة، رأيت النار تمتد متتالية إلى المخازن اليهودية "سيكوريل" الواقعة في جادة فؤاد الأول وهي مخازن كبرى تتألف من ست طبقات. ها هي جدران سيكوريل تتهاوى جزءا بعد جزء في الحجرة وتليها من ثم مخازن شلاخ المجاورة وهي يهودية أيضاً فقد احترقت طبقاتها الأربع في أقل من نصف ساعة.

كيف مات جيمس أ. كريغ؟

على عيني كان يحترق "تورف كلوب" النادي الفخم الذي يلتقي فيه النبلاء غير المتوجين من كل انحاء العالم وبصورة خاصة البريطانيون منهم. سيدات وسادة من كل المقامات المميزة، كانوا يأتون كل مساء ليجدوا نعيم الراحة والرفاهية في صالونات النادي وبرودة العشب الانجليزي المنعشة وغير المتوقعة في هذا المكان. ساعرف فيما بعد ان المشاهد الاكثر وحشية وهذيانا قد دارت في هذا المكان

كانت نوافذ النادي مغلقة بأحكام بقضبان من الحديد المقوى الامر الذي جعل المهاجمين يتخيلون انهم وقعوا في الفخ. اندفعوا إلى الداخل ووصلوا إلى وسط القاعة

المخصصة للتدخين فوجدوا عجوزا يستقبلهم بكل الهدوء الانجليزي اللطيف الذي يمكن ان يراكمه رجل مثله في اخر حياته المهنية بعد ان عمل كمصرفي في الشرق انه السير جيمس أ. كريغ الإداري السابق في اهم مصارف القاهرة. لن نعرف ابدا ما اذا كان هذا العجوز قد رأى الموسى التي ستقطع رقبتة.

السير جيمس ايرلند كريغ كان عمره 84 عاماً "لكنه كان يبدو اصغر من سنه بكثير" هكذا وصفه كل من يعرفه في القاهرة ممن وصل اليهم نبأ موته في اليوم التالي من خلال الصحف التي فرضت عليها الرقابة وبالتحديد من خلال اعلان خجول عن موت المصرفي كريغ "على اثر توقف في القلب".

عدا السيد كريغ وضع الفوضيون يدهم على سكرتيرة شابة فلفوها بغطاء ورموها من نافذة الطابق الثالث وبعد صرخة مخيفة ستسحق هذه التاعسة في الموقد الملهب في الشارع وسط اثاث الصالونات.

في هذا الوقت كان آخرون قد اوثقوا على مقعد "ميشال كوتر" مالك السفن الذي سيحرق حيا. وهناك أيضاً احد ضيوف النادي الذي لم تكشف هويته رسميا. لجأ هذا منذ بداية الهجوم إلى الطبقة العليا، وعندما تبين له انه لن يتمكن من تفادي المهاجمين والحرائق قام الرجل بعقد شراشف وصلها ببعضها البعض وربطها إلى قاعدة المدخنة، في محاولة للهرب وكان خطأه انه لم يحسب حساب النوافذ. لذا مر احدهم وكان على الارجح مسلحا بنفس الموسى التي قتلت كريغ قبل دقائق فقط سلم القماش الذي هوى مع صاحبه وسط الحريق.

شبيردز التعيس!

اذا كنا نملك تفاصيل أقل حول ما جرى في أماكن أخرى فلا شيء يحمل على التفكير ان الوحشية لم تكن سائدة في كل مكان.

هل سيعرف عدد اولئك الذين قضوا في بناية باركليز بنك؟ وفي شبيردز اوتيل؟

شبيردز هو بلا أدنى شك الخسارة الأكبر التي منيت بها المدينة. ليس فقط للقيمة العقارية لهذا البناء الكبير القصر، الأكثر فخامة من قصور الف ليلة وليلة

والذي ما كان ممكنا لكاتب رواية اكزوتيكى في أدب الغرائب أن يتخيله، ليس لهذا فقط وإنما لقيمته التي لا تقدر بثمن من حيث كنوز الفن العربي الجمعة منذ قرن في هذا المتحف - الفندق. انه مدينة صغيرة حقيقية تعج بالنشاطات التي تبدأ من تحضير راحة الحلقوم إلى تصنيع السجاد والاولاني. الجناح الوحيد الذي سلم فيه هو الصغير الخاص بالمكاتب، حيث دار وسط الدمار الكامل الاتصال الهاتفي الذي نقلناه في بداية هذا المقال اما ما تبقى فسيظل يحترق لمدة اربعة ايام متواصلة. دام اخلاء شيردز اوتيل - 190 شخصا - حتى المساء. جمع صاحب الفندق عالمه هذا تحت نخلات الحديقة التي نجت من الحريق واستفاد من فترات الهدوء كي يخرج ضيوفه إلى الشارع. عبر مجموعات صغيرة محاولا تهدئة الجمهور الذي يطالب بموت تلك السيدة الشقراء كلون سنابل القمح والتي ولدت على ضفاف نهر البو. او ذلك الجنتلمان ذو العظام النافرة الذي وصل توا من البرازيل.

عندما انتهت عملية الانقاذ تبين لنا عند التعداد ان نزلاء كثر غير موجودين وبعضهم من اهم النزلاء كالسيدة "دورا" التي ستشر الصحف صورها في اليوم التالي على الصفحات الأولى تحت اعلان يمنح " لكل من يوفر ادلة عنها كمية خيالية من الذهب.

من اعلى الشرفة حيث لجأت كنت اسعل كسجين الاشغال الشاقة وسط الدخان الذي يلفني ولم يكن بوسعي ان اتخيل الرعب الذي يخيم على المدينة المجنونة. في مثل هذه اللحظات تتحول إلى انانيين.

كانت شبكة الدخان المنسوجة بمئة شعلة تتوسع بلا حصر حول جزيري الصغيرة. كانت كل مستودعات السيارات الكبيرة تحترق. "فورد" و"الستود بيكر" و"القاهرة كايرو" و"موتورز انكليز" الذي احرق بقاذف اللهب الاوكسيدريكي فضلاً عن 300 سيارة جديدة كانت خزاناتها تنفجر الواحدة بعد الأخرى. كل ذلك وسط الصراخ الذي يطلقه كل اولئك الذين طردهم بالامس الزمامير السلطوية. لقد احترقت كل البارات وكل الكازينوهات وكل النوادي وكل محلات الحلوى وكل ما يرمز إلى الملذات والغنى وكل ما له وجه اجنبي او كافر حتى قنصلية السويد البريئة. كل ذلك تعرض للحرق.

لم يتسنّ لي الا الساعة الخامسة رؤية الاشياء عن قرب وبأكثر قدر ممكن مع ان الامور كان يمكن ان تدور بشكل سيء بالنسبة لي بسبب هويتي الكاثوليكية فقد كانت لدي فرصة هامة لأكون فكرة عن الطريقة التي اعتمدت لانه توجد فعلاً طريقة صارمة وجدية اكد جديتها كل اولئك الذين اداروا وشاركوا في تنفيذ هذا الحفل الختامي المتعدد الالوان.

في الطبقة الارضية حيث وجدت هناك "مملك بار أميركي" هو واحد من عدد لا يحصى من المملك بارات التي اقيمت في المدينة. مملك بار الفندق هذا كان الاكثر شهرة في القاهرة بسبب النيون والنيكل اللذين يسبحان فيه ليلا نهارا والأنوار الدائمة الحركة فيه والتي لا تطاق، وكذلك الكوكا كولا التي تضخ هنا بكميات كبيرة وبموجات متتالية. منذ بدء الاضطرابات اشارت الاصابع إلى ستائره المعدنية التي اغلقت بسرعة ولكنه لم يتعرض للهجوم الا في الساعة الخامسة.

التقنيون

عندما شاهدت سيارة الجيب تتوقف فجأة فهمت فوراً. كل شيء تم بسرعة. قفز رجال اربعة من السيارة، كان مظهرهم ولباسهم الذي لا غبار عليه يميزهم عن الجمهرة الباقية من ذوي الخرق البالية كانوا مجموعة من التقنيين. احدهم يحمل صفيحة والآخر يمسك ما يشبه العمود الخشبي والثالث يحتفظ بخطاف والرابع كان خالي اليدين. فور نزوله من السيارة بدأ هذا الاخير يخطب في الجمهور. خلال الخطاب الذي استغرق وقتاً قصيراً تحول الرصيف الأميركي أي المملك بار إلى قفير متراص يسوده العداء. في هذا الوقت كان الرجل الذي يحمل الخطاف يمزق بضربات عنيفة ستائر المدخل المعدنية حيث امتدت مئة يد إلى الباب ثم جاء دور الرجل الذي يحمل العمود الخشبي ودار مشهد على غرار مشاهد الحضارات القديمة. خمس عشرة يد مسمرة السواعد اخذت تلقي بضرباتها بواسطة العمود الخشبي على الباب الحديدي الذي استسلم خلال وقت قصير.

... خزانات ورفوف وبارات للصودا وطاولات وكراس ومرايا وكل شيء في الداخل باستثناء الجدران ذلك كله كان يصل إلى الشارع في حركة قذف

متواصلة. هنا وبحسب السيناريو الذي تم في الريفولي وكل مكان، جرى تكديس الحطام امام الواجهة المبتورة وجاء دور الرجل الذي يحمل صفيحة البنزين فلقى قطعة فتيل مشتعلة وفي لحظة واحدة تحولت كومة الانقاض إلى بحيرة وما ان بدأت النار تتأجج حتى توارت سيارة الجيب عن الانظار.

كان من حسن حظ اولئك الذين كانوا داخل الفندق ان الحريق لن يجد ما يغذيه في المفروشات المتبقية لانها معدنية وعلى الأخص في المليك بار. اذ حاولت السنة اللهب خلال نصف ساعة ان تنفذ إلى البار لكن دون جدوى وقد جرب من في الشارع وبطريقة صيانية اعادة اشعال الحريق بورق الصحف لكن دون طائل.

في هذا الوقت كان صاحب الفندق يحرس امام باب مخزن المازوت يصحبه صبيان مسلحان بالمطافئ. عندما رأني اصل إلى اسفل السلم سحب مسدسه الاوتوماتيكي بدون تسرع ومن ثم استؤنف الروتين فأشار إليّ بجملاً بأن أتوجه إلى البار.

... وباستثناء ما هو غير متوقع كنا قد سلمنا.

العراضة الاخيرة

عندما صعدت مجددا إلى الشرفة تبين لي ان عملية التحطيم لم تتوقف بعد. لا بل كانت قد تجددت وبشكل واسع. كان الغضب يأكل المشاغبين لعجزهم عن احراق الفندق، فكانوا يثأرون من المواد التي لم تعد صالحة للاستعمال وكان حشد الناس الملتحي بالاييس كرم غير عابئ بالدخان الذي يفسد الهواء ويجعله غير قابل للتنفس فعدوا حول الجمرة حلقة راقصة تتصف بوحشية عبثية ووسط الزعيق المستيري الذي كان يتصاعد إلى السماء المشحونة بالروائح النتنة، كانت السيقان المسحورة تدفع الجلايات الطويلة إلى اعلى بحركة مروحية. في الوقت نفسه كانت الايدي السوداء تقذف الجمر في الهواء فيتساقط على الارض كالבصاق ويتحول إلى شرارات. اما غلب الحليب المجفف فكانت تقذف كالقنابل اليدوية نحو الواجهة فتسحق مخلقة غيوما بيضاء. وأيضاً كانت تقذف المقاعد وادوات المطبخ والأغراض الأقل استعمالاً كانت تقذف باتجاه الجدران ثم تستعاد وتسحق وتبعثر.

كانت غريزة العنف الثائرة تضيء على هذا المقصف الالهوج خصوصية طقوسية. لم يكن ما شاهدته مجرد شغب كما نعرفه في الغرب. لقد كان موكبا همجيا مدفوعا من كل شياطين الصحراء. كنا امام نشوة عارمة، امام عراضة طاغية. في هذا الوقت كان البوليس الشكلي يمد يد العون بقوة للانتفاضة في أماكن عديدة. هنا كوكبة توزع قنابلها المسيلة للدموع على الحشود وهناك عريف اول شاوليش يهرع حاملا ما كينة خياطة وهناك اخر من ممثلي النظام يصعد إلى الطبقات ويدق الجرس محذرا النزلاء من انه سيأتي بالمشاغبين ان لم يدفع له كل منهم وعلى الفور خمسين قرشا.

سيادة الفوضى المطلقة

اما الحكومة الوفدية فلهم كانت تمنى ان يكون رحيلها لائقا. ها هي تتخبط وسط جدال عقيم حول مجموعة من النارجيلات. النحاس باشا الذي لم يكن قد تلطف حتى ذلك الوقت بمغادرة منزله رفع اخيرا سماعة الهاتف في منتصف الظهيرة لا ليتخذ اجراء معينا بل ليطلب مقلمة اظافره... في هذا الوقت وحتى لا يبقى في الظل كان سراج الدين وزير الداخلية يوقع شيكا ب 80 مليون جنيه ثمنا للعمارة التي كان قد اشتراها في الصباح نفسه. حوالى الساعة السادسة بدا ان في الافق ما هو أسوأ. في هذا الوقت فقط اجتاحت الشوارع قرقة من كل صوب: لقد وصلت القوى النظامية. وصلت اولا فرقة الخيالة التي كانت تفتح الطريق وتطلق النار من اسلحتها القديمة نحو السماء، ومن ثم الكتيبة المدرعة الثقيلة وهي بالتأكيد أقل زينة من سابقتها لكنها اكثر فعالية وقوة وأخيرا كتيبة جنود المشاة التي تمررت على المفترقات مطلقة رصاصا وهما فوق الرؤوس. اما الشرطة التي التحقت بالجبهة الاكثر اشتعالا فقد اخذت تقذف قنابل الغاز المسيلة للدموع باتجاه قطيع المشاغبين الذي اخذ يتراجع، في حين ان رجال الاطفاء وعلى رغم الموسيقى التي تقطع لهم خراطيم المياه هنا وهناك فقد كانوا يحاولون بلا اقتناع كبير اطفاء الحريق الذي كان يلتهم كل شيء.

لكن ما الذي جعل الموقف يتغير؟ بكل بساطة حدث ما يأتي: معتبرا أن "المزحة" طالت كثيراً اعلم السير صمويل ستيفنسون السفير البريطاني في القاهرة نظيره الأميركي الذي اوصل الرسالة للحكومة المصرية بناء على طلب ستيفنسون وهي مصاغة بعبارات دبلوماسية لكنها تعبر عملياً عن الموقف الحاسم التالي: ان لم تعلنوا حال الطوارئ فستكون قوات القناة (الانجليزية) هنا خلال ساعتين.

واذا كان قد تبقى بعض الوقت لتفادي الاسوأ فمن المؤسف ان الوقت كان قد تأخر كثيراً لتفادي الكارثة. لقد حصد السبت الاحمر 80 قتيلًا. اما الاضرار المادية فأن التقديرات الاكثر موضوعية ستخمنها بـ 50 مليار فرنك فرنسي على الاقل.

الغرب امام هزيمته

في الوقت الذي كان يطلق فيه الرصاص الوهمي ذي السحر المهدئ كان صفير سيارات الاسعاف الحاد يخيم على الشوارع. في ذلك الحين تركت مقري (البرج) ورجعت إلى هو الفندق مع هبوط الليل. على ضوء الشمعدانات التي اشعلت من جديد كان بالامكان رؤية وجوه التجار ورجال الاعمال التي اكتست بجمود ابله، وهم الذين يغلفون وجوههم عادة بابتسامة كانوا يظنون انهم سيحتفظون بها إلى الابد بعدما الفوا تركيبها. لقد برهنت الاحداث إلى أي حد كان كل هؤلاء الناس الذين يسكنون في مصر منذ سنوات قد ظلوا عميانا... لذا كانوا يتساءلون:

الشرطة اين الشرطة؟

رجل شرطة مع رشاش واحد في الشارع، واحد فقط، كان كفيلا بتسوية كل شيء من البداية.

ويتحاورون: لقد تمادى هؤلاء الاوغاد كثيرا. لقد قضوا بضربة واحدة على

الثروة الوطنية.

"الثروة الوطنية"؟ ماذا تعني "الثروة الوطنية" لأولئك الذين لم تكن راحة يدهم قد لامست ليرة واحدة من قبل. ما الذي كان يمكن ان يخسره هؤلاء الناس في هذه

المغامرة. نسألكم؟! ولكن احدا لم يكن يريد او يحاول ان يفهم.
في تلك الاثناء، هنالك، على طريق الصحراء، كانوا يشعلون النار أيضاً في
ملهى الاهرام الفخم، أي في الكباريه المفضل للمجون الملكي.
وفي المطار، كانت طائرات ثلاثة تابعة لشركة الطيران البريطانية "بريتيش
اوفر سايز" احتلت مكانا على المدرج في محاولة للاقلاع على مسؤوليتها بعدما رفض
برج المراقبة تأمين الاتصال لها. واحدة منها فقط خاطرت بالاقلاع وبثلاث
محركات.

في بهو الفندق ادار احدهم مفتاح المذياع للاستعلام عما يجري، لكن راديو
صاحب الجلالة كان يث ربع ساعة من موسيقى التانغو. في هذا الوقت بان لي
جسد غارق في كنبه. انه ذلك العجوز الشاحب الذي لاحظت في ملاحه نبلا
كبيراً هذا الصباح في البار.

انه باشا من الشمال قال لي صاحب الفندق، ينزل عندنا كل اسبوع
ليحصل على جرعه.

لقد فهمت الآن فقط. كان هذا العجوز النبيل غائبا عن المأساة من بدايتها
يسترخي براحة على اثر جرعة المورفين، بالنسبة اليه لم يحصل شيئاً البتة، ولن يشعر
ابداً بما جرى.

في الظلمة التي تنيرها الشموع امتدت يد واخذت انفاس المذياع. فأغتنمت
الفرصة، ساعة الحائط السويسرية الساحرة بهدوئها لتعلن السابعة مساءً أي ساعة
الويسكي والتشيس. لكن من من الحضور كان جائعاً؟

بهدوء طيور الصحراء الكبرى كانت دواوي هذا البلد تدور وتدور وسط
الدخان الذي هجرها من اعشاشها وكما الرجال ستحاول البحث طيلة الليل عن
النوم الذي هجر جفونها.

الباب الثالث

العدوان الثلاثي

حملة السويس: الأسباب والنتائج

فصل جلول

توج غزو السويس سلسلة من التطورات المحلية والإقليمية التي أحاطت بالقنال منذ العام 1952 تاريخ ثورة يوليو - تموز المصرية. فعلى الصعيد المصري ألغى الضباط الأحرار الملكية في حزيران - يونيو عام 1953 وأطاحوا بمحمد نجيب في شباط - فبراير عام 1954⁽¹⁾. ثم انكب جمال عبد الناصر على معالجة الاحتلال البريطاني لبلاده مستفيدا من علاقاته الجيدة بالولايات المتحدة الأميركية وتمكن في العام 1954 من فرض اتفاق على البريطانيين يقضي بسحب قواتهم من مصر خلال عشرين شهرا. أدت هذه الخطوة إلى وضع حد لتفاهم بريطاني - فرنسي - أميركي بالحفاظ على نتائج حرب العام 1948 بين العرب وإسرائيل وبالتالي عدم السماح للطرفين بالحصول على أسلحة تهدد التوازن بينها.

خرقت إسرائيل التفاهم المذكور بحصولها على أسلحة فرنسية. كانت باريس حينذاك تملك دوافع قوية لتسليح الدولة العبرية فهي تحشى المد التحرري الناصري الذي يطال مستعمراتها بخاصة في الجزائر وفي إفريقيا عموماً وتعتقد إن تسليح إسرائيل يساهم في احتواء الثورة الناصرية الصاعدة. بدورها سارعت مصر إلى طلب أسلحة من الولايات المتحدة الأميركية. قبلت واشنطن الطلب لكنها عرضت على المصريين أسعاراً تفوق طاقتهم المالية فكان أن اتجهوا نحو الكتلة السوفياتية التي لوحث لهم بأسلحة متدنية الكلفة. بيد أن فرضية أخرى تقول أن واشنطن كانت ترغب في أن توقع مصر صلحاً منفرداً مع إسرائيل مقابل مدها بالسلاح الأميركي وتمويل بناء السد العالي وأنها دفعت لناصر عربوناً لذلك عبر المساهمة باخراج الانجليز من قناة السويس. بالانتظار كانت واشنطن تعرض على ناصر سلاحاً

(1) استقال محمد نجيب في 23 فبراير - شباط عام 1954 لكنه عاد عن الاستقالة بعد أيام ثم تخلى عن رئاسة الحكومة لجمال عبد الناصر في 14 افريل - نيسان عام 1954 وعزل من رئاسة الجمهورية في نوفمبر - تشرين الثاني من العام نفسه. (المصدر: رسالة شخصية من الصديق الدكتور كمال عبد اللطيف الطويل الذي ادين له بضبط تواريخ مهمة في هذا الباب).

لقوى الامن الداخلي فقط وتضع شرطا آخر يقضي بتوقيع اتفاقية امن متبادل تنطوي على وجود بعثة إشراف أميركية على القوات المسلحة المصرية. رفض عبد الناصر الشروط الأميركية فوقعت غارة إسرائيلية على غزة في فبراير عام 1955 توجه الرئيس بعدها إلى موسكو عبر بكين طلبا السلاح⁽²⁾.

كان الاتحاد السوفيتي حينذاك خارج التفاهم الغربي الثلاثي المذكور ويرغب في الدخول إلى الشرق الأوسط وإفريقيا من البوابة المصرية لذا عرض السلاح على مصر بأسعار متهالكة الأمر الذي توج بما سيعرف من بعد بصفقة الأسلحة التشيكية التي عقدت في سبتمبر - أيلول عام 1955.

بيد أن سباق التسلح لم يكن كافياً وحده لاستدراج حملة السويس. بعد شهور قليلة من تسلمه السلطة قرر جمال عبد الناصر بناء سد مائي تاريخي على نهر النيل في منطقة أسوان. يرمي المشروع إلى تحقيق أهداف كبيرة، فقد أريد له أن يكون العمل الأكثر أهمية في مصر منذ تشييد الأهرام الفرعونية وبالتالي أن يمنح الثورة المصرية شرعية على الصعيدين المحلي والدولي.

في التفصيل أن سد أسوان - أو السد العالي بحسب العامة - من شأنه السيطرة على دورة مياه النيل السنوية والتحكم بالفيضانات المفاجئة وانخفاض مياه النهر في سنوات الشح وبالتالي تفادي الجفاف ناهيك عن إنتاج الطاقة الكهربائية واستصلاح مئات الآلاف من الهكتارات في الأراضي الصحراوية. في نهاية العام 1955 علمت بريطانيا وأميركا أن الاتحاد السوفيتي يعرض على مصر تمويل السد⁽³⁾ فتقدمت بعرض لتشييده بواسطة البنك الدولي لكنها اشترطت امتناع مصر عن شراء الأسلحة السوفيتية. رفض عبد الناصر الشرط وخاض الطرفان مفاوضات عقيمة امتدت لأشهر وانتهت إلى سحب لندن وواشنطن عرض التمويل الأمر الذي اعتبره ناصر إهانة غير مقبولة وبادر إلى عقد صفقة الأسلحة التشيكية ومن ثم تأميم قناة السويس لتغطية نفقات بناء السد.

(2) ملاحظة الدكتور كمال عبد اللطيف الطويل في المصدر نفسه.

(3) يؤكد الدكتور الطويل أن العرض السوفياتي حصل في العام 1957 خلال زيارة الفريق عبد الحكيم عامر لخروتشيف في موسكو... المصدر نفسه.

كان تأميم القنال عملاً خطيراً يصعب السكوت عنه. فهي تعتبر ممراً استراتيجياً حيواً بالنسبة إلى الإمبراطورية البريطانية إذ تربط بين لندن وممتلكاتها ما وراء البحار في الهند بخاصة وتختصر المسافة بين لندن وبومباي بمعدل النصف تقريباً. بداية قررت بريطانيا وفرنسا اللجوء إلى مجلس الأمن لمعالجة المشكلة وتلقت وعداً بدعم أميركي في مسعاها غير أن المجلس أصدر قراراً لصالح مصر إذ تحدث عن حرية الملاحة في القناة وعن حق القاهرة بالسيادة على أراضيها.

من جهة ثانية ذكر قرار التأميم المصري بمنع البوارج الإسرائيلية من عبور القنال وبذلك اكتملت حلقة المتضررين من الخطوة المصرية فكان أن اتفقت فرنسا وبريطانيا وإسرائيل على غزو السويس⁽⁴⁾.

احتلت إسرائيل سيناء في 30 تشرين الأول - أكتوبر عام 1956 بذريعة أن الأسلحة التي حصلت عليها مصر من شأنها أن تلهب الشرق الأوسط. في هذه الاثناء تحججت فرنسا وبريطانيا بعجز مجلس الأمن عن حل المشكلة فوجهت إنذاراً منافقاً للطرفين يقضي بالابتعاد 13 كلم عن ضفتي القنال. ومن ثم أنزلت قواتها في بور سعيد. في 5 نوفمبر - تشرين الثاني وبعد مضي أسبوع على الاحتلال الثلاثي. هدد الاتحاد السوفيتي البريطانيين والفرنسيين بالصواريخ النووية. من جهته شن الرئيس الأميركي داويت آيزنهاور وكان يخوض حملته الانتخابية هجوماً مالياً ضاغطاً على الجنيه الإسترليني وطالب بانسحاب المعتدين معتبراً إن اعتداءهم يشكل ضربة قاصمة للأمم المتحدة. تراجع المعتدون وقبلوا وقف إطلاق النار ومن بعد الانسحاب من مصر. هكذا تحولت هزيمة ناصر العسكرية إلى نصر سياسي مدو.

شكلت أزمة السويس منعطفاً حاسماً في تاريخ الشرق الأوسط والعالم.

فعلى الصعيد المصري لم يعد أحد ينازع مصر سيادتها على القنال منذ ذلك الحين وحتى اليوم، وتحول ناصر إلى زعيم للأمة العربية بلا منازع وإلى قطب عالم ثالثي ودولي بارز في القرن العشرين وطرحت الأزمة ضرورة أن يسيطر العرب على مواردهم وفي طليعتها النفط فكان أن تأسست الأوبك بعد خمس سنوات من

(4) اتخذت مصر إجراءً في العام 1948 يقضي بمنع الملاحة الإسرائيلية في القناة وكانت تربط التراجع عنه بتطبيق القرارات الدوليين 181 و194، المصدر نفسه.

الغزو وبفضل النفط أصبح العالم العربي لاعبا قويا على المسرح الدولي. وعلى الصعيد الإقليمي تعزز نفوذ العالم الثالث الذي بدأ في مؤتمر باندونغ (ابريل - نيسان عام 1955) وتعزز دور الدول الفقيرة بعد الغزو وسار الجميع على النهج المصري في المطالبة بالسيطرة على الموارد الوطنية وبالتالي التخلص من السيطرة الكولونيالية. وسيمضي العالم الثالث فترة الحرب الباردة معتمدا على تكتيك يقضي بتهديد الكتلتين الشرقية والغربية بالانتقال إلى الكتلة الأخرى واستطاع بعد قرون من الذل التخلص من السيطرة الاستعمارية القديمة. وعلى الصعيد الأوروبي بينت الأزمة أن الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية اشتركتا للمرة الأولى في معركة واحدة بعد قرون من التنافس، فكانت هذه المعركة سببا في تعجيل انهيارها معاً وصعود القطب الأميركي. أما الاتحاد السوفيتي فقد اكتسب حليفا أساسيا في الشرق الأوسط ومدخلا واسعا للنفوذ في العالم العربي والعالم الثالث.

تبقى الإشارة إلى أن إسرائيل نجحت للمرة الأولى في الحصول على مشروع نووي فرنسي كشرط مسبق لاشتراكها في الحرب وتمكنت أيضاً من استدراج قوات دولية للمرابطة على الحدود في غزة وشرم الشيخ واستطاعت أن تؤمن لبوارجها المرور في البحر الأحمر عبر مضائق تيران.

على الرغم من أهميتها الحاسمة في تغيير وجه مصر والعالم العربي والتوازن الدولي لم تحظ أزمة السويس بدراسات تتناسب مع حجمها الحقيقي في العالم العربي وظلت تقدم لسنوات بطريقة دعاوية. حتى أن المعلومات الدقيقة حولها ظلت بمعظمها طي الكتمان إلى وقت قريب نسبيا علما بأن مئات الكتب والدراسات الغربية تناولتها بالتحليل والبحث وبقدر أقل من المعلومات الصحيحة إلى أن أفرج البريطانيون عن وثائقهم في النصف الثاني من الثمانينات ومثلهم فعل الفرنسيون.

في الجانب العربي يقدم محمد حسنين هيكل في كتابه الوثائقي الضخم "ملفات السويس" الحدث بأبعاده المصرية والعربية والإسرائيلية والدولية، ويتضمن الكتاب وثائق في غاية الأهمية. وعلى الرغم من الدور الفرنسي الحاسم والتخطيطي في هذه الحملة لم يذكر هيكل في كتابه مصدرا فرنسيا واحدا بصورة مباشرة. وكان عندما

يتناول الموقف الفرنسي يلجأ إلى مصادر غير فرنسية. وتفسير ذلك ان المصادر الفرنسية المباشرة ربما لم تتوفر له او ربما حال عائق لغوي دون وصوله اليها. وربما لسبب آخر هو ندرة المصادر الفرنسية المنشورة أصلاً عن هذه الحرب.

بعد شهر من صدور "ملفات السويس" المصرية وتحديدًا في مطلع العام 1987 عقد راديو فرنسا الدولي ندوة حول حرب السويس أذيعت على حلقتين وكان أن سجلت الندوة في حينه وارتأيت أنها جديرة بان تترجم إلى العربية وان يعاد نشرها كوثيقة مهمة تحفظ في كتاب مستقل خصوصاً أنها تحمل للمرة الأولى شهادات مباشرة لمخططي الحملة الذين رووا وقائع ما حصل بقدر لا بأس به من التجرد وأحياناً بالكثير من المראה.

نظم الندوة وأدارها باتريس جلينيثا وشارك فيها كل من: 1 - موريس بورجيس مونوري وزير الدفاع الفرنسي في العام 1956. 2 - لوي مونجان مستشار مونوري في وزارة الدفاع. 3 - كريستيان بينو وزير الخارجية. 4 - جاك ماسو قائد فرقة المظليين الفرنسية التي انزلت في السويس 5 - برتو فاري سفير فرنسا في القاهرة في ذلك الحين وعقدت الندوة في منزل مونجان في بولفار مونبارناس الواقع في الدائرة السادسة من العاصمة الفرنسية وفي نفس الغرفة التي اتخذ فيها قرار الهجوم على السويس

تحدث هؤلاء السادة عن كل اشكال مشاركتهم في الحدث واذاعوا اسرار تلك المرحلة ولم يترددوا في اظهار عواطفهم الشخصية تجاه التفاصيل. ويعتبر مجموع ما قاله المسؤولون الخمسة الرواية التفصيلية الحية عما جرى. وقد كشفوا سرّاً ظل مجهولاً طيلة 30 سنة وهو اشتراك الطيران الحربي الفرنسي مباشرة في توفير الغطاء الجوي لاسرائيل وفي نقل المظليين الاسرائيليين إلى مواقع تبعد 15 كلم عن قناة السويس. ولم يتردد أحدهم في وصف سيناريو الهجوم الثلاثي بالنفاق الشديد. وإذا كانت الندوة قد ختمت باستنتاج تقدم به مديرها بقوله: "تلك الحرب ادت إلى انهيار الجمهورية الرابعة" في باريس فان ما يجدر اضافته هو ان الحرب نفسها ساهمت في خسارة فرنسا لحرب الجزائر وفي استعجال انهاء الدور السياسي لرئيس الوزراء البريطاني انطوني إيدن.

غزو قناة السويس عام 1956

شهادات مخططي الحملة الفرنسيين

السويس... الحرب الأقصر في القرن العشرين

شهادات مخططي الحملة

مدير الندوة:

شكل الهجوم الثلاثي على قناة السويس في العام 1956 فرصة حقيقية للدول المشاركة فيه، للتخلص من جمال عبد الناصر الذي كان يجابه نفوذها في العالم العربي. كان عبد الناصر يزود الثوار الجزائريين بالسلاح بل كان المصدر الأول لسلاحهم. وكانت البعثة الخارجية لجبهة التحرير الوطني الجزائرية التي يديرها احمد بن بللا تتخذ من القاهرة مقرا لها وتنشط انطلاقا من العاصمة المصرية. في فرنسا كان الجميع يطالبون باتخاذ موقف قوي من ناصر وبياركون بالتالي سياسة رئيس الحكومة غي موليه ووزير الدفاع موريس بورجيس مونوري وفرانسوا ميتيران وزير العدل. كان الجميع يبارك مواقف هؤلاء باستثناء الحزب الشيوعي الفرنسي. والكل كان يطلب منهم ان يحسموا الموقف. وكان جاك شابان دلماس الديغولي والذي سيصبح من بعد رئيسا للوزراء يقول ان لا شيء يدعو إلى وضع حد لتصميمنا المشترك وحل هذه القضية. ونحن من جانبنا، يقول دلماس تؤيد الحكومة في سعيها لايجاد حل ننتظره منذ وقت طويل، ذلك ان التراجع سيكون مؤشرا على انحطاط غربي لا راد له من بعد.

وكان وزير الدفاع موريس بورجيس مونوري يقول ان بلدا كبلدنا فرنسا تاريخه معمر لم يعامله احد طوال تاريخه بمثل السخرية التي يعامل بها الان. وهو لا يستحق ان يعامل بمثل هذا الاستخفاف من قبل شخص (ناصر) لم يتمكن حتى الآن من تقديم الحد الادنى الضروري لشعبه حيث الفقر منتشر في صفوف 21 مليون من المصريين. يحق لفرنسا ان تعامل كدولة كبيرة تنتمي إلى مجتمع الامم

المتحدة. ويحق لفرنسا ان تطلب من الاخرين احترام توقيعها (المقصود اتفاقية قناة السويس) كما تحترم هي توقيع الاخرين. ويضيف مونوري قائلاً: اذا اختفت هذه القاعدة من العالم فان السلام يصبح تحت رحمة المغامر الأول الذي يتجرأ على مواجهتها. من أجل الا يحدث ذلك يقول مونوري ومن أجل انقاذ السلام واحترام قواعد الحضارة فان فرنسا يجب الا تكون ضعيفة.

وفي شباط - فبراير امم عبد الناصر قناة السويس كيف علمتم بذلك؟

م. ب. مونوري: تولد لدي انطباع ان ناصر قد صمم على الاندفاع إلى الامام وانه كان يأمل من خلال ذلك (التأميم) ان يحقق مجدا حاسما في المحيط الذي يتحرك فيه (الوطن العربي) وفي وسط الشعب الذي يؤيده وهذا ما حصل بالفعل. لم اكن مقتنعا بانه يريد استخدام عائدات القناة من أجل تمويل سد اسوان. كان يتحجج بذلك وقد تحدثنا عن هذا الأمر غي موليه وأنا مرارا. كنا نرى ان ما فعله شبيه بما فعله هتلر قبل الحرب العالمية الثانية. طبعاً لم تكن تلك هي الحال تماماً حينذاك ولكن هذا ما كنا نعتقد. لكن المؤكد ان ناصر كان يبدي رغبة واضحة في لعب دور المنقذ في افريقيا. ومعروف ان الدور والتأثير العربي احزنا تقدماً هائلاً في تلك الفترة في افريقيا.

مدير الندوة: بعد تأميم القناة وفي بونكر تحت الأرض في لندن وضعت خطة لعملية عسكرية فرنسية بريطانية اطلق عليها اسم عملية "موسكيتير" ولحظت فيها كل التفاصيل ومن بينها ايكال القيادة إلى الانجليز على ان يكون الجنرال كاتلي رئيساً للأركان ونائبه الاميرال الفرنسي بارجو. وان تكون القوات البرية بقيادة الاميرال الانجليزي ستوكول وان يكون مساعده الجنرال الفرنسي بوف في حين عين الجنرال الفرنسي ماسو مساعداً للجنرال باتلر. هكذا قبل الفرنسيون ان يكونوا منذ البداية تحت رحمة الانجليز. وكانت الحلقة المجهولة في هذه القضية تتصل بدور واشنطن. لقد اعتقدت الحكومتان الفرنسية والبريطانية ان بوسعهما الاعتماد على وزير الخارجية الأميركي جون فوستر دالاس المعروف ببرجل الحرب الباردة وقد التقى به وزير الخارجية الفرنسي كريستيان بينو سريعا في لندن في أول آب - أغسطس. لاحظ الفرنسيون يومها ان الموقف الأميركي بارد، علماً بان الولايات

المتحدة وبريطانيا قررتا بعد تأميم القناة العمل معاً ضد ناصر. ولم يكن وارداً بالنسبة لهما اشراك اسرائيل في هذا العمل بل التحرك في اطار ما يعرف اليوم بالحلف الاطلسي. كنتم تتوقعون اذا دعماً أميركياً لكن الاعتقاد السائد حينذاك ان فوستر دالاس اعلن رغبة بلاده ومنذ الأول من اب - اغسطس في التوصل إلى حل من خلال المفاوضات.

لوي مونجان: بداية كانوا يدفعون الفرنسيين والبريطانيين (للقيام بعمل عسكري) وفيما بعد حملوا القضية إلى الامم المتحدة. عندما بدأنا التحضير للعمليات بدون الأميركيين طبعاً لم يقل فوستر دالاس لا. لم يرفض.

كريستيان بينو: اذكر انني التقيت فوستر دالاس من قبل في كراتشي خلال اجتماع للحلف الاطلسي وكان حذراً مني لانني اشتراكي. وكانت الجملة الأولى التي بادرني بها عندما صرنا وجها لوجه وبدون شهود: "انا اعتقد يا سيد بينو انه يوجد في العالم نوعان فقط من الافراد. اولئك المسيحيين المناصرين لحرية المنشأة والآخريين". وعندما جاء في الأول من اب - اغسطس إلى لندن كان رد فعله على تأميم قناة السويس سلبياً للغاية ولكنه كان يقول: لا نستطيع ان نتدخل ولا نعرف حقيقة نوايا عبد الناصر ويجب ان ننتظر لمعرفة مواقف كل الذين وقّعوا اتفاقية القناة. اثار هذا الموقف دهشتنا كثيراً لاننا كنا ننتظر وخاصة البريطانيين، معونة من الأميركيين. وكان الأمر نفسه يصح على الهند الصينية. لكن الامور اتضحت فيما بعد. في حينه قال لي شخص أميركي رفيع المستوى ولن أذكر اسمه: ان سياسة دالاس تقضي بازاحة الفرنسيين والانجليز من كل النقاط الاستراتيجية في العالم وتمثيل الأميركيين فيها.

كان الأميركيون يتحدثون عن التفاوض لكن دون اندفاع كبير. كنا نحن أيضاً نحري مفاوضات. ولكن هم كانت لهم مفاوضات من جانب اخر. هل فهمت ماذا اعني؟ (يريد الحديث عن مفاوضات أميركية - مصرية).

مدير الندوة: خلال شهر لم تسفر المفاوضات عن نتيجة. فالمؤتمر الدولي الذي التأم في لندن اولا في 16 اب - اغسطس اقترح انشاء شركة دولية جديدة لتشغيل القناة. وفي 9 ايلول - سبتمبر رفض عبد الناصر الاقتراح. ولتجنب الحرب

عرض دالاس انشاء جمعية من المتفعين من القناة. لكن ناصر رفض أيضاً هذا العرض لانه كان يعرف ان الأميركيين لن يدخلوا في اختبار قوة معه.

لوي مونجان: حوالى 20 ايلول - سبتمبر وبمواجهة التباطؤ الأميركي، اعتقدت فرنسا أي جورجيس مونوري وأنا، انه يجب عمل أي شيء وبالتالي يجب اشراك الاسرائيليين لكي نضغط بذلك على المجترة.

الجنرال جاك ما سو: كان اشراك اسرائيل امرا في غاية الاهمية بالنسبة لنا اذ كنا نود تخفيف الابعاء التي نتحملها في الجزائر عبر ازالة عبد الناصر لكن القضية بالنسبة للاسرائيليين كانت تكتسب اهمية اخرى. فبعد نهاية الحرب العالمية الثانية لم تقبل مصر بوجود اسرائيل ومنعت مرور السفن الاسرائيلية عبر قناة السويس وحاصرت في 1954 - 1955 خليج العقبة. وكانت الدول المحيطة باسرائيل أي مصر وسوريا والاردن قد تلقت كمية من الاسلحة الروسية الأمر الذي يشكل مصدر تهديد لاسرائيل. اضافة إلى ذلك كانت اسرائيل ترغب في القضاء على الارهابيين (الفدائيين الفلسطينيين) في قطاع غزة. اذن اسرائيل صاحبة مصلحة حقيقية في الاشتراك بهذه العملية. وكنت معجبا بالجنرال موشي دايان إعجابا شديدا لأنه يشبه الجنرال لوكليك بمنهجية قيادته (هو مساعد الجنرال ديغول ومحرم باريس من الاحتلال النازي). كان دايان قائداً للجيش الاسرائيلي وكنت اراهن على ان يتمكن من اقناع بن غوريون بعمل شيء ما (ضد عبد الناصر).

مدير الندوة: في 20 ايلول - سبتمبر في هذه الغرفة (حيث تدور الندوة) جرى اول اتصال على مستوى عال بين اسرائيليين وفرنسيين وكنت انت لوي مونجان طرفاً في الاتصال. فكيف تم ذلك وماذا دار في الاجتماع؟

لوي مونجان: كان الاتصال على مستوى حكومي وهو تلا الاتصال بين رئيسي الاركان (دايان - ماسو) وكان ايجابيا للغاية. في ذلك الحين قرر غي موليه (رئيس الحكومة) ان يناقش القضية بعمق مع مسؤول اسرائيلي. حضر من الجانب الاسرائيلي غولدا مايي روشيمون بيريس الذي يعتبر أميناً على اسرار بن غوريون. وحضر من العسكريين الفرنسيين ابييل توما والجنرال شال وبورجيس مونوري وكريستيان بينو وأنا. كنا جميعا نأمل مشاركة الانجليز. والاسرائيليون يشددون

على ذلك لانهم كانوا يخشون ان تطعنهم بريطانيا في الظهر. بعد هذه الجلسة ذهب الجنرال شال للقاء بأيدن في لندن وليحدثه عن عملية وخطة اسرائيلية.

مدير السندوة: زار رئيس الوزراء البريطاني انطوني ايدن فرنسا على الاثر وصرح بأن الزيارة ملحوظة من قبل وانه جاء لبحث مع غي موليه سبل الحفاظ على التضامن الفرنسي البريطاني. وما لم يقبله ايدن في 16 اكتوبر - تشرين الأول هو ان الزيارة تمخضت عن اتفاق على عقد لقاء بعد ايام في ضاحية سيفر (ملاصقة للعاصمة) الباريسية للبحث في تفاصيل عملية عسكرية بريطانية - فرنسية - اسرائيلية مشتركة. وقد ظلت هذه الجلسة سرية لمدة 20 عاماً وقد حضر لها بورجيس مونوري ولوي مونجان وايل توما. في 20 اكتوبر ذهب الثلاثة إلى اسرائيل للقاء دايفيد بن غوريون وموشي دايان. في 22 اكتوبر جاءوا وبسرية تامة بالرجلين إلى باريس. فكيف تم ذلك؟

لوي مونجان: كانت الرحلة طويلة ومتعبة. فقد حلقتا 4 ساعات فوق باريس بانتظار جوارب حول المكان الذي سنهبط فيه. اذ لم يكن هذا المكان محدداً من قبل. في ذلك الوقت سرّبت انباء إلى الصحفيين عن استعدادات في مطار فيلا كوبلاي (مطار عسكري صغير يقع بالقرب من العاصمة) تحدثنا ايل توما وانا إلى وسائل الاعلام وقلنا لهم ان الاستعدادات العسكرية ناجمة عن تحضير استقبال لمبعوث خاص للحبيب بورقيبة.

كريستيان بينو: كان الاسرائيليون مصممين على اقتحام سيناء في الايام التالية ومهما حصل. ولكن كانوا يقولون نخشى ان تقصف مدنا ونخاف من الطيران المصري. وطلبوا ان نؤمن لهم دعماً عسكرياً من خلال قصف المطارات الحربية المصرية لأنهم لا يملكون ما يكفي من الطائرات القاذفة. كان ذلك امراً حيويًا وحاسماً بالنسبة لهم. اما قضية احتلال بور سعيد فقد طرأت من بعد وبناء على اقتراح من البريطانيين وبالتحديد من سالوين لويدي شخصياً. كان يقول لي انا بحاجة خاصة لكي يضرب الاسرائيليون أولاً. انا بحاجة لهذه الذريعة لتهدة الاردن. وبذلك يمكن القول ان العملية ليست موجهة ضد الدول العربية.

بورجيس مونوري: كان بن غوريون حريصا على الا تكون مدنه تحت مرمى العدو. لذا اصّر على التمتع ليس فقط بالدعم البريطاني وانما بالفرنسي ايضا. كان منفرجا للغاية يومها وأذكر احدى خواطره فقد كان صديقا قديما لي. قال: "بورجيس، قل لي ما الذي يجعل الاشجار لا تتقاتل أبداً مع بعضها البعض".

مدير الندوة: في 24 أكتوبر - تشرين الأول مساء وبعد موافقة او علم رئيس الجمهورية والبرلمان ومعظم الوزراء تم توقيع بروتوكول "سيفر" الذي ينطوي على سيناريو شديد النفاق. فهو يلحظ ضربة عسكرية لمصر بعد 5 ايام من توقيعها ويتيح لفرنسا وبريطانيا التدخل من بعد دون ان تكونا معتدتين وذلك بعد ان توجه الدولتان انذاراً إلى مصر واسرائيل وتدخلان من أجل الفصل بين المتحاربين. وفي الحقيقة من أجل احتلال القناة والعمل على اسقاط جمال عبد الناصر.

بعد ظهر 29 أكتوبر - تشرين الأول 1956 شن الاسرائيليون هجوما كبيرا ضد القوات المصرية بغية الوصول إلى القناة في اليوم التالي. وعندما علمت بالامر، الذي تعرفه سلفاً، وجهت حكومتا فرنسا وبريطانيا مجتمعتين ومنفردتين نداء إلى الطرفين فيما يلي ابرز نقاطه:

1. إلى الحكومة المصرية: القبول بوقف اطلاق نار شامل وسحب القوات إلى بعد 15 كلم من القناة والقبول باحتلال قوات فرنسية - بريطانية لمواقع اساسية في قناة السويس لضمان حرية ملاحاة السفن التي تنتمي إلى كل البلدان وحتى التوصل إلى اتفاق نهائي بين الطرفين.

2. الى الحكومة الاسرائيلية: القبول بوقف اطلاق نار شامل وسحب القوات إلى بعد 15 كلم من القناة. واذا لم تقبل الحكومة المصرية بالشروط المقترحة في مهلة محددة فان القوات الفرنسية - البريطانية تهاجم القوات المصرية في الساعات الأولى من 21 أكتوبر - تشرين الأول.

وكما كان مرسوما قام الجيش الاسرائيلي بمساعدة خفية من الطيران الفرنسي بالهجوم على سيناء في اطار عملية "قادش" ما سمح لموشي دايان بزراعة الجيش المصري والوصول إلى منطقة القناة واحتلال كامل سيناء. في هذا الوقت كان

لوي مونجان في اسرائيل ينتظر انتهاء مهلة الانذار الفرنسي البريطاني الذي سيستخدم ذريعة لتدخل البلد ين.

لوي مونجان: قضيت اليوم الأول من المعركة في تل اييب وفي مكان مقدسه اسرائيل. كنت مع شيمون بيريس ومع ضباط ارتباط. تابعت من هناك سير العمليات ساعة بساعة من الجانب الاسرائيلي ثم ذهبت للقاء بن غوريون. بعد انتهاء الوقت المخصص لاذاعة الانذار اتصلت بباريس وقلت لهم ننتظر الانذار فقيل لي نحن بدورنا ننتظر البريطانيين. اذكر انه في الساعة 11 وثلاثين دقيقة خرج بن غوريون عن طوره وصار يقول: الانذار، اين الانذار؟ ذكر ذلك بلكنته البولونية التي تطبع الانجليزته وفرنسيته في الآن معاً. وعندما وصل الانذار تنفسنا الصعداء.

بورجيس مونوري: كانت قضية التغطية الجوية لاسرائيل في غاية الاهمية، فقد قمنا حينذاك بارسال وحدات فرنسية والبسناها الزي الحربي الاسرائيلي وموهنا طائراتنا بالرموز الاسرائيلية. وهذه المرة الأولى التي يحصل فيها مثل هذا الأمر في تاريخ فرنسا. ولم يسقط أي من طيارينا او طائراتنا في ذلك الحين. مدير الندوة: وتم حفظ السر فيما بعد.

مونوري: ... بدليل انك لم تكن تعرفه من قبل. طائراتنا هي التي حملت المظليين الاسرائيليين وقذفتهم على بعد 15 كلم من القناة في الساعات الأولى للقتال⁽⁵⁾.

لوي مونجان: كان البريطانيون على علم بوجود طائراتنا على اراضي اسرائيل. وكى لا نشير مشاكل للاسرائيليين وضعنا الطائرات تحت الرموز الاسرائيلية. وقد زرت شخصيا طيارينا في ذلك الوقت للتأكد من ذلك. **برتو فاري:** كنت في القاهرة حينذاك. لم تشعر العاصمة المصرية كثيراً بالحرب. لم يقلقنا الاسرائيليون في اية لحظة.

(5) كشف هيو توماس النقاب عن اتفاق سيفر في العام 1966 بعد مضي عشر سنوات على الغزو في مقال كتبه في التايمز اللندنية وفي العام نفسه نشر محمد حسنين هيكل كتابه الأول عن اسرار حرب السويس وضمنه المعلومات المذكورة حول المظلة الجوية الفرنسية. المصدر نفسه.

مدير الندوة: رفض ناصر الانذار البريطاني الفرنسي فأغار الطيران الحربي للبلدين على مصر في وقت كان فيه الجيش المصري في حالة ضياع. وتباطأ مظليو الجنرال ماسو وباتلر في قبرص لكي لا يتولد انطباع بان العملية معدة سلفا. انتظروا اسبوعا كاملا قبل الانزال. هذا الاسبوع سمح لناصر ان يحرك الرأي العام الدولي ضد فرنسا وبريطانيا. وفي نيويورك في 2 تشرين الأول - نوفمبر طالبت الجمعية العامة للامم المتحدة بوقف النار.

كريستيان بينو: طالبت مجموعة عدم الانحياز والمجموعة السوفياتية اسرائيل بوقف النار الفوري وطلبت منا ذلك فيما بعد لاننا اضعنا عدة ايام قبل ان تنزل قواتنا في مصر. كانت تلك غلطة كبيرة من جانبنا. لقد جوهنا مجاهدة عنيفة في الامم المتحدة واصيب ممثلنا هناك بانحياز عصبي. وكان يجب استبداله. انها بالفعل لحظات صعبة جدا. لكن في الوقت نفسه وفي اروقة الامم المتحدة كان البعض يقول لنا استعجلوا وتخلصوا من عبد الناصر قبل ان نقترع. لن افصح اسماء هنا. هناك كثيرون ممن طالبونا بذلك وبصورة خاصة ممثلو بعض الدول العربية⁽⁶⁾. الحقيقة ان ناصر كان يتمتع بشعبية في الاكواخ وليس في السفارات العربية. بالحصلة كنا نعيش حالة صعبة جدا بكل تأكيد.

لوي مونجان: قررت الذهاب إلى الاركان في اليوم الرابع للعملية التي كانت قد انتهت من الجانب الاسرائيلي. وتحدثت إلى الاميرال بارجو وقلت ماذا تنتظرون لم يعد هناك عدو فانا عائد من اسرائيل واعرف ان الاسرائيلين اوقفوا عملياتهم لانه لا يوجد امامهم عدو فلماذا لا تقومون بالانزال؟ قال لي الجنرال "بوفر" ليس ممكنا لأن المخطط لا يلحظ ذلك. بالنسبة له كان الأمر يشبه الانزال الذي تم في النورماندي في العام 1944 (يوم انزل الحلفاء قواتهم على الشواطئ الفرنسية نهاية الحرب العالمية الثانية).

الجنرال ماسو: كان الطيران المصري محطما بالكامل مساء 2 نوفمبر. في ذلك المساء جاءني إلى مركز القيادة الفرنسية - البريطانية الجنرال "برونت" الذي كان

(6) تكرر هذا الموقف حرفيا خلال حرب تموز - يوليو العدوانية الاسرائيلية ضد حزب الله في جنوب لبنان.

يقود الطيران الفرنسي وقال لي انا مستعد لحماية القوات البرية بشكل كامل وانا جاهز للمشاركة شخصيا في هذه العملية. هذا يعني انه كان بوسعنا منذ مساء 2 نوفمبر التحرك بواسطة قوات محمولة. لكن التعارض في الطرق بيننا وبين البريطانيين اخر ذلك. هم كانوا يفضلون الدخول من الطرق البحرية قبل انزال المظليين وذلك يكتسب اولوية بالنسبة اليهم وهو في نظرنا امر غير ضروري. ولكن كان علينا اقناعهم بان انزال المظليين يجب ان يتم اولا. عندما علمت ان الاسرائيليين صاروا على القناة قلت حسنا فلنبدا الانزال.

مدير الندوة: في 1 نوفمبر 1956، تم تحطيم المقاومة المصرية ونزلت الفرقة المظلية العاشرة التابعة للجنرال ماسو في بور فواد بالقرب من قناة السويس. فكيف تم ذلك؟

الجنرال ماسو: في 4 نوفمبر اتصلت بالجنرال "بوفر" وتم الانزال. عندما نزلنا تجولنا بالسيارات برفقة دراجات نارية تسير بسرعة عادية. لم نلق مقاومة تذكر في حين ان الانجليز جوبهوا بمقاومة أكثر أهمية في بور سعيد.

مدير الندوة: في الوقت الذي كانت فيه المدرعات السوفياتية تسحق انتفاضة بودابست في هنغاريا اراد الاتحاد السوفياتي ان يحرف أنظار الرأي العام. ففي ليلة 5-6 نوفمبر ارسل المارشال "بولغانين" رسالة تهديد إلى بن غوريون وانطوني ايدن وغي موليه. قال فيها ان الحرب التي اشعلتها بريطانيا وفرنسا وجرتا اسرائيل اليها هي حرب خطيرة جدا في نتائجها على السلام العالمي واعتبر ان "من واجبي ان اعلمكم ان الحكومة السوفياتية مصممة على اللجوء إلى القوة لوقف المعتدين واقامة السلام في الشرق الأوسط، ومازال هناك وقت للرهان على التعقل ووقف القتال ونأمل في هذه الساعات العصيبة ان تستخلص الحكومة الفرنسية النتائج المناسبة من هذا الوضع"

كريستيان بيينو: لقد هدد الروس الانجليز باطلاق قنبلة نووية على لندن وتذكرون الشكل الذي اطلق فيه هذا التهديد. وعندما قابلت "خروتشوف" بعد أشهر قال لي: بالتأكيد لم يكن مطروحا الهجوم على لندن ولم اكن اعتقد انكم اغبياء لحد تصديق ذلك. من جهة ثانية مارس الأميركيون ضغوطا على البريطانيين

واوصلوا الجنيه الاسترليني إلى حافة الهاوية. يومها تلقى ايدن اتصالا هاتفيا من ايزنهاور قال له فيه: ساسقط الجنيه اذا لم تتركوا القناة بسرعة وفورا. الانتخابات الرئاسية الأميركية لعبت دوراً في هذا التحرك الأميركي السريع. يومذاك قال ايزنهاور لسفير فرنسا: انا رجل متقدم في السن واصعد على سلم يقود إلى السماء وهناك أريد ان اتقدم امام خالقي ويدي نظيفتان. هذه الجملة انقلها حرفياً عن سفيرنا في الولايات المتحدة. اعتقد انهم تحركوا لاسباب انتخابية. نحن كنا نخطرن الولايات المتحدة بواسطة السي أي اي وبالتحديد شقيق فوستر دالاس الذي كان يقود المخابرات المركزية في حينه. وقد وصل تقرير شقيق دالاس إلى الرئيس الأميركي بعد 15 يوماً من العملية وكان ذلك حدث بمحض الصدفة. ما الذي يمكن قوله بعد هذا؟!!!

مدير الندوة: هل كانت لديهم تفسيرات خاصة بذلك؟

كريستيان بينو: هناك الكثير من الشروحات (قالتها بسخرية)

مدير الندوة: في الوقت الذي كان فيه مظلبيو "باتلر" و"ماسو" يقتحمون بور سعيد ويتجهون نحو القنطرة في السويس تعرض "غي موليه" و"انطوني ايدن" لهجمات من كل صوب. في البرلمان البريطاني هوجم ايدن الذي كان مريضاً حينذاك من حزب العمال واستقال العديد من وزرائه. في باريس نقل السفير الأميركي "غيوم" رسالة من "ايزنهاور" إلى "غي موليه" تطالب بوقف عملية "موسكيتير". في الساعة الحادية عشرة من اليوم نفسه واثناء استقبال موليه وكريستيان بينو المستشار الألماني "اديناور" الذي كان يقوم بزيارة لفرنسا مبرجة من قبل، اثناء ذلك تلقى موليه اتصالاً من ايدن الذي بدا منهارة.

كريستيان بينو: اتصل ايدن هاتفياً واخذت السماعة واعطيتها لغي موليه فقال له ايدن: كما تعلم هناك ضغوط أميركية قوية جداً علينا وانا مضطر لايقاف العملية. اجابه موليه ستكون كارثة. ليست هذه اللحظة المناسبة للتوقف. يجب ان نتنظر بضعة ايام اخرى. كان موليه يعتقد بانه يمكن السيطرة على القناة بسهولة. فرد ايدن بقوله: لقد اعطيت الاوامر بوقف النار. في واقع الأمر ان اعلان وقف النار قبل مشاورتنا لم يكن موقفاً سليماً. هنا اجابه موليه: حسناً ساتصل بك فيما

بعد: بعد ذلك طرحنا السؤال على انفسنا اديناور وغي موليه وانا: ماذا نفعل، هل نعطي الأمر بوقف النار؟ في الحقيقة لم تكن لدينا اية وسيلة لتأمين الامدادات لقطاعاتنا، اذ كان علينا ان نمر عبر البحرية البريطانية. تدخل اديناور وقال: لاجابة للتردد في ما يفترض عمله. يجب التراجع والا ستكون لديكم متاعب كريمة ما لم تتوقف النار. وبالفعل قررنا نحن الثلاثة التراجع واعطاء الاوامر بوقف النار.

الجنرال ما سو: حوالى الساعة السادسة مساءً تلقى الكولونيل "شاف" من رئاسة الاركان رسالة شفوية من الجنرال بوفر يخبره فيها ان وقف النار قد بدأ منتصف الليل. علمنا بذلك من زميل شاف الكولونيل الفرنسي "غودار" فما الذي كان بوسعنا عمله؟ لقد كان ناصر جاثيا. نحن العسكريون لم يكن بإمكاننا توقع النتائج السياسية لما يجري. في الساعة 9 و45 دقيقة مساء علمنا ان وقف النار سيبدأ رسمياً في منتصف الليل، لذا اتجهنا بواسطة دبابات سنثريون إلى طريق الجنوب وصرنا أقل اندفاعاً لأن وقف النار اقر وبدأ ان كل شيء انتهى.

برتو فاري: كان لدى ناصر الوقت الكافي ليحول هزيمته إلى انتصار. لقد خسر الحرب عسكرياً وكسبها سياسياً. كان ذلك نصراً سياسياً هائلاً له.

مدير الندوة: في 9 نوفمبر - تشرين الثاني وبعد مضي 3 ايام على العملية العسكرية استخلص غي موليه النتائج من قضية السويس فاكد انه يجب على كل منا ان يعرف اثارها وقال: انا متأكد ان عبد الناصر فقد ماء وجهه. لقد انهارت في عدة ايام، بل في عدة ساعات قوته العسكرية وفرقه التي كان يقول عنها انها فرق النخبة العسكرية. هذه الفرق لحقت بها هزيمة منكرة. لقد سحق طيرانه والياتة دمرت في المستودعات او على ارض المعركة. بحريته الحرية اغرقت او اسرت في اعالي البحار، وهذا من النادر ان يحصل في تاريخ البحرية العالمية. لقد فرّت بعض قطع البحرية اسيرة إلى الموانئ. إلى ما يمكن رد هذه الهزيمة؟ ان شهادات السجناء العسكريين وغيرهم اجمعت على ان الجنود المصريين لم يكونوا مستعدين للموت من أجل عبد الناصر. اما الضباط فكانوا يبادرون للهرب. تاركين رجالهم وراءهم.

برتو فاربي: في القاهرة بدا وكأن الاجماع تحقق للمرة الأولى حول جمال عبد الناصر. والسبب الاساسي في هذا الاجماع هو الهجوم الاسرائيلي ثم الهجوم الفرنسي وذلك على كل المستويات بما فيها اعداء الناصرية. في الصالونات كان الفرنكوفونيون يرددون نحن نحب فيكتور هيغو بالفعل، لكننا نعارض غي موليه واحيانا كان البعض من هؤلاء يقول: انا لا اتحدث بالفرنسية ويقولها للفت الانظار. اذكر ان احدى صديقاتي المصريات، وكانت معروفة بكونها باسيوناريا المعارضة المصرية ضد الناصرية، التقتني ذات يوم في الشارع وقالت لي فجأة: ابتداء من الآن لا تحدثني بالفرنسية بل بالعربية.

مدير الندوة يختمها بقوله: حلت قوات الامم المتحدة محل القوات الفرنسية التي حرمت من النصر في السويس. وكان على مظليي الجنرال ماسو ان ينسحبوا إلى الجزائر بعد الهند الصينية. بعد عدة أشهر أي في ايار - مايو 1958 سيقلبون الجمهورية الرابعة في فرنسا.

الباب الرابع

هزيمة حزيران

تسألني بائعة الكبريت
عن أعداء الوطن متى يأتون
فقلت لها نامي
فعدو الوطن سيختنن الليلة تحت جدار المبكى.

أمل دنقل

إذا خسرنا الحرب... لا غرابة
لأننا ندخلها
بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابة
بالعنتریات التي ما قتلت ذبابة
لأننا ندخلها
بمنطق الطبله والربابة.

نزار قباني (1)

(1) يمكن العثور على تفاصيل أكثر في موقع الخامس من حزيران الذي يحتوي على قصائد عديدة حول الحرب. في هذا السياق يلاحظ أن نقاد الهزيمة ينتمون بمعظمهم إلى الأوساط التي تقف على يسار الناصرية وبخاصة التيار الماركسي وبالأخص التيار الماركسي اللينيني الذي كان يعتقد بأن الانتصار على إسرائيل رهن بتغيير الأوضاع المحيطة بالدولة العبرية بطريقة جذرية. بكلام آخر الانتصار على إسرائيل يتطلب ثورة اجتماعية تتوج بأنظمة سياسية تحكمها الطبقة العاملة وفكرها وتتكون هذه الأنظمة في إطار الصراع مع إسرائيل. وضمن تحالف استراتيجي مع الاتحاد السوفيتي أو بمعزل عن هذا التحالف بل بالتضاد معه بالنسبة ليسار حركة القوميين العرب الماركسي. كانت الحرب الأهلية في الأردن عام 1970 أو ما عرف من بعد باسم أيلول الأسود نموذجاً تطبيقياً لهذا الطرح الذي أصيب بفشل ذريع دون أن يبادر دعاة إلى إعادة النظر في الأسس التي انطلق منها ومن بينها الحملة على الناصرية.

نكسة أم نهاية المطاف؟

فيصل جلول

تعكس المقتطفات الشعرية أعلاه جانباً من الأجواء المهولة التي انتشرت توا عقب هزيمة الخامس من حزيران - يونيو عام 1967. في المسرح قال سعد الله ونوس (حفلة سمر من أجل 5 حزيران) ما قاله الشعراء. وفي الدراسات السياسية والاجتماعية كان للهزيمة وقع الزلزال ولعل كتاب صادق جلال العظم (النقد الذاتي بعد الهزيمة) شاهد على صورة الكارثة التي حلت بالعرب، والتي بدت وكأنها لم تكن متوقعة أو محسوبة أو أقله محتملة في الأوساط العلمانية في حين كانت محسوبة كفعل إيمان لدى التيارات الدينية التي كانت ومازالت ترى أن الهزيمة والنصر على الأعداء يتقرر وفق البعد أو القرب من الإيمان، لذا كانت صورة الهزيمة مهولة لدى الإسلاميين أيضاً ويمكن العثور على تعبيراتها بخاصة في أدبيات الأخوان المسلمين⁽²⁾.

كان حجم الكارثة مواز للرهان الإعلامي اليقيني الذي عقدته القيادة الناصرية على الحرب: سحق إسرائيل. فإذا بالدولة العبرية تطيح بوسائل الحرب العربية خلال ستة أيام وتسيطر على أراض جديدة تفوق مساحة تلك التي احتلتها في العام 1948.

يصعب فهم حجم وانعكاس الهزيمة في المخيلة العربية عموماً ولدى النخبة حصراً دون التذكير بالظروف التي قادت إلى هذه المأساة، خصوصاً أن عملاً من هذا النوع بات ميسراً إلى حد ما، بعد أن أدلى لاعبو تلك الفترة بشهاداتهم ومذكراتهم. في الخطوط العريضة التالية سيرورة مكثفة لسيناريو الكارثة:

1. كانت العلاقات الدولية محكومة بالحرب الباردة واستقطاب القوى بين واشنطن وموسكو. وكان الطرفان يعملان على ترسيخ نتائج الحرب الكونية الثانية وانهايار النظام الإمبراطوري المهيمن على العالم قبل الحرب، وبالتالي

(2) راجع مذكرات الشيخ القرضاوي في موقع التجديد.

تقاسم مناطق نفوذ الإمبراطوريات الأوروبية ومنها بلاد العرب. في هذه المرحلة الانتقالية انبثقت الناصرية في مصر بوصفها حركة تحرر قومية عربية واختارت التحالف مع الاتحاد السوفييتي بعد محاولات فاشلة للتفاهم مع الولايات المتحدة الأمريكية. كان التحالف مع السوفييت يتيح هامشا أكبر للمناورة بالمقارنة مع المعسكر الغربي الذي أشرف على نشوء إسرائيل ويحتفظ بسمعة كولونيالية سيئة للغاية لدى العرب، ناهيك عن انه يفرض على حلفائه آليات محكمة يصعب الفكك منها (راجع مقال مكسيم رودنسون المترجم في الباب السادس من الكتاب). وفي سياق الاستقطاب كان الشرق الأوسط منطقة مصالح استراتيجية أميركية وغربية من الدرجة الأولى وكانت موسكو تبارك ضمنا هذا التصنيف مقابل مباركة أميركية لمناطق نفوذ سوفيتية أخرى في العالم.

كان على الناصرية أن تتحرك وسط هذه الظروف فسدت ضربات قوية لبقايا النظام الإمبراطوري المتهالك خصوصاً في مصر والسودان والجزائر والمغرب العربي عموماً وجنوب اليمن والخليج (راجع الباب الثاني حول حرب السويس) وانخرطت في قواعد اللعبة الدولية في منطقتنا والتي تنطوي على سقف لا يمكن تجاوزه هو سلامة إسرائيل وعدم السماح بزوالها، سوى أن هذه القواعد ليست منزلة من السماء وبالتالي يمكن تغييرها عبر معطيات جديدة. وفي ظني أن الناصرية كانت تعمل في هذا الاتجاه⁽³⁾.

2. احترمت القاهرة قواعد اللعبة وأخذت تبني اقتصادا وجيشا يسمح بفرض وقائع جديدة في المنطقة وقواعد لعبة جديدة لكنها لم تكن قادرة دائماً على ضبط إيقاع العرب الآخرين. إذ كان عليها أن تواجه منذ مطلع الستينات عرب أميركا من جهة وعرب البعث من جهة أخرى. الطرف الأول اختار التحالف مع الولايات المتحدة وبريطانيا وضغط بقوة على الوضع الداخلي المصري وفي الشرق الأوسط عبر التيار الإسلامي، واختار الطرف الثاني

(3) استفدت كثيراً في هذا العرض من مخطوط هام أعده الدكتور كمال الطويل حول ظروف الهزيمة وتلاه مخطوط آخر حول تصور افتراضي لسلوك مختلف أثناء الحرب وأثره الافتراضي طبعاً على نتائج الحرب.

الضغط على القاهرة عبر السياسة الخارجية وبخاصة الصراع العربي الإسرائيلي مستندا أيضاً إلى السوفييت الذين لا يقيمون وزناً يذكر للتطلع العروبي نحو الوحدة، لا بل يرفضونه كما تبين من تجربة الجمهورية العربية المتحدة. ويمكن القول بلا تردد أن موسكو لم تنظر ولن تنظر بعين الرضا إلى عالم عربي موحد على مقربة من مداها الاستراتيجية في الشرق الأوسط، ناهيك عن أن توحيد العالم العربي كان سيمر بالضرورة بانتقال مخزون الطاقة الأول في العالم إلى المجال السوفييتي وهو أمر يوازي إعلان الحرب بالنسبة للدول الغربية.

كان من السهل على ناصر أن يحتوي ضغوط عرب أميركا المتضررين من المد الناصري لكن كان من الصعب عليه أن يواجه ضغوط عرب البعث الذين يلعبون في الملعب القومي والسوفييتي نفسه، أي في المكان الذي تستمد منه الناصرية القسم الأساسي من شرعيتها بوصفها حركة لمجاهدة الاستعمار والرجعية والصهيونية وليست تياراً إصلاحياً مصرياً بحتاً. ضغط عرب البعث مرتين على الناصرية وفي المرتين كانت نتائج الضغط سلبية على مجمل الحركة القومية. في المرة الأولى كان على ناصر أن ينقذ سوريا من الانضمام إلى المعسكر الشرقي أو من اجتياح تركي وشيك عبر الوحدة المصرية - السورية التي انفضت من بعد بمبادرة سورية وفي المرة الثانية كان عليه أن يدخل الحرب مع إسرائيل لإنقاذ دمشق من اجتياح إسرائيلي قالت تل أبيب مراراً إنه سيقع بسبب رعاية السوريين للكفاح الفلسطيني المسلح.

هكذا أدى الضغط السوري بالورقة الفلسطينية إلى انكشاف الاستراتيجية المصرية واستدراج ناصر إلى صراع مفتوح مع الدولة العبرية يمر بالضرورة عبر الدعوة إلى تحطيمها أي التعرض في الوقت غير الملائم للأساس الذي يحكم قواعد التوازن الدولي في الشرق الأوسط.

أكبر الظن أن ناصر كان يدرك استحالة تحطيم إسرائيل لأنه لا يملك الوسائل من جهة ولأنه يعلم أن حلفاء السوفييت يرفضون هذا الخيار ولأنه يعرف أن الولايات المتحدة لأميزكية والغرب عموماً لا يتسامح مع خطوة من هذا النوع، خصوصاً في ظل إدارة ليندون جونسون التي صعدت الحرب على

فبيّنتام ولم تنظر بعين الرضى لخسارة السعودية لشمال اليمن وتساعد الثورة في جنوبه واستمرار الإندفاعا التحررية في إفريقيا والعالم العربي وكلها تدور في فلك الناصرية أو تتأثر بها. أضف إلى ذلك أن هذه الحركة التحررية تسيطر على قناة السويس التي تتدفق عبرها إمدادات الطاقة إلى الأسواق الغربية ناهيك عن الدور الحاسم الذي لعبته الناصرية في الضغط من أجل تشكيل منظمة الأوبك أي كارتيل المصالح الوحيد في العالم الذي تشرف عليه دول عالمالثالثة بحسب التصنيف السائد حينذاك. والحاصل أن الناصرية كانت تجمع أوراقا ومعطيات من أجل تغيير وجه العالم العربي والشرق الأوسط على أن يتوّج هذا التغيير بحسم الصراع مع إسرائيل فإذا بها تدخل مضطرة حربا بلا عدة كافية⁽⁴⁾.

3. عشية الحرب راهن ناصر على احتواء تهديد إسرائيل باحتلال سوريا وتغيير نظامها عبر تصعيد التوتر واللعب على حافة الهاوية. فشل في تجميع وحدات الأمم المتحدة على الحدود فاضطر للمطالبة بسحبها. أغلق مضائق تيران أمام الملاحية الإسرائيلية ظنا منه أن بالإمكان استخدامها ورقة تفاوضية في مجلس الأمن فأصبح عرضة للضغط الدولي من أجل التراجع عن قراره. افترض أن تخذير القوى العظمى من الحرب ومعاقبة البادئ بها يكفي للعمل تحت سقف اللا حرب، وبالتالي حصر التصعيد في إطار التفاوض الدولي فبدا أن أفق التفاوض شبه مسدودة. اكتشف بعد فوات الأوان انه لم يعد قادرا على التراجع فأرسل فرقه العسكرية إلى سيناء. واكتشف أيضاً انه غير قادر على التحكم بتوقيت الضربة الأولى عندما حذره السوفييت من البدء في الحرب وتم بالتالي إلغاء الضربة الإستباقية المصرية للمطارات الإسرائيلية في 27 ايار - مايو. حسب انه في حالة الحرب سيكون قادرا على الصمود تمهيدا لتحريك الوضع الدبلوماسي الدولي، وبالتالي الاعتماد على السوفييت لإيجاد مخرج مشرف وفي ذهنه ربما تجربة غزو السويس لكن أعداءه كانوا على علم

(4) يتحدث الخبير النفطي الدولي بيار ترزيان عن دور الناصرية الحاسم في تأسيس الاونيك في كتابه الشهير "الدهش في تاريخ الاونيك" صدر مترجما عن دار الحداثة في بيروت عام 1991.

بمناورته ويرغبون في دفعه أكثر فأكثر نحو الحرب.

4. في إسرائيل كان الجيش يضغط باتجاه الحرب فيما الحكومة تنتظر الضوء الأخضر الأميركي. كان لدى واشنطن دوافع كبيرة لوضع حد للظاهرة الناصرية التي تشكل كابوساً حقيقياً يخيم على مصالحها وعلى حلفائها في المنطقة. والراجح أنها كانت راغبة في حمل عبد الناصر على التراجع المهين عن الخطوات التي اتخذها، وبالتالي مواجهة منافسة حادة على السلطة مع كتلة عبد الحكيم عامر العسكرية وخسارة الشارع العربي الذي ما برحت وسائل الإعلام المصرية تعدّه بتدمير إسرائيل وما يعنيه ذلك من نصر سياسي إسرائيلي مدو أو خوض حرب تنطوي على هزيمة عسكرية محققة.

دعت واشنطن إلى إشراف دولي على طرق الملاحاة في المضائق بيد أنها فشلت في مجلس الأمن بسبب تدخل السوفييت الذين حالوا أيضاً دون صدور قرار أممي بمعاقبة مصر. مع تعثر الحل السياسي باتت الحرب حتمية وبات زمام المبادرة في قبضة الإسرائيليين الذين كانوا واثقين تماماً إن الولايات المتحدة لن تكون محرّجة أمام العالم إذا ما بدأ الإسرائيليون الحرب، طالما أن محاولات ثني ناصر على العودة عن قرار إغلاق المضائق قد باءت بالفشل وتفيد المصادر الإسرائيلية أن واشنطن وافقت ضمناً على الضربة الإسرائيلية الأولى⁽⁵⁾.

(5) شاعت إثر الحرب تحليلات إستصغارية حول العرب تقول إن إسرائيل دولة الثلاثة ملايين نسمة قهرت العالم العربي المؤلف من 200 مليون نسمة و22 دولة. ترمي هذه التحليلات إلى تعظيم إسرائيل فالصحيح أن سبع دول عربية كانت مازالت غير مستقلة بعد وهي قطر (1971) الإمارات (1971) البحرين (1971) جيبوتي (1977) الصومال (1974) وجنوب اليمن (نوفمبر 1967) ودولتان لم تنضمّا إلى الجامعة العربية هي عمان مستقلة منذ العام 1950 ولم تنضم للجامعة إلا في العام 1971 وموريتانيا مستقلة منذ العام 1960 ولم تنضم للجامعة إلا في العام 1973 وجزر القمر استقلت عام (1975) وانضمت للجامعة عام (1993) ولم يكن قد مضى بعد على استقلال أربع دول عربية إلا بضعة سنوات فقط وهي الكويت عام (1961) الجزائر (1962) السودان (1956) تونس (1958) المغرب (1956) ليبيا (1951). انسحبت القواعد العسكرية الإيطالية والأميركية منها في العام (1970).

كانت الدول المستقلة الوحيدة في حينه هي مصر (1922) استقلال شكلي حتى العام 1952 لكن الجلاء البريطاني تم عام (1956) وسوريا عام (1946) ولبنان عام (1946) والسعودية (1932) والعراق (1932) والأردن عام (1946).

5. في السياق نفسه يبدو أن السوفييت كانوا يجذبون قائداً مصرياً يحتاج إليهم أكثر مما يحتاجون إليه. فقد كان ناصر يملك قدراً كبيراً من الاستقلالية ويلعب لحسابه الخاص ويحتفظ بطموح إمبراطوري عبر بناء الدولة العربية الكبرى. ولعل ذلك يفسر اعتراض الروس على الوحدة المصرية - السورية وتحذيرهم مصر من المبادرة إلى ضربة إستباقية في 27 أيار - مايو وعدم موافقتهم على إزالة إسرائيل وعدم قدرتهم على التحكم في السياسة الناصرية الهجومية، ما يعني أن موسكو وإن كانت لا تتمنى الهزيمة لناصر إلا أنها ربما كانت تشعر بارتياح أكثر لناصر يحتاج إليها تماماً أكثر من ناصر تحتاج إليه تماماً ولعل ذلك يفسر أيضاً انضباط ناصر في الإيقاع السياسي الروسي بعد الهزيمة وصولاً إلى موافقته على مشروع روجرز واستعداده للتخلي عن السياسة الهجومية المصرية في العالم العربي ومن أبرز مظاهرها المصالحة مع السعودية وسحب الجيش المصري من اليمن.

5. وسط هذه الظروف كان من الصعب الرهان بصورة جدية على الفوز في الحرب ويلاحظ ذلك من خلال أسئلة ناصر المتكررة للقيادة العسكرية، ليس عن قدرة الجيش المصري على تدمير إسرائيل، وإنما عن مدى صموده في حالة حرب معها. بكلام آخر كان ناصر يراهن على المناورة السياسية للخروج من الأزمة عبر الصمود في الحرب وليس كسبها وذلك أمر لا يمكن التحكم به لأنه يفترض انضباط الطرف الآخر في الحسابات المصرية في حين أن للطرف الآخر حساباته الخاصة في منطقة مصنفة كما أشرنا منطقة مصالح غربية استراتيجية.

6. أطاحت نتائج الحرب التي ظهرت في اليومين الأول والثاني بكل الحسابات السياسية لناصر والسوفييت وحررت الأميركيين من الضغوط الدولية وجعلت إسرائيل في موقع من يفرض شروطه المطلقة. لقد أدت الحرب إلى انكشاف استراتيجي مريع لم تحفف منه حركة الاصطفاف العربي المصطنع قبيل الخامس من حزيران: انتقال الدول العربية المناهضة لناصر إلى موقع المؤيد له أو المحارب معه (السعودية - الأردن) دون تنسيق ودون خيرة تذكر في خوض الحرب ودون عتاد ملائم. (أبادت إسرائيل وحدات عسكرية عراقية بسبب تصرفات

صبيانية من طرف المسؤولين العراقيين) ولم يكن بوسع ناصر الإفادة من دعم العرب المخلصين خصوصاً الجزائر التي جاء وزير خارجيتها عبد العزيز بوتفليقة بعرض بهذا الخصوص للرئيس المصري فور بروز ملامح الهزيمة ناهيك عن أن الجزائر نفسها لم تكن تشكل قوة عسكرية مهمة فقد نالت استقلالها منذ خمس سنوات فقط⁽⁶⁾.

7. لعب التنافس بين ناصر وعامر دوراً مهماً في توسيع حجم الهزيمة وليس في جوهر الصراع، يضاف إلى ذلك القرارات العسكرية السيئة التي اتخذت بعد الضربة الجوية الإسرائيلية والتي زادت من حجم الهزيمة ومن هولها. كما لعب الارتباك وركاكة التنسيق على الجبهات الأخرى دوراً مهماً في سقوط الضفة الغربية والجولان دون أن يكون هذا الدور جوهرياً ذلك أن الحرب كانت تخاض بقيادة مصرية وعندما ضربت القيادة المصرية باتت الأطراف الأخرى مكشوفة في مسرح عمليات مفتوح أمام آلة الحرب الإسرائيلية.

دروس الهزيمة

السؤال الكبير الذي طرحته الهزيمة ما زال مطروحاً مع الأسف حتى اليوم: هل ما أصابنا نكسة أم كارثة تضعنا على حدود نهاية المطاف؟ جاء رد الناصرية على السؤال سريعاً وربما بعد أيام من الهزيمة عبر القول: ما حصل نكسة يمكن تجاوزها. كل الشعوب تهزم لكنها تهيء نفسها لمعركة أخرى يمكن من خلالها محو آثار الهزيمة وبالتالي الانتصار مجدداً. وينسب وصف الهزيمة بـ "النكسة" لمحمد حسنين هيكل أحد أعمدة النظام الناصري قبل الحرب. كما ينسب للناصرين الذين أحاطوا بـ "الريس" ترتيب أسس هذا الوصف وأبرزها: سبب النكسة هو خروج جيش عبد الحكيم عامر عن السيطرة وضعف تأثير عبد الناصر في القرار العسكري ما يعني أن الهزيمة نتيجة منطقية لانحراف عامر وأدائه الركيك وسوء تدبيره للمعركة وانعدام كفاءته لا بل تأمره

(6) حول الموقف الإسرائيلي يمكن الإطلاع مع التحفظ واليقظة على كتاب الإسرائيلي مايكل أورين ستة أيام من الحرب. six days of war, Michael B. oren oxford, university press. new york

على الثورة والنظام الناصري. وجرى عرض أدوار "المشير" السلبية في المعارك الناصرية البارزة: حرب السويس. الوحدة المصرية السورية. حرب اليمن. إلى حرب حزيران. في حين يرى أنصار عامر - كانوا قلة في حينه ولا اثر لهم اليوم - يرى هؤلاء أن رفض ناصر الهجوم الجوي الإستباقي في 27 أيار - مايو عام 1967 على المطارات الإسرائيلية هو السبب في الهزيمة وأن ناصر وليس عامر مسؤول عما جرى. والحق أن هذا السجال هو من تداعيات الهزيمة وكان يراد منه تحرير الرئيس من مركز قوة في الجيش ما زال يتضخم ويهدد بالخروج عن السيطرة.

دافع القائلون بـ "النكسة" بقوة عن تصورهم وقالوا بضرورة الاستعداد مجددا للحرب. وبرهنوا من خلال معارك أكتوبر - تشرين الأول عام 1973 على صحة توقعاتهم انطلاقا من افتراض مفاده أن "يوم الغفران" لم ينبثق من فراغ بل ارتسمت معالمه تدريجيا منذ يوم التاسع من حزيران واعتبروا أن "نصر أكتوبر" محمّاة أكيدة لـ "هزيمة يونيو" وأن كبوة "الأيام الستة" ليست أكثر من عثرة في مسيرة مظفرة وبالتالي فإن الناصرية إيديولوجية راعية وصالحة للنصر في الصراع العربي - الإسرائيلي.

لا يسمع معارضو الناصرية القدماء والجدد خطاب حزيران الناصري من هذه الأذن، فهم يعتقدون أن هزيمة الأيام الستة كارثة تنطوي على أسباب عميقة وجوهرية موجودة في صلب النظام السياسي العربي عموماً والناصري بخاصة وذهب البعض الآخر إلى حد القول إن النظام الاجتماعي العربي أنجب الهزيمة وأن الفكر العربي برمته والديني بخاصة هزم في حزيران وأن النصر يحتاج إلى نظام سياسي واجتماعي وثقافي مختلف جذريا ويحمل في مضاعفاته فرص النصر الحقيقية.

وذهب البعض الثالث إلى القول إن السبب يكمن في العلمانية البعثية والناصرية وأن الله خذل العرب في يونيو لأنهم ابتعدوا عن شرعه، ويرى هؤلاء إن الإسلام يحمل وحده النصر المبين على اليهود وسائر الكافرين. وأخيرا اعتبر البعض الرابع إن الهزيمة نهاية المطاف لأنها بالضبط ناجمة عن ميزان قوى حضاري غير قابل

للتعديل، وإن الاعتراف بهذا الواقع يستدعي التفاوض مع الدولة العبرية بشروطها واعتبار الحق العربي في فلسطين حقاً نسبياً وإن كان مطلقاً من حيث المبدأ وبالتالي التفرغ للتنمية والتحديث والخضوع لشروط الهيمنة الغربية المطروحة على العرب⁽⁷⁾.

عمق انتصار العرب الجزئي في حرب أكتوبر - تشرين الأول عام 1973 الخلاف بين الطرفين حول أسباب ونتائج حرب حزيران - يوليو عام 1967. فبدلاً من أن يمحوا آثار الهزيمة جعلها مؤبدة في الذهن العربي وجعل إسرائيل قدراً لا راد له وصارت الهزيمة منطلقاً للنظر في أحوال العرب في شتى مناحيها مثال: القومية العربية انتهت مع الهزيمة. العمل العربي المشترك يقود إلى هزيمة جديدة لأنه يتمحور بالضرورة حول العداء لإسرائيل... إلخ. النفط العربي ليس سلاحاً ولن يكون سلاحاً في المعركة لأن شروط إنتاجه سياسية ومتصلة بموازين القوى الدولية وإسرائيل عنصر حاسم فيها. يجب أن تكف مصر عن سياسة الدوائر الناصرية العربية والإفريقية والإسلامية ويجب أن تنتهج سياسة خارجية متلائمة مع الغرب وغير مناهضة لمصالحه... إلخ.

ما من شك أن الولايات المتحدة وإسرائيل لم تكن تحلم بأن تعتبر مصر وبعض العرب إن ما حصل في حزيران نهاية المطاف، وإن دور الهزيمة التأديبي في العقل العربي فاق التوقعات خصوصاً أن ناصر أوحى قبل وفاته بأن سياسته الخارجية بعد حزيران لا تحمل المعنى السابق على الحرب. فكان أن دفع أنور السادات الابتعاد الناصري الغامض عن حلبة الصراعات العربية إلى الأقاصي وأخرج مصر من الصف العربي ومن الصراع العربي الإسرائيلي ولعل الحاصل من بعد يصب في الاتجاه نفسه. ما يعني أن الهزيمة كانت نهاية المطاف بالنسبة للسياسة الخارجية المصرية فهل تتحمل الهزيمة خيار نهاية المطاف؟

(7) حول فرضية نهاية المطاف راجع حازم صاغية وصالح بشير في "تصدع المشرق العربي" دار رياض نجيب الريس للنشر بيروت 2004 وصاغية منفرداً في "دفاعاً عن السلام" دار النهار. بيروت 1998 ورد فيصل جلول في "دفاعاً عن السلام العربي" المؤسسة العربية للنشر. بيروت - عمان 1999 ومن المفيد في هذا الصدد مراجعة الكاتب الإسرائيلي عمانويل سيفان بالفرنسية في

يصف جان لاكوتير هزيمة حزيران بـ "سيدان" العرب ويدي إعجابه ببراعة ناصر في الخروج منها ويرى أن أحدا غيره لم يكن قادرا على الخروج سالما من هذه الكارثة ويدرك لاكوتير تماماً عمق ما يقول لأن معركة "سيدان" محطة حاسمة في تاريخ فرنسا السياسي الحديث. فلنر إذن كيف خرجت فرنسا من كارثة سيدان التي تشبه مرة أخرى كارثة حزيران لا بل تتعدها. (راجع رؤية لاكوتير للناصرية في الباب الخامس من الكتاب)

معركة سيدان: نكسة أم هزيمة ماحقة؟

في العام 1870 استدرجت ألمانيا فرنسا لإعلان الحرب. وبالفعل أعلن الإمبراطور نابليون الثالث الحرب ورافق بنفسه الجيش الفرنسي الخامس إلى مدينة سيدان الواقعة على بعد كلمترات من الحدود البلجيكية، لملاقاة الجيش البروسي الذي يقوده بيسمارك. في الأول من أيلول - سبتمبر شعر الإمبراطور الفرنسي أن الحرب تدور لمصلحة ألمانيا بعد معارك فاشلة خاضتها قوات فرنسية على طول الحدود. قرر أن يسحب جيشه المؤلف من 170 ألف رجل نحو باريس للدفاع عنها غير أن زوجته الإمبراطورة أوجيني الوصية على العرش في غيابه قررت العكس وطلبت من الجيش الذي يقوده الجنرال "دو مكماهون" أن يقاتل دفاعاً عن فرق عسكرية فرنسية محاصرة. لم يكن لديه الوقت الكافي لكي يقوم بهذه المهمة، إذ جرح في السادسة من صباح الأول من سبتمبر خلال معركة عسكرية وتولى قيادة الجيش الجنرال ديكرود الذي أدرك أن الجيوش الألمانية في سبيلها لحصار الجيش الفرنسي فأعطى أوامره بان يتجمع الجيش استعداداً للانسحاب شمالاً نحو مدينة ميزيير الفرنسية. لكن في العاشرة صباحاً تغيرت قيادة الجيش مرة أخرى إذ تسلمها الجنرال دو ومففين الذي عاد من إفريقيا في اليوم السابق ووصل إلى سيدان ومعه قرار من وزير الدفاع بتعيينه قائداً للجيش الخامس الذي يشرف عليه الإمبراطور. فور تسلمه منصبه ألغى قرار الانسحاب شمالاً ووضع مخططاً جديداً ينص على انسحاب باتجاه الشرق لكن الألمان شددوا حصارهم على الفرنسيين خلال ساعات مهددين بإبادتهم.

في هذا الوقت قرر نابليون الثالث الاستسلام مخالفاً رأي عدد من جنرالاته ورفع الراية البيضاء على سارية إحدى الكنائس فلم تستمر حربه أكثر من يومين. تم أسره وجيشه على يد بيسمارك ووقع وثيقة استسلام مهينة. ثم اقتيد إلى ألمانيا عبر بلجيكا. بعد يومين خلع النظام الإمبراطوري في باريس وأعلنت الجمهورية الثالثة. علم بونابرت بقرار خلعه من الصحف البلجيكية. حصل على إذن ألماني بالسفر إلى بريطانيا ليلتحق بزوجته وبابنه. وبعد ثلاث سنوات سيموت في لندن اثر عملية جراحية لاستئصال حصوة في الكلية. أما ألمانيا فقد اقتطعت الألزاس وقسم كبير من اللورين. ولن ترجع هذه الأراضي إلى فرنسا إلا في العام 1918. ولعل الحدث الأبرز بعد الهزيمة هو إعلان الوحدة الألمانية في قصر فرساي الفرنسي وتلك هزيمة تفوق أضعافا مضاعفة هزيمة سيدان العسكرية⁽⁸⁾.

ما من شك أن الهزيمة المصرية كانت مشرفة بالقياس إلى الهزيمة الفرنسية ذلك أن مجمل الخسائر المصرية لم يتعدى الثلاثين ألفاً بين شهيد وجريح وأسير، ولم يوقع عبد الناصر وثيقة استسلام ولن يتأخر الجيش المصري في خوض حرب ناجحة في العام 1973 لاسترداد أرضه. وبخلاف مصر استمر الفرنسيون في التحضير للحرب حوالى أربعين سنة إلى أن استردوا الألزاس واللورين في الحرب العالمية الأولى. أما في مصر فقد قرر الرئيس أنور السادات استعادة سيناء مقابل الخروج من الصراع العربي - الإسرائيلي وارتضى أن تكون الأراضي المسترجعة شبه منزوعة من السلاح وكل ذلك لا يتناسب مع حجم الهزيمة المصرية عام 1967 ولا يتناسب مع النصر العسكري الأولي في العام 1973 ما يعني إن إسرائيل التي رجحت في حزيران حرباً فاقت تصورها وحساباتها نجحت في فيما اخفق به الألمان في سيدان أي جعل الهزيمة العسكرية في العقل المصري حجة على نهاية المطاف في الصراع العربي - الإسرائيلي تقزيم السياسة الخارجية المصرية وحصرها في حدود ضيقة لا تحترق سقف السياسة الخارجية الأميركية في العالم العربي والإسلامي وأفريقيا.

(8) ملخص جزئي لرواية أحداث تلك الحرب. يمكن العثور على تفاصيل معركة سيدان ونتائجها في أي من كتب التاريخ الفرنسية الكلاسيكية.

خلال المرحلة التحضيرية لاستعادة الالزاس واللورين كان السياسي الفرنسي الاشتراكي الشهير جان جوريس يقول لمواطنيه لا تتحدثوا عن المقاطعتين لكن لا تنسوا التفكير بها لحظة واحدة. فالهزيمة لا تكون كاملة إلا إذا حولها المهزوم إلى قدر لا مناص من الخضوع لأحكامه.

في شهادته على الهزيمة في القاهرة في الثامن من حزيران - يونيو عام 1967 يصف الصحفي الفرنسي - اليهودي - والمصري الأصل اريك رولو مشاعر المصريين الذين غضبوا لدى موافقة بلادهم على قرار وقف النار بعد مضي ثلاثة أيام على بدء الحرب. هؤلاء أنفسهم سيحملون جمال عبد الناصر على الرجوع عن استقالته في التاسع والعاشر من حزيران وبالتالي مواصلة القتال الذي اتخذ شكل حرب استنزاف ستؤدي في نهايتها إلى رحيل الرئيس بعد مضي ثلاثة أعوام على الهزيمة تماماً كما هي حال نابليون الثالث. فإلى شهادة رولو.

حرب الأيام الستة انهيار الجيش المصري

أريك رولو

لم تغرق العاصمة المصرية في أي يوم مضى في ظلام شامل كما تغرق هذه الليلة. ولم تكن في أي يوم مضى مسحوقة بمثل هذا القدر من الصمت المطبق فيما الساعة لا تتعدى العاشرة والنصف. تبدو القاهرة في هذا المساء من يوم الخميس الثامن من حزيران - يونيو وكأنها مدينة ميتة. التزم السكان بيوهم مرعوبين مع أن الحوار المشؤوم لصفارات الإنذار لم يلعلع ولم تنبح الكلاب منذرة بالموت. حتى السيارات القليلة ذات الأضواء المطلية باللون الأزرق التي كانت عشية أمس تجوب الشوارع ظلت بلا حراك. الجميع كان ينتظر غارة إسرائيلية شاملة. لكن ما حصل هو شيء آخر تماماً حملة "فلاش" مؤلف من بضعة كلمات وردت على الطابعة البرقية وكان لها وقع القنبلة المدوية على الجميع: "مصر توافق على وقف إطلاق النار"

كان الصحفيون المصريون في قاعات التحرير، مرتابين، مذهولين، ساخطين، أو مستسلمين. ذلك أن البرقيات المتتالية كانت قاطعة: وافقت حكومتهم ولأسباب مجهولة بعد، أن تلقي السلاح بلا شروط. "لماذا؟ لماذا؟" كان السؤال يتردد في كل مكان. فالأخبار الواردة من جبهة سيناء طيلة النهار كانت مشجعة. الجيش المصري انتقل إلى الهجوم المضاد. وحدة إسرائيلية أيدت. الطيران أو ما تبقى منه اشتبك مع طائرات تابعة للدولة العبرية وبعضها سقط. وعلى الجبهة الداخلية بدأ تنظيم المقاومة الشعبية ومعنويات الناس لم تكن مرتفعة كما هي اليوم: كان القادة يبدون وكأنهم مصممون على المقاومة حتى النهاية. لم يسر أحد نواب رئيس الوزراء لأصدقائه الخالص قبل قليل إن "الإملاء الأميركي - الإسرائيلي سيرفض بالازدراء الذي يستحقه؟". ألم يكن يردد بإصرار إن الحرب لا تربح ولا تخسر خلال

48 ساعة؟

لم تنشر وكالة أنباء الشرق الأوسط ولم ييث راديو القاهرة النبأ بعد أكثر من

ساعتين على إعلانه في نيويورك. لذا كانت الطروحات المذكورة جذابة إلى حد أنها احتوت اليأس، لكنها سرعان ما انهارت خلال محادثة هاتفية مع أحد المسؤولين. كان هذا الشخص في العادة مقتصدا في كلامه لكنه أكد فوراً نبأ وقف النار قبل أن يسترسل في كلام مستفيض تحت وقع الإعياء المؤكد.

أم كلثوم في الراديو

قال المسؤول "لم يعد بوسعنا أن نقاتل العظماء وحدنا. لقد ظهر لنا بوضوح من خلال هذه التجربة الأليمة إن العالم منقسم إلى معسكرين: القوى العظمى من جهة والبلدان الصغيرة من جهة أخرى. إن مواصلة النضال ضمن هذه الشروط كان سيقودنا إلى انتحار جماعي. بعد ظهر هذا اليوم كان جيشنا في سبيله لأن يحقق نصراً كبيراً. لقد تمكن بعد معارك محتدمة من قهر 40 ألف جندي إسرائيلي وحاصروهم عملياً. ثم ظهرت فجأة 300 طائرة ميراج إسرائيلية في السماء واندفعت تقصف وحدتنا البرية في موجات متتالية فأبادتها بلا شفقة. لقد طويت الصفحة من الآن فصاعداً. ابتداء من الغد سنخوض معركة جديدة بالأسلحة التي مازالت بحوزتنا: قناة السويس والنفط"

إنها الساعة الواحدة والنصف ليلاً بالتوقيت المحلي. في الراديو المغنية أم كلثوم تشرع بالقسم الأخير من آهاتها سوى أن معبودة الجماهير العربية كانت في هذه اللحظة وحيدة بصورة مأساوية. كان صوتها الحار الذي يلهب الجماهير عادة مبدداً في ظلام هذه الليلة العاصفة. لا حركة حتى الآن من طرف السكان ولكن خلف الشبايك المغلقة كان الرجال والنساء الذين يعيشون أقصى حالات التوتر ينتظرون نشرة الأخبار.

"التلفون العربي" يعمل بصورة مذهشة. لذا كان عدد كبير من القاهريين على علم مسبق إن خبيراً مصرياً سيعلن. مذيع راديو القاهرة يقرأ بصوت رتيب مختصرات إخبارية غير مترابطة ظاهرياً ولكنها تقود إلى خاتمة محتومة. أعلن إن ناصر بعث هذا المساء برسائل إلى عدد من رؤساء الدول الصديقة. ثم استقبل السفير السوفيتي. وفي مجلس الأمن تقدمت الولايات المتحدة بمشروع قرار قبل أن

يقدم السوفييت مشروعاتهم. أخيراً انقطع جبل الانتظار. والترقب بعد أن أعلن المذيع إن مصر وافقت على وقف إطلاق النار.

أذيع النبأ عرضاً قبل قراءة البيانات العسكرية الصادرة نهاراً والتي تحدثت بمحاربة عن "نجاحات" الجيش المصري. لم يقدم أي تفسير لهذا القرار الذي أصاب المصريين بالذهول. كان عليهم أن ينتظروا إلى ما بعد ظهر يوم الجمعة لكي يستمعوا من رئيسهم إلى الأسباب التي حملته على اتخاذ قرار متناقض مع قراراته السابقة.

خلال هذا الوقت انتشرت التخمينات على نطاق واسع في قاعات التحرير المحمومة. لم يكن أحد قادراً على الرد عن سؤالين أساسيين: لماذا قرر الرئيس عبد الناصر أن يتخلى فجأة عن النضال العسكري لماذا خذل السوفييت مصر؟ إن نكسة الجيش المصري لا تشكل بنظر بعض المراقبين سبباً كافياً لهذا الاستسلام المزدوج الذي يرتب نتائج كبيرة على مستقبل النظام وعلى مكانة الاتحاد السوفيتي في المنطقة.

بالفعل تمتلك موسكو والقاهرة في اللعبة أوراقاً فعالة تضاهي الانتصار العسكري. إن الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية للعالم العربي الموحد والمصمم على مقاومة شرسة يمكن أن تشكل وسيلة ضغط معتبرة. لذا فإن القول بمشاركة الأسطول السادس - بحسب الصحافة القاهرية - والطيران الأنجلو - أميركي في المعارك الدائرة يوم الخميس يمكن ألا يكون كافياً لتبديد المرارة العميقة للهزيمة.

الجمعة فجراً. اختفت من العاصمة الياфطات والشعارات التي تعبر عن إرادة دحر الإمبريالية والصهيونية. كان المصريون يتصفحون العناوين الكبرى للصحف التي تعلن عن وقف النار وبعضهم يرسل شتائم لم تكن كلها موجهة للعدو.

الباب الخامس

سيرة الرئيس

عبد الناصر: الأمل العربي

بقلم: جان لاکوتير

كانت مصر منهكة لزمان هو الأطول في التاريخ، مكبله بأحاييل القوى العظمى، غرق شعبها في سبات طويل وحيل دون أن يتولى مسؤولية بلده، هكذا كانت تبدو في العام 1918 وكأنها أصيبت بنوع من الموت المدني. فرضت عليها بريطانيا الغارقة في الحرب الأولى ومنذ ثلاث سنوات نظام حماية مكروه ليحل محل أحابيل "السلطة غير المباشرة" واللورد كرامر⁽¹⁾، فرضت عليها نظاما كولونياليا

(1) السير افلين بارينغ المعروف بـ اللورد كرومر هو القنصل العام لبريطانيا في مصر من سنة 1883 إلى سنة 1907. تفيد سيرته بأنه كان سيد مصر الفعلي في تلك الفترة. كانت السلطة التنفيذية بيده بما في ذلك الخديسوي والوزراء. لا يتخذ قرار أساسي في مصر من دون علمه. لا يصرف بند في الميزانية إلا بعد موافقته. لم يكن يصدر أوامر فجأة بل يقرر بالإجماع وإدعاء النصح. أعاد تركيب الجيش المصري بما يخدم حكومة بلاده وطور الري وشجع زراعة القطن التي كانت تحتاجها صناعات النسيج في بلاده. لا يتردد عند الحاجة بإهانة الشخصيات العامة المصرية. كل ذلك رسخه في قواعد لسلطة بريطانية غير مباشرة في مصر التي احتلها الجيش البريطاني عام 1882 لكنها لم تصبح تحت الانتداب المباشر إلا في العام 1914. لم يكن اللورد كرومر يجذ تأهيل دبلوماسيين مصريين معتبرا أن هؤلاء يمكن أن يصبحوا نصف غربيين وان ينضموا إلى التيار الوطني المناهض للكولونيالية، كما أنه كان يهمل دعوات إصلاح أوضاع المرأة. كان يؤكد أن الإسلام غير قابل للإصلاح على الطريقة الغربية. ويعتبر أن إدارة مصر يجب أن توكل للأقباط إن لم تكن بيد الأوروبيين. يتضح ذلك بدقة في خطاب افتتاحي ألقاه في المدرسة الفيكتورية في الإسكندرية إذ يقول: "... في هذه المدرسة 196 طالبا بينهم 96 مسيحي و67 يهودي و33 مسلم. وإذا أحصينا الجنسيات نجد بينهم مصريين وأتراكا وأرمن وسوريين ومالطيين ويونانيين وأسبانيا وفرنسيين وسويسريين وبلجيكيين وإيطاليين وفي ذلك تكثيف للتنوع القائم في المجتمع المصري. أمل أن يساهم هذا الخليط في وئام القوميات وأملى هو أن يعي الناس الذين يتعلمون هنا كما الأوروبيين في هذا البلد بأنهم أبطال الحضارة الغربية لهذا السبب ولأسباب أخرى أحيى إنشاء هذه المدرسة"

أعلن رسميا عن استقالة كرومر من منصبه لأسباب صحية ويرجح أن يكون السبب مرتبطا بحادث خطير وقع في قرية دنشواي في الدلتا المصرية عام 1906 حيث كان خمسة من الضباط البريطانيين يصطادون الحمام. رشقهم الفلاحون بالحجارة فردوا بإحراق منزل في القرية وتوفي أحدهم بالسكتة القلبية الأمر الذي أدى إلى محاكمة أربعة من المزارعين وإعدامهم والحكم بالسجن 15 عاما على آخرين ما أدى إلى إشعال موجة اضطرابات وطنية وصلت أصدائها إلى بريطانيا حيث قال جورج برنارد شو معلقاً على الحادث تخيلوا لو أن ضباطا صينيين يصطادون

صرفاً. لكن الحرب لعبت دورها التقليدي كمولدة للثورات. قبل ذلك كانت قد بدأت تترسخ في أعماق البلاد حركة ليبرالية وطنية ستطلق على نفسها في نهاية السنة المذكورة اسم "الوفد" سوف تحرك خلال ثلاثين سنة الجسم الأساسي لمصر النيلية. وفي اللحظة التي كان فيها سعد زغلول يحضر للانتفاضة التي ستنتزع مصر من المكتب الكولونيالي البريطاني، ولد في الإسكندرية في 15 يناير عام 1918 الأبْن الأول لموظف بريد مصري يدعى عبد الناصر حسين. (بعد أربعين سنة سيتظاهر الطلاب في القاهرة ضد النظام العسكري وسيسمونه نظام ابن البوسطجي).

كان ناصر من أصل اجتماعي معتبر، ذلك أن البوسطجي هو ابن فلاح من قرية بني مر الواقعة في أعالي النيل بالقرب من أسيوط في قلب الصعيد في وادي النيل الأعلى الذي أعطى هذا البلد أبناءه الأكثر تصميمًا واضطرابًا. هكذا هم أسلاف الرئيس أولئك الفلاحين ذوي الأقدام الحمرة من ماء أقيّة الري الموحلة هم المزارعون الأكثر مزارعة على وجه الكرة الأرضية وأولئك الموظفين الصغار المجذوبين نحو المدن في مجتمع على طريق التحديث.

في مدرسة "النهضة"

كان يمكن لجمال عبد الناصر أن يظل حبيس قريته زمنا طويلا كما غيره من المصريين الكبار من أمثال سعد زغلول أو طه حسين ولكن مهنة والده ستقله من منطقة إلى أخرى. إلى الإسكندرية حيث ولد وحيث كان بوسعه أن يشعر وهو تلميذ باستلاب بلده الكامل ذلك أن هذه المدينة المتوسطة الكبيرة مكرسة للكوسموبوليتية التي يصفها داريل⁽²⁾ جيدا في رواياته. بعد الإسكندرية تبع والده إلى الخطاطبة في الدلتا وهي قرية شديدة الفقر و"منسية من الله" إلى حد أنه لا توجد فيها مدرسة ابتدائية.

الحبش في الريف البريطاني فماذا سيكون رد فعلنا غير ما فعله المصريون في الدلتا؟ استقال كرومر بعد الضجة في بريطانيا وتوفي في العام 1917 بعد أن جمع ثروة طائلة.

(2) لسورانس داريل كاتب إيرلندي (1912 - 1990) عاش في الإسكندرية في الثلاثينات واهتم بطابعها الكوسموبوليتي وعرف من بعد بروايته الشهيرة والضحمة "رباعية الإسكندرية".

في الثامنة من عمره وبعيد وفاة والدته التي طبعت به بصورة حاسمة، عهد به والده إلى عمه خليل وهو أيضاً موظف صغير ولكنه أكثر انشداداً إلى السياسة من أخيه عبد الناصر حسين، فاستقر جمال في مدرسة النحاسين - أحد مراكز الوطنية المصرية - وهي واقعة في محيط الأزهر في الحي الأكثر حيوية والأهم موقعاً في القاهرة: انه حي الجامعة الإسلامية وخان الخليلي حيث تختلط التجارة مع الإيمان الديني.

كان عمره 15 عاماً عندما عين والده مجدداً في القاهرة عام 1933 فأقام في الحي الشعبي كورونفيس الحاط بالزوارب الحاشدة في باب شرقية: هنا اكتسب جمال الذي دخل مدرسة "النهضة" تجربة شعبية وطنية. هنا برنامج كامل سيتبعه الفتى جمال الذي كان يتمتع أصلاً بحبوية وبقدرة على النقاش شديدة الاضطرام وباستعداد لمواجهة السلطة إذ سوف يتلقى خلال إحدى عطله في الإسكندرية أول ضربة نبوت من أحد رجال شرطة "راسل باشا"⁽³⁾ خلال مظاهرة شهدتها المدينة ضد البريطانيين. وهو لن يتأخر في البحث عن تنظيم يندمج فيه لكي يناضل بصورة أفضل. في العام 1934 تقاعد صدقي باشا، رجل الدولة المحافظ والوحيد الذي كان قادراً على اعتراض الاندفاع المصرية التحررية الأمر الذي أعطى دفعا للشبيبة المصرية وحزب الوفد.

سيد أن حزب زغلول والنحاس الكبير كان يمثل أصلاً في نظر جمال حزب القدماء لذا جذبته الحزب "الاشتراكي" بزعامة أحمد حسين الذي كان يحمل مناضلي مصر الفتاة على ارتداء القمصان الخضراء. فهل انتسب جمال إلى هذه الرابطة ذي الميول الفاشية؟ من المؤكد انه ظل مخلصاً لبعض قادتها حيث سجد رجال مثل فتحي رضوان ونور الدين طراف في الصف الأول بين قادة نظام العام 1952. والظاهر انه خاض تجربة في هذا الحزب أكثر من تقدم ولاء الطاعة له.

وتصف وثيقة مؤرخة في العام 1935 بطريقة أخاذة شخصية هذا المراهق المتمرد الذي سيتحول إلى ثوري. الوثيقة عبارة عن رسالة كتبها إلى صديقه حسن النشار وفيها يؤكد "يقولون إن المصري جبان وبأنه يخاف من أدنى جلبة. في الواقع هو بحاجة إلى زعيم يقوده في النضال من أجل بلده. هكذا يصير المصري صاعقة

(3) اللواء راسل باشا كان حاكماً عسكرياً بريطانياً للقاهرة وقائداً للشرطة المصرية.

يمكنها أن تزلزل بنيان الاضطهاد (...). لقد قلنا أكثر من مرة إننا سنعمل معاً من أجل إيقاظ الأمة من سباتها، (...). من أجل هذا سأنتظرك يا عزيزي عندي في الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم 4 سبتمبر عام 1935 لنقاش هذه القضية". يلاحظ من هذه الرسالة أن حلمه الملحمي لا يطغى على حسه التنظيمي: هذه الرسالة هي باكورة صارخة لريس العام 1970.

جمال لا يكفي بإثارة الحمية الوطنية لدى الآخرين: لقد أصيب في 12 نوفمبر 1935 برصاصة في جبهته عندما كان يقود مظاهرة أمام بيت الشعب وهو المقر السابق لسعد زغلول. وعندما وقعت مصر مع لندن اتفاقية عام 1936 وهي وثيقة استقلال مرجو ولكنه ما زال بعد مقيداً بالتحالف مع بريطانيا، في هذه المناسبة قام الشاب عبد الناصر بتنظيم وقيادة مظاهرات ضد تسوية كانت تبدو له مخزية.

ضباط الصف في معسكر منقباد

في الثامنة عشرة من عمره كان عليه اختيار مهنة فأيهما يختار؟ بدأ دراسة الحقوق لكن دون الكثير من النجاح. في هذا الوقت حدثه رفاقه عن الجيش. حينذاك أحدثت حكومة الوفد ثورة عندما فتحت أبواب الأكاديمية العسكرية لأبناء الفلاحين والموظفين الصغار وكان يتوجب الاندفاع من هذه الثغرة المفتوحة. بالطبع كان الجيش المصري حينذاك أشبه بناد للبولو⁽⁴⁾ معطوفاً على حلقة من الضباط البدن: الكرامة كانت تقاس بعرض الخصر ولكن الشبان المسيسين والطامحين كجمال ورفاقه سيغيرون ذلك كله.

هو ذا في الأكاديمية العسكرية في العام 1937 يحصل بسرعة على رتبة

(4) نادي البولو ينسبه الكاتب إلى لعبة البولو وهي رياضة قديمة كانت معروفة قبل آلاف السنين في فارس والصين ثم الهند واليابان وتعلمها البريطانيون خلال استعمارهم لبلاد البنغال ووضعوا قواعدها في القرن الثامن عشر. وتقضي شروط اللعبة بأن يتبارى ثمانية فرسان في جهتي ملعب بطول حوالي 300 متر على ملاحقة كرة كبيرة بمضارب خشبية وتصويبها في هدف الخصم الذي يشبه هدف كرة القدم لكنه أصغر حجماً منه ويقال بأن كلمة بولو يعود أصلها إلى التيبه وهي تعني الكرة. والظاهر اليوم أن هذه اللعبة شائعة في بريطانيا أكثر من أي مكان آخر في العالم.

ملازم أول. في العام 1938 سيكون ترتيبه الأول في معسكر منقباد في أعالي مصر في مكان غير بعيد عن "بني مر" مسقط رأس عائلته. هناك تعرف على رفيقين سيلعبان الدور الأكثر أهمية في مساره: زكريا محي الدين (سيعينه في 9 حزيران - يونيو من العام 1967 خليفة له في كتاب استقالته) وأنور السادات نائب الرئيس الحالي وقد أخبرنا ذات يوم انه في هذه الثكنة اقسام مع رفيقيه للمرة الأولى على "تحرير مصر".

بعد ذلك سينقل ناصر إلى السودان (كان في حينه تحت الوصاية المصرية البريطانية). هنا سيجد احد رفاقه في الأكاديمية العسكرية والذي سيصبح صديقه الحميم وظله الوفي وعرابا لابنه قبل أن يسقط في "مؤامرة" غريبة: انه عبد الحكيم عامر.

غواية المحور

ها قد اندلعت الحرب العالمية الثانية وفيها كانت مصر "الحليف الدائم" لالمتحار. قلة هم المصريون الذين كانت لديهم رؤية تاريخية كافية للوضوح ليعتبروا أنه في هذا الظرف يكمن طريق الحرية. كثيرون رأوا في المحور ليس المثال الأعلى لكن القوة القادرة على تحطيم العدو البريطاني. ذلك كان تفكير معظم الضباط الشبان ومن بينهم عدد من رفاق ناصر المقبلين (حسن إبراهيم، حسن صبري) وقد اعتقلوا خلال محاولتهم الاتصال برومل بطلب من المارشال العجوز عزيز المصري الموالي لتركيا.

جمال المتزن باكرا قياسا بالآخرين يبدو أنه نأى عن هذه المغامرة، ولكنه شارك في السخط العام في 4 شباط - فبراير عام 1942 عندما أرسل المندوب السامي البريطاني العام آلياته لإجبار الملك فاروق على تعيين وزارة وفدية. لقد أدركت قيادات الحزب الكبير (لم تتبعهم قواعدهم) أن عليها التعاون مع لندن ضد المحور وقبلوا بالتالي أن يفرضوا على الملك بواسطة الأسلحة البريطانية. جمال لم يتبعهم هذه المرة فهو كان يؤيد جنرالا شابا قدم استقالته إلى الملك فاروق: انه محمد نجيب الذي لم يكن معروفا في ذلك الحين.

عين النقيب جمال عبد الناصر مدرسا في المدرسة الحربية في العباسية. في هذا الوقت تعرف إلى قاض ماركسي شاب هو احمد فؤاد سيوثر تأثيرا كبيرا على تطوره الفكري. وفي هذا الوقت أيضا بدأ يجمع من حوله عدداً من الرفاق: لم يكن الأمر متصلاً بالمجموعة السرية التي ستتولي على السلطة في تموز - يوليو من العام 1952 ولكنها مجموعة تضم رجالاً مثل ثروت عكاشة وصلاح سالم وخالد محي الدين ورفيق معسكر منقباد أنور السادات الذي أقام صلات مع الإخوان المسلمين - الأخوية المتشددة - والذي سيتعاطى قليلاً من الإرهاب. هكذا انطلقت الحركة (الانقلابية).

نصف حرب في فلسطين

كان لا بد من حرب أخرى أيضاً لتوليد الثورة. في 15 أيار - مايو عام 1948 أعلن عن قيام دولة إسرائيل. في اليوم نفسه دخلت الدول العربية الحرب ضدها. أو على الأقل قيل إنها دخلت الحرب. لدينا رواية مفيدة للغاية عن حرب فلسطين كتبها جمال عبد الناصر وهي منشورة في مجلة آخر ساعة في آذار - مارس عام 1955. يبدو فيها المقدم الشاب تارة مناضلاً متحمساً للقضية الفلسطينية وتارة أخرى يشعر بالمرارة والارتياح تجاه الحلفاء العرب وتارة ثالثة يشعر بالخيبة من الجيش المصري وبالمرارة أكثر فأكثر من سلوك قيادة هذا الجيش وإهمالها لقطاعاته. بعد ثلاثة أشهر من الحرب جرح في صدره. وبالكاد شفي من جرحه حتى وجد نفسه محاصراً في جيب الفالوجا الشهير حيث برهن مع مئات من الرجال والضباط بقيادة العقيد طه القائد الأسود البشرية والمعروف باستبساله برهن إن المصريين يجيدون أيضاً القتال.

خلال مفاوضات الهدنة في حزيران - يونيو تعرف إلى ضابط إسرائيلي هو الكابتن كوهين والذي سينقل رواية حيوية وزاهية عن كيف كان المقدم ناصر يسأله بحماسة عن مناهج قتال الهاغاناه وعن النجاحات التي حققتها المنظمات اليهودية ضد البريطانيين. ولم يخف ناصر أيضاً من جانبه في كتابه "فلسفة الثورة" الانطباع الإيجابي الذي خلفه لديه الضابط المذكور.

في مصر حيث المعركة الحقيقية

عاد الضباط المصريون إلى القاهرة مهزومين ومكلومين يغلي في داخلهم غضب ضد الملك ونظامه أكثر من العدو. لقد روى ناصر أن العقيد عبد العزيز الذي يكن له أكثر الإعجاب مات بين يديه خلال الحرب وقبل أن يموت همس في أذنه: "جمال. المعركة الحقيقية ليست هنا إنما في مصر". في مصر؟ هكذا بدأ النضال الفعلي ضد السلطة وتنظيم "جماعة الضباط الأحرار" الذي سيكون أداة الانتفاضة المسلحة. ولكن ناصر لم يكتفي بإقامة عصبة انقلابية في الجيش بل قاد حملة ضد "الأسلحة الفاسدة" التي تسببت بالهزيمة والتي اتهم بشرائها المحيطون مباشرة بالملك.

في هذا الوقت أيضاً سيبحت ناصر بخاصة عن حلفاء جدد وأفكار أخرى للمعركة. كي يتصل بالإخوان المسلمين كان الوسيط صديقه أنور السادات وطياراً متهوراً يدعى عبد الرؤوف. مع الحركات الماركسية وبخاصة منظمة "حد تو" المصرية أقام علاقات بواسطة أصدقائه التقدميين خالد محيي الدين ويوسف صديق أو أحمد حمروش. من جهة الوفد كان لديه صديق عزيز هو أحمد أبو الفتح نقيب الصحافة وصهر المخلص له ثروت عكاشة.

كان عليه أن يبحث عن "مدير" للحركة التي يشكلها والتي لم يكن يتوقع اتساعها بعد. ذلك أنه في مجتمع كالمجتمع المصري لم يكن لمجموعة من الصبية العسكريين ذوي الثلاثين عاماً أن توحى بالثقة. لذا اتصل بعدد من الشخصيات العسكرية من بينها المشير عزيز المصري الذي يشبه بيرنارد شو⁽⁵⁾ لكن في ثياب عسكرية ولم يكن يوحى بالجدية. والجنرال صادق (رئيس الأركان الحالي) الذي رفض العرض. ولم يبق إلا الجنرال محمد نجيب الذي اشتهر عام 1942 ومن ثم في فلسطين فلم يرفض.

(5) جورج برنارد شو (1856 - 1950) روائي ومسرحي إيرلندي مشهور بروح الدعابة (.. أدين بشهري إلى أنني أفكر مرة واحدة أو مرتين في الأسبوع) ينتمي إلى عائلة بورجوازية بروتستانتية لكنه انقلب على البورجوازية والكنيسة الكاثوليكية. حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1925. ومن مؤلفاته المشهورة "مهنة السيد وارن" و"بيغماليون" توفي عن 94 عاماً دون أن يفقد شيئاً من قواه العقلية.

حريق القاهرة

وجاء العام 1952 وفيه تجمعت عناصر مؤاتية. كان فاروق محتقرا بصورة مكشوفة ويحقر على أبواب صالات السينما. وكان حزب الوفد الكبير قد تراخى وفك شراكته مع السلطة. والجيش مازال يشعر بالإهانة التي تلقاها في العام 1948. و السودان يبدو انه انفصل نهائيا عن وادي النيل الأدنى جراء السياسة الإنجليزية. وعلى القنال كانت قوات تشرشل تمسك بحزم بالقواعد العسكرية الأساسية.

في 26 يناير - كانون الثاني قتلت المدفعية البريطانية حوالي مئة من رجال الشرطة المصريين في منطقة القنال وكانت تلك إشارة الإنذار لانفجار وطني في القاهرة تحول إلى فوضى غوغائية ومن ثم إلى منهبه ومقتلة وأخيرا إلى حريق لم يقتصر فقط على الأحياء الراقية في العاصمة بل امتد إلى النظام الملكي نفسه. من أشعل الحريق ولحساب من؟ طلب احد الوزراء من احد قادة الجيش إنزال وحدات عسكرية لقمع المتظاهرين فرد عليه بالقول "مستحيل ففي هذه الحالة ينضم الضباط الشبان إلى المتظاهرين".

لن تعرف أبدا مشاعر جمال عبد الناصر في هذا اليوم. هل كانت مشاعر خزي؟ أو رعب؟ أم شعر في سره بالرضى لانهيار دولة فاروق؟ في الواقع أطاحت هذه الكارثة الاجتماعية بالنظام والسلطة السابقة. لقد حاول الملك خلال ستة أشهر دون جدوى أن يحافظ على سلطته عبر تغيير الحكومات مستخدما أوراقه الأخيرة: تجربة علي ماهر وأحاييل حسين سري وسلطوية الهلالي. كل ذلك لم يجدي نفعا. لقد كانت السلطة جاهزة لمن يقبض عليها. ناصر الذي صار مقدما في الجيش أجرى اختبارا عبر ترشيح محمد نجيب لرئاسة نادي الضباط. اعترض الملك لعلمه أن رؤوسا لاهية في الجيش تختبئ وراء هذا الجنرال. إذا حان الوقت للتحرك طالما أن المؤامرة باتت مكشوفة.

الانقلاب

في 22 تموز - يوليو 1952 كان فاروق على الشاطئ في الإسكندرية برفقة بلاطه وحكومته كما هي عادته كل عام. ولكن على بعد 200 كلم من هناك

وحوالى الساعة العاشرة ليلاً وفي الفيلا الصغيرة في منشية البكري في ضاحية القاهرة كان المقدم (البكباشي) ناصر يطلق العملية (الانقلاب) التي بدأت بتوقيف الجنرال فريد رئيس الأركان. سيطر الانقلابيون في منتصف الليل على مجموع المواقع العسكرية في القاهرة. في الساعة الثانية ليلاً اتصل وزير الداخلية مرتضى مراغي هاتفياً بالجنرال نجيب "قائلاً: "ما هذا يا جنرال هيا. هيا هدى صبيانك" تظاهر الجنرال بالدهشة خصوصاً أنه لم يكن قد اطلع بعد على سر العملية فهو لم يكن محسوباً فيها إلا في مرحلتها الأخيرة. في السابعة صباحاً وبينما كان المصريون يغتسلون استمعوا من الراديو إلى صوت أنور السادات يقرأ نصاً صاغه ليلاً جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وفيه "لقد اجتازت مصر المرحلة الأكثر سواداً في تاريخها، المليئة بالفساد والمشلعة باللاإستقرار. إن مصر الآن في أيدي رجال تبث مقدراتهم وأصالتهم على ثقتنا. إن الجيش هو حامي المصلحة الوطنية ولن يسمح بأي عمل عنفي ولا تخريبي"

قتل فاروق؟

انقلابيو الليل لم يختاروا بعد الاستيلاء على كل جهاز الدولة ولا حتى قلب فاروق. لم يكتفوا بتعيين الجنرال الشاب محمد نجيب على رأسهم بتسميته القائد العام فقد ذهبوا إلى العجوز علي ماهر وهو أشبه بـ "تير"⁽⁶⁾ مصر المعاصرة وهو ملكي جيد. هل ليمنحوا لأنفسهم فرصة للتفكير؟ أو للإفادة من خدمات محام جيد يمكنه إقناع فاروق - أفضل من المتمردين - بالانسحاب بدون مأساة؟ تم التداول خلال ثلاثة أيام حول ما إذا كان يجب قتل فاروق لتأمين سلامة الثورة؟ هل عارض ناصر ذلك؟ في 26 تموز وضع الملك في يخته المألوف في مونت كارلو وأرسل

(6) أدولف تير (1797 - 1877) سياسي ومؤرخ وصحافي فرنسي تقلب بين تأييد المونارشية والجمهورية. عمل محامياً في مدينة اكس ثم جاء إلى باريس عام 1821 ونشر كتاب تاريخ الثورة الفرنسية ولعب دوراً في إقامة مونارشية تموز - يوليو وصار وزيراً للداخلية عامي 1832 - 1834، ثم رئيساً للوزراء 1836 - 1840. حذر من الحرب على ألمانيا عام 1870. وبعد هزيمة فرنسا عين رئيساً للحكومة عام 1871 وقمع انتفاضة العمال المعروفة بعامية باريس إلى أن أصبح رئيساً للجمهورية. أطاح به ائتلاف حزبي ليعود مجدداً إلى المعارضة وليموت معارضاً.

إلى عالمه الخاص عالم الكازينو والألعاب. يقاس من خلال هذا القرار اللا عنف الذي كان في اصل هذه الثورة وهو مصري نموذجي وفي الآن معاً يظهر القرار تلك الموهبة السياسية للمخطط الاستراتيجي للحركة الذي يعرف انه كان بهذا القرار يدمر خصمه من دون أن يقتله.

كم كان الضباط الشبان فخورين بثورتهم البيضاء في ذلك الحين. ولكن بعد أسبوعين لن يقتلوا لا ملكا ولا باشا ولا مارشالا بل عاملين خلطا بين انقلاب 23 يوليو وسقوط قصر الشتاء⁽⁷⁾.

لكن في الواقع ما هو اللون السياسي لحركة تموز؟ أهى حمراء لأنها كانت مدعومة من عدة حركات يسارية في مصر وخارجها (إلى حين إعدام العاملين). أم فاشية وفقا لعرض الناطقين باسم الحزب الشيوعي الفرنسي. أم مسلمة. لأنها مدعومة من فرقة الإخوان المسلمين الذين وصفوها بـ "الحركة المباركة"؟ إن لوها ببساطة كاكى فهي في الوقت نفسه ذات لون مقرب من أميركا حين كانت مباركة السفير الأميركي جيفرسون كافري مؤكدة مع ميل تقدمي وافد من بعض أصدقاء ورفاق جمال كخالد محي الدين ويوسف صديق. ولكن عموماً سيتوجب الحكم عليها من خلال أعمالها.

ما هي أعمالها؟ ستكون ممثلة بإعلان الإصلاح الزراعي الذي يحدد نظريا الملكية الزراعية بـ 200 فدان أي 83 هكتارا. وهو وان لم يحقق المساواة والريع المطلوب فقد دمر الإقطاعية وحمل راس المال العقاري على التوجه نحو الصناعة. ومن ثم تطهير وإلغاء الأحزاب السياسية وهي كلها تقريبا فاسدة ومشينة ولكن وجودها رغم ذلك كان ضامنا لشكل ما من الديمقراطية. ومن بعد إعلان الجمهورية في مناخ كان معطوبا بالقلق الناجم عن شعور بوجود اختلافات بين زعماء الحركة. وأخيرا المفاوضات مع البريطانيين لجلاء قاعدتهم من القنال. عن تلك الفترة كتب عبد الناصر في نظريته حول فلسفة الثورة التي صاغها في حينه قائلا "لقد فتحنا الثغرة ولكن أحدا لم يتبعنا".

(7) المقصود قصر الشتاء في موسكو وقد اجتاحه البلاشفة عام 1917 كفاتحة للثورة الشيوعية في هذا البلد.

من هو ذلك الرجل الذي كان يسمى البكباشي؟ (الطلاب اليساريون كانوا يسمونه الكولونيل جيمي في إشارة إلى صداقاته الأميركية في حينه). انه اسمر طويل القامة ذو نظرة لاهبة قليل الكلام خجول يفتقر إلى روح الدعابة حيث لا يروى عنه كلمة واحدة مرحة (علما إن المصريين يحبون المزحات الصغيرة التي يسمونها نكتة). كانوا يحبون نجيب الذي يذكرهم بالنحاس باشا وسعد زغلول في الآن معاً. كان ناصر بملاحمه الحادة ودعوته إلى العمل والتوفير والعدالة والتكشف يبدو كمعلم ومدرّب وليس قائداً أو "زعيمًا".

الجنرال والكولونيل

هكذا بدأت المواجهة بين الجنرال الذي يدخن الغليون والكولونيل ذو النظرة الحزينة. نجيب لم يكن سوى عامل الساعة الحادية عشرة (هامشي في المجموعة الحاكمة) لكنه اخذ يحمل نفسه على محمل الجد، لقد كانت شعبيته كبيرة إلى حد خطر له أن يستخدمها خصوصاً أنه لم يكن متفقاً مع الآخرين في العمق إذ كان يرى أن على الجيش أن يتحرك كرافعة ومن ثم يترك الأمر للمدنيين والسياسة مهنتهم. في حين ناصر - قالها لنا في حينه بوضوح شديد - الطبقة السياسية بكاملها عفنة وإذا استؤنف العمل بالنظام الانتخابي فانه سيعيد الإقطاعية حتماً. وحدهم الضباط الشبان كانوا قادرين على الاحتفاظ بطهارة ما وتنظيف الدولة ومن بعد لكل حادث حديث. حاول الجنرال نجيب أن يفرض نفسه وطالب بحق الفيتو في مجلس قيادة الثورة. جعله ناصر أقلّ لويًا فاستقال ووقف معه ضباط اليسار الذين كانوا يؤيدون هم أيضاً "العودة إلى الثكنات" والذين جاءوا به أصلاً إلى السلطة. خلال ستة أسابيع كانت السلطة تحبو وتنتقل من يد إلى أخرى. ناصر لعب على روح التعاون بين الضباط ووجه نداء إلى النقابات العمالية وقمع المد الشعبي واستعاد زمام الأمور وخرج من الأزمة رئيساً للوزراء. ولكنه مع ذلك ظل معزولاً ناهيك عن أن الاتفاق الموقع مع البريطانيين فرض عليهم الجلاء لكنه نص على إقامة صلات بين القاهرة والغربيين ما أثار ضده غضب أولئك الذي كانوا مثل جمال العام 1934 لا يقبلون إلا بتسوية غير مشروطة مع بريطانيا.

في نهاية العام 1954 كان جمال عبد الناصر أشبه بالفرعون فيها هو يملك كل السلطات بعد أن استقال من الجيش وتخلّى عن الزي العسكري - ما يجعل لقب الكولونيل الذي كان يطلق غالباً عليه بلا معنى - وصار يمسك بكل وسائل الإعلام وكل وسائل الضغط وبجهاز الدولة والإنتاج.

كانت سلطته تستند في الآن معاً إلى الجيش المعبأ بأكثرته الساحقة حوله وإلى قسم وافر من المزارعين الذين سمح الإصلاح الزراعي برفع مستوى معيشتهم قليلاً (بخاصة عبر إجراء تخفيض إيجار الأرض) وإلى غالبية العمال قيد التأهيل ومن بعد إلى "الطبقة الجديدة" من الموظفين المثرين وصغار الصناعيين الذين حلوا محل التجار اللبنانيين والسوريين الأغنياء وعلى الضباط المسرحين من الجيش والذين عينوا في مراكز أساسية في الاقتصاد.

كان هذا النظام الذي تختلط فيه النزعة العمالية مع العسكرية تارياً والدينامية الصناعية والنزعة القومية يوحى بنوع من الأتاتورية والبيرونية⁽⁸⁾ مطروحا منها

(8) الأتاتورية نسبة إلى مصطفى كمال أتاتورك في تركيا والبيرونية نسبة إلى خوان بيرون في الأرجنتين. أتاتورك (1881 - 1938) هو مؤسس الجمهورية التركية الحديثة مطلع القرن العشرين. بدأ حياته ضابطاً شاباً ثم حصل بسرعة على لقب باشا الذي يعني الجنرال بالتركية بسبب سائلته في التصدي للغزو الأجنبي لبلاده. نجح في تنظيم المقاومة وتأسيس تيار جمهوري وفي حفظ وحدة الأراضي المهتدة بالتفكك واستطاع أن يحصل على اعتراف دولي بذلك عبر معاهدة لوزان عام 1923. ألغى السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية عام 1922 وأسس الجمهورية عام 1923. أسس حزب الشعب الجمهوري وأخرج بلاده من التقاليد العثمانية وحوّلها باتجاه الغرب. ألغى الحرف العربي واعتمد الحرف اللاتيني وأعطى المرأة حق الانتخاب وغير اسم عاصمة البلاد من القسطنطينية إلى اسطنبول، وفصل الإسلام عن الدولة ومنع الحجاب وتعدد الزوجات وفرض الزواج المدني. مات عن 57 عاماً وتحتل اليوم صورته وانصبته الأماكن العامة في تركيا. أما خوان دومينيك بيرون (1895 - 1974) فكان هو الآخر ضابطاً في الأرجنتين ضمن مجموعة من الضباط الذين قبلوا نظام الرئيس رامون كاستيلو عام 1945. فاز بالانتخابات الرئاسية عام 1946. أسس كونفدرالية قوية للعمال للمرة الأولى في البلاد واكتسب من خلالها وزناً وشعبية كبيرة وحصل على تأييد واسع بين النساء بفضل زوجته الأولى أيفيتا بيرون وزوجته الثانية إيزابيلا بيرون. اعتمد مفهوم الخيار الثالث بين الماركسية والرأسمالية وصارت هذه النظرية تعرف بالبيرونية. فشل في الصراع مع الإرهاب ومع الكنيسة فأطاح به انقلاب عسكري عام 1971. قاوم من منفاه في البيرو الانقلاب ودعم رفاقه اليساريين في التصدي له وعاد رئيساً للجمهورية عام 1973 وبادر إلى تعيين زوجته إيزابيلا نائبة للرئيس. توفي في العام 1974 فخلفته زوجته. دنس قبره في العام 1978 وسرقت يديه دون أن يعرف من فعل ذلك ولماذا. يتفق الجميع على أن اخفاق بيرون الأهم يكمن في منع الصراع بين مؤيديه اليمينيين واليساريين على حد سواء.

شعبية الزعيم لأن جمال كان مازال بعد غير شعبي. كان عليه أن يواجه أزمات دولية خطيرة ليظهر بمواجهة الدول العظمى كمدافع عن الكرامة المصرية ومن ثم العربية. في مؤتمر باندونغ في العام 1955 حيث كان إلى جانب نهرو⁽⁹⁾ وشو إن لاي⁽¹⁰⁾ اكتشف العالم الثالث وتكلم ضد الكولونيالية ودعا إلى الحياد. لدى عودته إلى القاهرة كانت الجموع تحييهِ للمرة الأولى ومن بعد جاءت لعبة البوكر⁽¹¹⁾ الجبارة في السويس.

بدأت القضية في غزة في شهر شباط - فبراير عام 1955 حيث جعلته غارة انتقامية إسرائيلية يلمس بأصابع اليد ضعف جيشه بمواجهة الجيش الإسرائيلي. بحث عن الأسلحة بكل الوسائل في الغرب أولاً ومن بعد في الشرق. وقع في سبتمبر - أيلول صفقة سلاح مع تشيكوسلوفاكيا مثيراً بذلك ذهول واشنطن وعداء وزير خارجيتها فوستر دالاس. وازدادت القضية تعقيداً مع إلغاء القرض الأميركي - البريطاني لبناء سد أسوان، وصله الخبر في 18 تموز - يوليو 1956 خلال مؤتمر في بريوني جمعه مع نهرو والمارشال تيتو⁽¹²⁾. كان رد فعله صاعقاً. هكذا أعلن خلال

(9) جواهر لال نهرو (1889 - 1964) ينتمي إلى عائلة ثرية من كشمير. والده زعيم حزب المؤتمر الهندي. درس في كامبريدج في بريطانيا وتأثر بالاشتراكية الفابية. عمل محامياً عام 1912 وانتسب فور عودته إلى حزب المؤتمر. تعرف عام 1916 إلى المهاتما غاندي وصار أحد مساعديه المقربين لكن الخلافات اشتدت بين الرجلين حيث كان تكوين الأول الفكري غربي والثاني تقليدي. سجن مراراً بين 1920 - 1945 وأصبح أميناً عاماً لحزب المؤتمر. دعم الحلفاء في الحرب العالمية الثانية لقاء وعد باستقلال بلده. عين بعد الحرب رئيساً للحكومة الهندية الانتقالية. وصار بعد اغتيال غاندي عام 1948 الزعيم الأوحيد للقومية الهندية. كان مناهضاً للكولونيالية وأسس مع جمال عبد الناصر وجوزف بروز تيتو حركة عدم الانحياز في مؤتمر باندونغ عام 1955.

(10) شو إن لاي (1898 - 1967) ينتمي إلى عائلة مثقفين. أصبح شيوعياً في وقت مبكر وقاد عدداً من الانتفاضات الفلاحية في الصين وهو يقاتل في الصفوف الأمامية حاملاً مسدسه بيده. شارك في قيادة الجيش خلال المسيرة الكبرى 1934 - 1935 وأصبح رئيساً للحكومة منذ استيلاء الشيوعيين على السلطة عام 1949 وحتى وفاته. تميز بإخلاصه للزعيم الصيني ماو تسي تونغ.

(11) لعبة البوكر عنوان للمقامرة وهي غريبة المنشأ يشترك فيها عدد من الأشخاص يتراوح بين أربعة وثمانية. وتقوم على الرهان والإيجاء والبلف نتيجة الأوراق المخفية والمكشوفة لدى كل لاعب.

(12) جوزف بروز تيتو ماريشال يوغوسلافي ولد في كرواتيا عام 1892 وتوفي عام 1980 حرر يوغوسلافيا من الاحتلال خلال الحرب العالمية الثانية. أحد مؤسسي الحزب الشيوعي اليوغوسلافي وأمينه العام منذ 1937 وحتى وفاته وكذلك رئيساً للدولة خلال الفترة نفسها. عرف بنظريته الإصلاحية الاشتراكية التي تقوم على التسيير الذاتي. أحد مؤسسي حركة عدم الانحياز.

خطاب عاصف في الإسكندرية في 26 تموز - يوليو عن تأميم قناة السويس. نعرف محاولة الرد البريطانية - الفرنسية والعملية المخططة في لندن وباريس وتل أبيب - المنتصر الوحيد في هذه العملية - كان الرئيس قاب قوسين من الهزيمة العسكرية إلا أن واشنطن وموسكو أجبرت المجتاهين على الانسحاب. فربح ناصر.

لكن خطاب الإسكندرية الذي تميز بضحكة مدوية لفلاح متعجب لجلوسه بمحض إرادته على كرسي صاحب القصر أضفت عليه في فرنسا وبريطانيا "صورة مشهورة" شبه إبليسية. باريس لن تغفر له إلا في وقت متأخر هذا "التحدي" فضلاً عن الدعم الذي قدمه مدرّبوه وإذاعته إلى القضية والثورة الجزائرية. ولكن النجاح الأكبر حققه الرئيس في الداخل. لقد تمكن من تحويل كارثة إلى انتصار. هكذا انتهت صورة البكباشي المتجهّم وجاء وقت "يحي جمال يعيش ناصر" لقد تحول الرئيس القاسي إلى زعيم، إلى صانع كلمات، إلى صانع المطر والمعجزات. لقد أصبح سيد مصر القاسي أستاذا للأمل في العالم العربي كله.

انتصار وهلاك

هذا الانتصار كان ينطوي على هلاك فظيع: باختياره العروبة التي فتحت أمامه طريق تحالفات واسعة مع 80 مليون عربي من كازابلانكا إلى عدن انخرط ناصر في لعبة توازن دائم ومنهك بين الانتصار والتراجع والتحكيم. وعبر خط العروبة دخل طريق الحرب الدائمة مع إسرائيل. خلال 11 سنة بعد السويس سيلعب ببراعة ورقة "القبعات الزرق" على الحدود في سيناء ويمارس سياسة لا حرب ولا سلم التي حددها على ما يبدو في العام 1957.. ولكن العروبة لا تتحمل الجمود.

11 عاماً من الجمود على الجبهة الإسرائيلية المصرية كانت بالنسبة للزعيم المبجل والمحسود وقتاً طويلاً. لقد جعله السوريون يرى ذلك في أيار - مايو 1967. وعلى الرغم من أن جيشه ما زال غارقاً في جبال اليمن وعلى الرغم من أن سد أسوان استنزف موارد البلد الأساسية وأن "الجبهة العربية" كانت منقسمة أكثر من أي وقت مضى فقد ارتكب الخطأ المركزي في حياته. لقد كان يجهل رد فعل الإسرائيليين على فرض حصار على خليج العقبة وعلى انتشار الشعارات القاتلة عبر موجات الأثير العربية.

باختصار لقد استدرج الصاعقة نحوه وضرب فيها. أي زعيم غيره كان سينتهي في هذه الـ "سيدان"⁽¹³⁾ التي فبركها ضحيتها. لقد خاطب شعبه بصراحة فائقة معطوفة على ما يشبه السذاجة الفياضة معلنا استقالته. ولكن الجماهير المذهولة منحته عطفًا هائلًا لاعتقادها أنه في الهزيمة ليس لديها قائد أفضل من ذلك الذي قادها فرجته أن يبقى.

في ذلك المساء من 9 حزيران - يونيو عام 1967 استفتي على جمال عبد الناصر وسط الكارثة كما لم يحصل لأي كان من قبله. لقد رفع جمال عبد الناصر إلى الذروة فنا استخدمه بثبات غريب: تحويل الهزائم إلى انتصارات.

أفخاخ العروبة

رغم ذلك كان عليه أن يتراجع مرتين دون مقابل. مرة في سوريا ومرة في اليمن. قضية سوريا بدأت بطريقة هي الأكثر غرابة. لقد جاءت حكومة أجنبية من الناحية القانونية راجية رئيس هذه الدولة أن يأخذها تحت رعايته. ناصر تردد. وقد أسر من بعد إن ذلك اليوم من شباط - فبراير عام 1958 كان اليوم الذي أصيب فيه بالخوف الأكبر في حياته. ولكن حتى يقطع الطريق على النفوذ السوفيتي الذي لولا هذا "الأنشولوس"⁽¹⁴⁾ أي ضم سوريا إلى مصر كان سيجرها إلى الشرق قرر

(13) معركة سيدان. راجع التفاصيل في الفصل الخاص بهزيمة حزيران عام 1967.

(14) أنشولوس كلمة ألمانية تعني الضم واللاحاق. أطلقت على الاتحاد الاندماجي بين ألمانيا هتلرية والنمسا عام 1938 وقد اعتبر هذا الحدث تأسيسيا للحرب العالمية الثانية. وفي التفاصيل أن كثيرين في ألمانيا والنمسا كانوا يملكون بدمج البلدين لكن ذلك يتعارض مع اتفاقية سان جرمان أون لاي الموقعة في 10 ديسمبر - كانون الأول عام 1919 والمفروضة من أوروبا المنتصرة على النمسا في الحرب الأولى. ويبدو أن النمسا كانت قد باتت مقتنعة إلى حد ما بالعيش بعيداً عن ألمانيا. في العام 1932 تم انتخاب مستشار نمسوي جديد ينتمي إلى اليمين المتطرف في الأربعين من عمره ويدعي دولفيس. اعتمد سياسة متشددة إزاء النازيين في بلاده مستندا إلى علاقاته الجيدة مع موسوليني الذي كان يمثل قوة صاعدة في أوروبا موازنة لقوة هتلر النازية. اغتال النازيون دولفيس عام 1934 الأمر الذي أغاظ موسوليني فأرسل قوات إلى الحدود مع النمسا حتى لا تحتلها ألمانيا وتصبح على حدود بلاده. ولكن في العام 1936 سيغامر الدوتشي باحتلال أثيوبيا خلافا لرغبة العالم بأسره ما أدى إلى ضعفه وبالتالي إلى تقاربه مع هتلر الذي انتهز فرصة

ناصر تحمل مخاطر الوحدة مع دمشق. إن تراكم أخطاء الإدارة المصرية التي تصرفت بطريقة استعمارية إضافة إلى مقاومة برجوازية رجال الأعمال السوريين للقوانين الاشتراكية المفروضة من القاهرة كل ذلك هدم الشراكة بين البلدين. لقد كان قاب قوسين من قمع الانتفاضة السورية بالعنف إلا أن صديقه عبد الحكيم عامر والي سوريا الخلاب ورابط الجأش أقنعه بصرف النظر عن ذلك مسدياً له خدمة لا تقدر بثمن فالجميع يعرف كم هي كلفة القمع في البلدان العربية.

معروف أيضاً أنه في اليمن وخلال خمس سنوات من الدفاع عن جمهورية لم يكن بوسع زعيم "الاشتراكية العربية" أن يسمح بتحطيمها دون أن يتدخل. خلال هذه السنوات تصرف الجيش المصري كتلك الجيوش الكولونيالية التي لم يكف راديو القاهرة عن انتقاد جرائمها النكراء. وسواء اختار العروبة كاستراتيجية للقوة حيث نلاحظ ذلك في فلسفة الثورة إذ يحدد الدوائر الثلاث العربية والأفريقية والمسلمة التي يتحدد مستقبل مصر من خلالها وسواء كانت العروبة بالنسبة إليه ارتباط لا يقاوم ومطابق لطبيعة الأشياء على الرغم من ذلك فقد أدرك الرئيس في الواقع في نهاية العام 1969 المخاطر الناجمة عن "سياسته العربية".

مستندا إلى قوة أخرى ليست أقل جبرية وهي الشعور القومي بـ "المصرية" الذي يتمتع مواطنيه ومعنى محليتهم المحدد بدقة بالقياس إلى العالم العربي مستندا إلى ذلك قرر في نهاية العام 1969 إعادة النظر في المشكلة الإسرائيلية وفي مجمل علاقاته الدولية في أفق مصري أكثر منه عربي.

إن المقابلة التي أعطاها في 19 شباط - فبراير عام 1970 لـ "أريك رولو" تشهد بوضوح على هذا التطور نحو السلام وفيها أيضاً تلاحظ خطوة تموز - يوليو الجريئة لعام 1970 التي أعطت لتاريخه الساحر خلاصة تليق بهذه الشخصية التي تستمد قوتها من استعدادها الدائم للبحث عن مخرج أو صيغة أو استراتيجية أو نظام تفكير.

زوال العقبة الأخيرة أمام ضم النمسا. هكذا اجتاحت قواته حدود هذا البلد بدعم من النازيين النمساويين في 12 آذار - مارس عام 1938 وفي العاشر من نيسان من العام نفسه اجري استفتاء حول الوحدة الاندماجية بين البلدين حصل النازيون خلاله على 99 بالمئة من أصوات الناخبين الأمر الذي شكل تحدياً هائلاً لأوروبا وكان سبباً أساسياً في اندلاع الحرب العالمية الثانية.

اشتراكية محلية للغاية

كان جمال عبد الناصر بكل تأكيد مسلما متعلقا بقوة بدينه يسكنه إيمان كل شيء يؤكد انه صادق. ولكنه كان يرفض القيمة السياسية للإسلام مدينا عبثية الأطروحات الأصولية وأطروحات الإخوان المسلمين الملتبسة. بهذا المعنى كان علمانيا في السياسة كما الحبيب بورقيبة. لقد درس الماركسية بيد أن "وثيقة" مايو 1962 ليست أرثوذكسية بما فيه الكفاية من وجهة نظر ماركسية. يبقى أن الوثيقة تعبر عن انحياز ناصر للاشتراكية "العلمية" التي رفض فيها حقيقة عنصريين أساسيين: المادية. ومفهوم الصراع الطبقي. ناصر كان يعترف بالطبقات الاجتماعية ولكنه كان يؤمن بدور الزعيم كمحكم دائم يوفر على المجتمع المصري هذا النوع من الصراعات الاجتماعية. كما نرى لقد كانت اشتراكيته محلية جدا لكن آثارها على المجتمع المصري لم تكن بسيطة.

لقد أدت إلى تدمير النظام الإقطاعي وإلى التصنيع السريع وتشكيل نوع من البرجوازية الوطنية بيروقراطية وحداثية في الآن معاً. التعليم الشامل والكثيف. تجهيز الأرياف. المكافأة السياسية والاقتصادية للبروليتاريا إلى درجة أن الكادرات الشيوعية الضئيلة العدد ذات النوعية الجيدة اندمجت بالنظام طيلة السنوات العشر الماضية: هكذا نرى إن الإنجازات الناصرية ليست ضئيلة. هل يجب أن نحكم بأنها بالغة الكلفة جراء السياسة الخارجية المنهكة حيث ميزانية الدفاع والشرطة الضخمة وهجرة العقول والجمود الثقافي وتنويم الحريات التي غالبا ما كانت وهمية ولكنها أتاحت في الأعوام 1946 1952 جدلا فكريا غنيا؟ إن وقت الحصيلة الناصرية سيأتي لاحقا.

لنتأمل مرة أخيرة في هذا الرجل الذي كان له وزنه الثقيل جدا على حياتنا وحياة معاصرنا. الصورة الأخيرة التي جمعتها بين الملك حسين وياسر عرفات كحكم ومصلح سعيد. قامته، ابتسامته، حركته كل شيء فيه كان رحبا. لكنه أيضاً بدا مثقلا ومببضا ومقبيا.

غياب المؤسسة

يجب أن نبذل جهداً على أنفسنا نحن الذين عرفوا هذا الزعيم الشاب لثورة تموز - يوليو في العام 1953. قامته العالية كانت توحى بأنه ضعيف البنية ولكنه كان يبدو حينذاك كعمود منزل أشبه بحامل أثقال قوي البنية عريض الخطى كفهد أصهب فضلاً عن قبضة يده التي يبدو منها أنها تسحق ساعد زائره. الضحكة المحبوسة التي يطلقها كتحد. إن انطباع القوة الذي يوحى به ربما يحمد أو يكسر العاطفة. لا. جمال عبد الناصر كان رجلاً جذاباً لسبب بسيط هو أنه كان يصغي إلى مخاطبيه. كان يطرح الكثير من الأسئلة ولا سبيل للمقارنة بين اللقاءات به مع المونولوج الديكتاتوري المنقول عن لودفيغ أو روشينين⁽¹⁵⁾.

عبد الناصر رجل الحوار والبحث والتساؤل والحبو سحر زائريه المهمين واستطاع أن يرعش حشوداً كبيرة وإن يجتاز الكثير من الأزمات لكنه فشل في نهاية المطاف في مهمته الأساسية: تلك القضية ببناء المؤسسة لذا لا نرى بعده حزباً يليق بهذا الاسم ولا خلافة واضحة ومحددة. أنه الرجل الذي "بدلاً من أن يحل مشاكل مصر اختار أن يكون رمزاً لها" بحسب ف. بحري لقد ترك خلفه فراغاً هائلاً يمكن من خلاله أن نقيس بالتأكيد أهميته وعظمته ولكن أيضاً محدوديته.

1970/9/30 - جريدة لوموند

(15) ربما يقصد الكاتب بالمونولوج ذلك الحوار الذي أجراه روشينين بعنوان "قال لي هتلر" واستخدم بطريقة دعاوية فظة لا علاقة لها بالطريقة التي كان عبد الناصر يخاطب بها مؤيديه.

الباب السادس

غضب المحبين وغضب المتضررين

عبد الناصر يدافع عن عبد الناصر

فصل جلول

ما زال جمال عبد الناصر منذ غيابه المفاجئ في 28 سبتمبر - أيلول عام 1970 موضوعا لسجال مصري وعربي حاد بين مؤيديه وخصومه. يسعى الخصوم لأبلسه (من إبليس) واغتياله بعد وفاته فيرد الأنصار بتأليهه (من اله) وجعله مهديا ينتظر قيامه قبل الساعة ليملأ الأرض المصرية والعربية عروبة وعدلا وفخرا بعد أن ملئت ظلما وقطرية وعمالة للأجنبي. يجعله الطرف الأول بعد أكثر من ثلاثة عقود ونصف العقد على وفاته مسؤولاً عن تردي أوضاع مصر والعرب ويعتبره الطرف الثاني محطة فاصلة بين عهد مصري وعربي مشرف وعهد راهن يرمز إلى الخضوع والانحطاط والذل والهيمنة لا قيمة فيه كبيرة لمصر والعرب والمسلمين أجمعين على المسرح الدولي. يحن الطرف الأول إلى تاريخ ما قبل ناصر ويفخر بما بعده ويحن الطرف الثاني إلى عهد الناصرية المظفر. لذا يبدو لي أن الصراع على عبد الناصر لن يزوي ما دام لدى المصريين والعرب عرق ينبض وهذا في حد ذاته برهان على أن الرجل لم ولن يمر على منطقتنا مرور الكرام وهو حجة قوية على جواز تصنيفه عالميا بين قلة من الزعماء الذين طبعوا القرن العشرين مرة واحدة وإلى الأبد.

بين نزعة الانتقام من ناصر بمفعول رجعي ونزعة تمجيده وأسطرته (من أسطورة) مسافة تسمح وحدها بحصر ماهية الرجل. بعبارة أخرى، لا يمكن رسم ملامح الناصرية من خلال خطب بعض ضحاياها الذي صاروا من بعد جلاديها المعنويين ولا يمكن الاحاطة بها من خلال مداحيها الذين لا تنتج خطبهم الحماسية أو المحابية قيمة فائضة لسيرة "الريس" وموقعه التاريخي في بلادنا بخاصة وفي العالم على وجه العموم. ذلك أن قيمة كل امرؤ في ما صنع ويصنع وليس فيما ينسب إليه مما لم يصنعه. فما الذي صنعه "ابن البوسطجي"⁽¹⁾ وما قيمته في زمنه وما قيمته التداولية الراهنة سياسياً ومعنوياً؟

(1) استخدم تعبير "ابن البوسطجي" بفخر وتقدير وليس بمعيار سلمي على ما درج أبناء البورجوازية المصرية خلال عهد عبد الناصر وأحيانا بعده على استعماله.

ينضوي خصوم وأعداء جمال عبد الناصر في تيار عريض ومتنافر ازداد اتساعاً بعيد وفاته ليضمّر تالياً بصورة تدريجية. ويضم هذا التيار حصراً ضحايا الرجل والمتضررين منه والمهزومين في عهده داخل مصر وخارجها وفي طليعتهم: الإخوان المسلمين. اليسار الراديكالي والماركسي أو الماركسي اللينيني بخاصة. بعض العسكريين من أنصار محمد نجيب وعبد الحكيم عامر. كبار الباشوات. الليبراليون من الوفد. بقايا النظام الملكي السابق. التيار الفرعوني والتيار المتوسطي. ملوك وأمراء ومشايخ المشرق والمغرب وسائر من كانوا يصنفون في خانة الرجعية العربية. السبعث بشقيه العراقي والسوري (قبل وفاة الرئيس) إسرائيل والدول الغربية عموماً والولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا بخاصة. الأقدام السود وجنرالات حرب الجزائر في فرنسا. المستوطنون الأجانب في إفريقيا وآسيا والعالم العربي. أنصار البيئة في الغرب... الخ.

لكل من هذه الجماعات والفئات والتيارات أسبابها الخاصة لمجاهة الرئيس. فالتيار الإسلامي المصري كان يراهن على تسلم الحكم في الخمسينات عبر التحالف مع الضباط الأحرار ثم الانقلاب عليهم ويرى أن ناصر استولى على ثورة ليست من صنع بل من صنع "الإخوان المسلمين" فكان أن تعرض للقمع والاضطهاد جراء رؤيته وطموحه. وكان اليسار الماركسي يرغب بدفع الثورة الناصرية إلى موقع أكثر راديكالية ويواجهها بوصفها ممثلة لمصالح البرجوازية الصغيرة وغير مؤهلة للتعبير عن مصالح البروليتاريا ومشروعها الثوري الجذري، ناهيك عن أنها باشرت عهدها بإعدام عاملين مصريين فكان أن تعرض هذا التيار أيضاً للقمع والاضطهاد لبعض الوقت قبل أن يندرج في سياق العلاقات المصرية السوفيتية القوية في الستينات. وكان على العسكريين المصريين شركاء ناصر في الثورة أن يدفعوا ثمن صراعهم معه على الحكم. أما الباشوات وكبار ملاك الأراضي الزراعية فقد جردتهم الثورة الناصرية من القسم الأكبر من إمتيازاتهم المادية والمعنوية، وكان من الطبيعي ألا تتسع صدورهم لسياستها وان يدافعوا عن مصالحهم ويدفعوا ثمنها باهظاً لمواقفهم المناهضة للثورة. ويصح ذلك أيضاً على الليبراليين وأنصار الملكية ممن تولوا شؤون مصر قبل الثورة بالتحالف

مع البريطانيين والخضوع لاملأأهم. وأخيرا كان من البداة أن يتضرر منظرو
الفرعونية والمتوسطة المصرية من الثورة الناصرية التي كنست سريعا
إيديولوجيات مبنية على أفكار وتطلعات إستشراقية معمرة منذ حملة
بونابرت، وترمي إلى تحطيم هوية مصر العربية الإسلامية وتعزيز مصالح أأليات
محلية تظن أنما اصل مصر وان المسلمين فيها طارئون فاتحون يجب أن يرحلوا
عنها يوما ما.

واستدرجت الناصرية في العالم العربي عداء الملكيات بوصفها ثورة
جمهورية مظفرة لم تتردد بالعمل على إطاحة الملكية في ليبيا واليمن والعراق وفي
دعم الحركات المناوئة للملكيات الخليجية ناهيك عن اندفاعها القوي نحو توزيع
الثروة النفطية عبر شعار "بتروال العرب للعرب" وليس للخليجيين حصرا. أما
التيار البعثي فكان منافسا إيديولوجيا للناصرية وقوة ضاغطة في المد القومي
العربي الذي تسببت به. ألحقت الضغوط البعثية أذى كبيرا بالسياسة الخارجية
الناصرية. والمؤكد أن اهم القومي العربي للناصرية أثار القوميات الإقليمية
التركية والفارسية والإثيوبية المجاورة للعرب. فقد استطاع ناصر أن يردع هذه
القوميات ويحجم من طموحاتها باكتساب مواقع نفوذ في العالم العربي. هكذا
رد ناصر على التهديد التركي لسوريا بالوحدة الاندماجية معها ودعم التيار
العروبي في البحرين والخليج بمواجهة التدخل الفارسي الشاهنشاهي وساهم عبر
دعمه لحركات التحرر في إفريقيا بجذب القوميات الإفريقية السوداء المحاذية
للعرب وبالتالي درء مخاطر الصراع العربي الإفريقي الذي سينفجر بعد غيابه.
وأخيرا أيقظ المد الناصري في المغرب العربي مخاوف أسبانيا والبرتغال التاريخية
من العرب بعد أن تسبب بصداق حقيقي للإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية في
الجزائر وعدن والخليج.

ما من شك أن مئات الآلاف من الأقدام السود الفرنسيين اقتلعوا من
الجزائر بعد استيطان دام لأكثر من 130 سنة بمساهمة فعالة من الناصرية ولم
يغفر سياسيو الجمهورية الرابعة الفرنسية لناصر دوره في انهيار جمهوريتهم بعد
غزو السويس واضطرارهم إلى اللجوء إلى خصمهم شارل ديغول لإنقاذ فرنسا

من الانحدار نحو الحضيض⁽²⁾. ولن يغفر السياسة البريطانية لناصر نجاحه في إشعال النار على خطوط مواصلات إمبراطورية الهند الشرقية في السويس التي عادت إلى السيادة المصرية وفي عدن التي عادت إلى اليمن الأم وفي الهند نفسها عبر التضامن المصري - الهندي ناهيك عن اقتلاع البريطانيين من مصر والسودان والخليج وبالتالي وضع حد لاستعمار إنجليزي لم يكن أصحابه يتخيلون انهياره تحت المطرقة الناصرية خلال عقد ونصف العقد من الزمن. ولا حاجة للتردد في القول إن الناصرية كانت مساهماً كبيراً في تخطيط النظام الإمبراطوري الاستعماري عبر دعم حركات التحرر في المستعمرات البريطانية والفرنسية في إفريقيا وآسيا وحتى أميركا اللاتينية.

يبقى أن الناصرية كانت محورا إقليميا سياسيا في صراعات الحرب الباردة وقد بذلت جهودا كبيرة في مواجهة إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية إلى أن أصيبت بهزيمة شنيعة في الخامس من حزيران - يونيو عام 1967 لكن الهزيمة لم تحمل العرب على صرف النظر عن حقوقهم فهم ما زالوا يقاتلون تحت السقف الذي رسمته الناصرية في المجال الثقافي والتطبيعي بخاصة حيث ما فتئت إسرائيل تعيش عزلة تامة في محيطها العربي على الرغم من تفوقها العسكري وعلى الرغم من اتفاقات السلام التي وقعتها مع مصر والأردن والفلسطينيين⁽³⁾. أما أنصار البيئة في الغرب فقد حملوا على عبد الناصر بسبب مشروع السد العالي معتبرين أنه تسبب

(2) لم يجد جان ماري لوبن زعيم الجبهة الوطنية الفرنسية المناهضة للأجانب عموماً والعرب والمسلمين بخاصة أفضل من عبارة عبد الناصر الشهيرة "ارفع راسك يا أخي" يوجهها لشعبه لحنه على النهوض... رسالة افتخار (...). أستعيرها من جمال عبد الناصر الشخصية التاريخية للقومية العربية (...). نعم ارفعوا رؤوسكم أيها الفرنسيين فان عهد الذل قد مضى" والجدير بالذكر أن لوبن شارك في غزو السويس عام 1956 وكان مكلفاً بجمع جثث القتلى ودفنها وهو متهم بممارسة التعذيب في الجزائر العاصمة خلال الثورة الجزائرية، وكان من بين أكثر الفرنسيين عداء لناصر بسبب دوره العروبي الذي طال في حينه المصالح الاستعمارية الإستراتيجية الفرنسية.

راجع خطاب لوبن في عيد "جان دارك" 1 مايو - أيار 2003 منشور في جريدة الحزب "ناسيونال إيدو" في الأسبوع الأول من مايو - أيار من العام نفسه.

(3) كان مناحيم بيغن رئيس الوزراء الإسرائيلي الراحل وعدد من قادة إسرائيل يعتبرون أن الناصرية تشكل الخطر الأكبر على دولتهم.

بأضرار بيئية واجتماعية علما أن هذه الأضرار ضئيلة الأهمية إذا ما قيست بالفوائد الجمة التي جاء بها السد على كل صعيد.. الخ⁽⁴⁾.

غضب المحبين وغضب المتضررين

تولى ناصر الحكم مباشرة منذ العام 1954 وحتى العام 1970 أي ما يعادل 16 عاماً قلب خلالها أوضاع مصر والعالم العربي رأساً على عقب فكان أن وضع حداً لقرون من الغياب العربي عن مسرح العلاقات الدولية، ولعل ما قام به ينطبق عليه وصف بول فاليري للثورات حيث يقول إن بعضها "يمكن أن تحقق إنجازات في عامين يحتاج تحقيقها إلى مئة عام ويمكن لبعضها الآخر أن يضيع في عامين إنجازات عمرها خمسة آلاف عام"

ككل الثورين تعرض عبد الناصر لنوعين من الغضب. غضب المتضررين وقد أشرنا إليهم للتو و"غضب المحبين"⁽⁵⁾ وهم أولئك الذين رفضوا اثر هزيمة حزيران -

(4) سد أسوان هو اكبر مشروع مصري منذ إنشاء الأهرامات الفرعونية. كان يعبر عن إرادة قوية في تحدي الكولونيالية. بلغت تكاليفه 450 مليون جنيه مصري. تم استرداد الكلفة خلال عامين ذلك انه في العام الواحد يمكن حساب 140 مليون جنيه من الإنتاج الزراعي و 100 مليون جنيه من الطاقة الكهربائية. 10 ملايين كلفة التوفير من الفيضانات. و 5 ملايين توفير ناجم عن كلفة تحسين الملاحة في النيل. لقد برهنت الثمانينات عن أهمية السد بالنسبة لمصير الاقتصاد المصري فقد اجتازت مصر 9 سنوات جفاف خلفت كوارث في السودان التي لا تملك سدا مشابهاً. صحيح ان السد حرم مصر من ما قيمته 7 مليون دولارا سنويا من سمك السردين الذي هرب من المنطقة بعد إقامة السد لكن ذلك أدى أيضاً إلى تطوير الصيد البحري المصري في الأعماق وبالتالي إضافة مصادر سمكية أخرى إلى جانب السردين ناهيك عن أن بحيرة ناصر تنتج 2000 طن من السمك سنويا. يبلغ إنتاج الطاقة الكهربائية من السد 9 مليون كيلوات في الساعة و 30 بالمئة من الطاقة تستهلك في مصانع الأسمدة. "إن سد أسوان هو العمود الفقري للبحوحة الزراعية والصناعية والاجتماعية الاقتصادية في مصر. لقد تحققت أهداف السد في مجال إنتاج الطاقة الكهربائية وتوفير المياه لري الأراضي الزراعية المستصلحة والقديمة، في تنوع المحاصيل، في حماية البلاد من الفيضانات والشح المائي، في السياحة في الصيد في البحيرة في تحسين الملاحة، في خلق فرص عمل وفي تأهيل جيل جديد من المهندسين ومن التقنيين والعمال المؤهلين. وفي المحصلة العامة زيادة الدخل الوطني". نقلا عن موقع: www.enpc.fr

(5) التعبير للكاتبة المصرية فريدة النقاش.

يونيو 1967 واستقالة الرئيس والقوا اللوم على الناصرية جراء سوء إدارتها للصراع مع إسرائيل دون أن يتكروا لها وهم يشكلون الأكثرية الساحقة من المصريين والعرب.

بين غضب المحبين وغضب المتضررين تجتمع المآخذ المتداولة على الناصرية في الخطوط العامة التالية:

أ. ناصر "هتلر" العرب. أسس حكما ديكتاتوريا. كان مأخوذا بمنهج عبادة الفرد. ساد الحزب الواحد في عهده ومنعت التعددية الحزبية. افتقر عهده إلى الديمقراطية.

ب. انتهكت في عهده حقوق الإنسان على نطاق واسع. امتلأت السجون بالمعتقلين وساد التعذيب. انتهكت حرية التعبير. سادت البروباغاندا ومثالها الساطع احمد سعيد.

ج. غلب السياسة العربية على السياسة الداخلية المصرية. بدد مصادر البلد في ثورة اليمن. حشر مصر في صراعات خارجية باهظة الكلفة.

د. هزم في حرب حزيران - يونيو عام 1967 ومازال العرب يعانون حتى اليوم من آثار الهزيمة.

ه. انتشر في عهده الفساد وتفشيت المحسوبية وانتشرت البيروقراطية.

و. اخفق في بناء مؤسسات عصرية.

ز. اعتمد نظاما اشتراكيا مركزيا وكان ممثلا أمينا للطبقة البرجوازية الصغيرة.

تبدو هذه الاتهامات صحيحة أو خاطئة بحسب زاوية ومقاييس النظر إليها. فالقول أنه "هتلر" العرب يستند إلى معيار غربي وقد استخدم هذا الوصف في فترات الصراع بين الناصرية والدول الغربية الاستعمارية وإسرائيل لتعبئة الرأي العام في هذه البلدان ولتذكير اليهود بالحرقة والإيحاء أن ناصر يحمل لليهود مصيرا مشابها لذلك الذي حمله لهم هتلر في الحرب العالمية الثانية. وكان الغربيون يؤكدون لشعوبهم أن عدوانية ناصر وتوسعه وتهديده لأنصار الغرب في العالم العربي شبيه بعدوانية هتلر وتوسعه وتهديده للدول الأوروبية وقد اعترف بعض الساسة الغربيين بهذه الخدعة في فترة متأخرة من حياتهم (راجع حرب السويس في ركن آخر من

هذا الكتاب). ويلاحظ أن وصف "هتلر العرب" أطلق على كل الزعماء الذين واجهوا الغرب ومن بينهم صدام حسين وفيدل كاسترو ومعمّر القذافي وياسر عرفات وحافظ الأسد وأخيراً السيد حسن نصرالله. والحق أن العرب لم يكرروا هذا الوصف في أدبياتهم السياسية ضد ناصر والناصرية فظل محصوراً ولبعض الوقت بعدد من خصوم الرئيس المصري الغربيين، ويمكن القول عموماً أن هذا الوصف تلاشى تماماً وما عاد احد في الغرب يستخدمه في معرض الحديث عن ناصر والناصرية، في حين أن النازية ما انفكت بعد سقوط نظامها في الحرب العالمية الثانية حاضرة في الغرب كإيديولوجية عنصرية تستوجب المكافحة والشجب.

وإذا كان نقاد ناصر العرب قد تجنبوا نعته بالهتلرية فإن كثيرين منهم لم يخلوا عليه وما زالوا بنعت "الديكتاتور" وما يتبع من أوصاف مكملة حول "نظام الحزب الواحد" وانتشار "عبادة الفرد" وحظر التعددية الحزبية والتنكر للديموقراطية وانتشار الفساد والبيروقراطية وانتهاك حقوق الإنسان وتقييد حرية التعبير. تبدو هذه المآخذ فظيعة بالقياس إلى نمط الحياة السائد اليوم في الدول الغربية الغنية لكنها سرعان ما تفقد هولها إذا ما نظرنا إليها من الزوايا التالية:

أولاً: الصراع العربي الإسرائيلي. من المعروف انه منذ نشوء إسرائيل وحتى اليوم ما زالت الدول الغربية تنظر إلى كل من يقاوم هذه الدولة نظرة عدا و تصف زعماء المقاومة باوصاف شنيعة (دكتاتور. متسلط. مستبد. ارهابي. ظلامي. متطرف. أصولي.. الخ) دون الوقوف عند المشاعر والحقوق العربية ودون حساب المخاطر التي يتحملها العرب جراء المشروع الصهيوني. والظاهر أن الغرب يريد اعتراف العرب بإسرائيل كأية دولة من دول المنطقة هذا إن لم يطمح لتنصيبها زعيمة على الشرق الأوسط ولعل هذا ما يفسر جانباً أساسياً من جوانب الهوس العدائي الغربي لناصر والناصرية التي رفضت الخضوع للاملاء الغربي في هذه القضية.

لنتخيل أن دولة غربية تماماً عن أوروبا نشأت في وسط القارة الأوروبية فهل يمكن لأوروبا أن تتصرف إزاءها وكأنها غير موجودة؟ يصعب ذلك بالطبع فكيف إذا كان نشوء هذه الدولة قد تسبب بتشتيت شعب بكامله في محيطها. شعب

يرتبط بتاريخ مشترك مع هذا المحيط ويتحدث لغته ويعتق دينه ثم إن الدولة العبرية رفعت منذ قيامها شعارا توسعيا بحدود تورانية تمتد من الفرات إلى النيل. فكان قيامها بصيغتها الصغرى دليلا على قيامها الموعود بصيغتها الكبرى وبالتالي مصدر خوف مصري لمحيطها ناهيك عن أن وجود هذه الدولة كان وما زال محل أجماع ودعم من سادة العالم. ويرتبط وجودها بشروط تدفق النفط العربي إلى الأسواق العالمية ومن بين هذه الشروط سيادة نظام سياسي عربي مطمئن للغرب وتلعب فيه إسرائيل دوراً رادعاً وأداة إخضاع دائمة لمحيطها. لقد تزامن نشوء النظام الناصري إلى حد ما مع اعلان دولة إسرائيل وكان عليه أن يعيش معها حال حرب، وان ينفق موارده على هذه الحرب وان يوفر شروطا عربية رادعة لإقامة الدولة التوراتية من الفرات إلى النيل فضلاً عن إعادة الفلسطينيين إلى أرضهم. هل يطلب من دولة تعيش حال حرب دائمة مع إسرائيل ومع الإمبراطوريات الاستعمارية وفي ظل الحرب الباردة أن تتصرف ككوريا الجنوبية أو اندونيسيا أو ماليزيا أو غيرها من الدول التي لا تتعرض لتهديد مصري؟ ثمة من يقول أنه كان على مصر ان تخضع كما خضعت من بعد لكن الخضوع لم يكن خليقا بزعيم ثوري كجمال عبد الناصر..

لقد عاشت مصر طيلة السنوات الناصرية حالة حرب فعلية مع إسرائيل ومع التيارات السياسية العربية المرتبطة ارتباطا وثيقا بحلفاء إسرائيل الغربيين، ناهيك عن الاستعمار القديم الذي كان يمكنه على صدور العرب هنا وهناك بين المحيط والخليج وكان من الطبيعي أن يترتب عن هذا الصراع كلفة كبيرة داخل مصر على كل صعيد وأن يدفع معارضو الاستراتيجية الناصرية والمعادين لها ثمنا باهظا على الصعيدين المعنوي والمادي وبالتالي أن ينضموا جراء ذلك إلى خصوم الناصرية الغربيين مباشرة او يتبنوا خطاهم المناهض لها بصورة غير مباشرة. إن كل تقييم للناصرية خارج هذا الاطار ينم عن رغبة في اصدار احكام مسبقة على جمال عبد الناصر والانتقام منه بعد وفاته.

ثانياً: لقد حملت الثورة المصرية مشروعا تغييريا وكان عليها أن تخلف وراءها متضررين كثر أبرزهم حكام مصر السابقين وكامل البيئة الاجتماعية التي تشكلت حولهم من جهة ومنافسي الناصرية الإيديولوجيين من جهة أخرى. إن انتهاكات

حقوق الإنسان قد طالت بالفعل هذه الفئات، فقد التقى في السجن الناصري محمود أمين العالم الماركسي ومصطفى أمين الليبرالي وسيد قطب الإخواني. ما من شك إن كلفة المشروع الناصري في حقوق الإنسان كانت كبيرة لناحية التعذيب في المسجون والاعتقالات الكيفية وإخضاع المعارضين للمراقبة والمتابعة المخابراتية وحرمانهم من التعبير الحر وسيادة الإعلام التعبوي الذي يستدل اليوم عليه بالصحافي المعروف احمد سعيد.

لكن لو تأملنا قليلا في حجم ونوع الكلفة الأخلاقية للمشروع الناصري والأكلاف الأخلاقية لمشاريع التغيير في العالم المتقدم نلاحظ أن الناصرية كانت شديدة الاعتدال بالقياس إلى هذه المشاريع. لقد كلف انتقال فرنسا من الملكية إلى الجمهورية مئات الآلاف من القتلى والدمار والحروب، وكذا الأمر في ألمانيا حتى لا نتحدث عن دول العالم الثالث الشبيهة بمصر. لكن إذا عدنا إلى القواعد الحقوقية والسياسية والأخلاقية المعتمدة في مصر والغرب خلال الفترة الناصرية نرى أن الإعلام الموجه والمراقب كان قائما على قدم وساق في فرنسا خلال الفترة الديغولية وكذا الأمر بالنسبة للمراقبة والدعاية وما شابه ذلك. وفي الهجمات كان الإعلام الغربي الديمقراطي يتحول إلى سلاح في المعركة أي إلى إعلام موجه، وكانت حرية التعبير والإبداع تخضع للمراقبة والتحكم بدليل أن الكثير من الكتب والأفلام السينمائية المعترضة على حرب الجزائر أو التي تحاول النظر إلى هذه الحرب بما يخالف وجهة النظر الرسمية كان يحجر عليها وبعض هذه الأعمال أفرج عنها منذ عامين فقط علما بان ثورة 1968 الطلابية في فرنسا كانت تنادي بتوسيع حرية التعبير التي لم تتوسع فعلاً إلا في عهد فرنسوا ميتران في الثمانينات. طبعاً يجب ألا ننسى التزامن بين ظهور الناصرية وانتشار المكارثية في الولايات المتحدة الأميركية فقد اعتمد السناتور جون مكارثي منهج محاكم التفتيش في ملاحقة اليسار والشيوعيين في بلاده ولا أظن أن هذا المنهج اتبع في مصر ولم يتعرض اليسار المصري لعمليات فحص دم سياسي وايدولوجي كذلك التي تعرض لها نظيره الأميركي. يبقى أن الظلم الناصري لم يصل إلى حد رمي المعارضين في مياه النيل كما هي الحال مع رمي الجزائريين المعارضين لحرب الجزائر في مياه نهر السين في

فرنسا. وأخيراً لا بد من النظر إلى ظاهرة أحمد سعيد بما يشبه اليوم ظاهرة السيد مردوخ صاحب فوكس نيوز الذي يستخدم مجموعته الاعلامية كسلاح في حرب العراق طبعاً مع فارق الظروف والتجربة وعمقها التاريخي.

والجدير ذكره أن قواعد قياس حقوق الإنسان لم تكن في الظروف التي انبثقت في ظلها الناصرية شبيهة بالقواعد المعمول بها اليوم هذا إذا أردنا الحديث عن الغرب حصراً، أما ما يعرف بالعالم الثالث فكان أبعد ما يكون عن التقدم المصري في هذا المجال وفي غيره. وإذا كان صحيحاً أن عهد عبد الناصر لم يكن ديمقراطياً بالمفهوم الغربي الحالي للديموقراطية فإن الخيار الاشتراكي الناصري بما في ذلك مشروع الحزب الواحد المركزي كان جزءاً لا يتجزأ من مشروع التغيير وبالتالي كان من الصعب على الناصرية أن تكون مشروعاً تغييرياً ديمقراطياً واشتراكياً ومركزياً في الآن معاً. لقد تبين من بعد إن الاشتراكية والمركزية اختيارات غير فاعلة لكنها في حينه كانت رداً مناسباً على النظام الملكي الفاسد والمهان داخلياً وخارجياً ما يعني مرة أخرى أن تقييم التجربة الناصرية كان وما زال يتطلب وضعها في الظروف المصرية والعالمية السائدة في حينه ومن الظلم محاكمتها في ضوء تجارب وظروف ومقاييس مختلفة.

ثالثاً: لقد انتشر الفساد وعرفت المحسوبية وانتشرت البيروقراطية وسوء الإدارة في العهد الناصري وهذا كله صحيح، لكن هل تخلو اليوم دولة واحدة من الفساد والبيروقراطية والمحسوبية في العالم كله. ما من شك إن وجود هذه الظواهر في الدول الأخرى لا يبرر وجودها في مصر لكن أيضاً لا يمكن محاسبة الناصرية على هذه الظواهر وكأنها حكر عليها خصوصاً أن نقاد الناصرية الساداتيين المتشددين برهنوا خلال سيادتهم مراكز القرار في مصر عن تعلق مرضي بالفساد لا بل جعلوا الفساد نظام حكم بالتمام والكمال.

رابعاً: تحدثت عن هزيمة حزيران وعن غزو السويس في مكان آخر من هذا الكتاب واكتفي هنا بالتذكير مجدداً أن الهزيمة الثانية تحولت إلى نصر سياسي مدو والحروب ترهن عادة بنتائجها السياسية وليس بوقائعها العسكرية فحسب. الحرب ليست ماتش ملاكمة ينتهي بالنقاط أو بالضربة القاضية بل ناجمة عن نزاع

سياسي تعذر حله بوسائل سلمية ما يعني أن النصر السياسي يلغي كل مفاعيل الحرب ويجعلها وكأنها لم تكن أصلاً مع التذكير أن هزيمة ناصر في السويس وحتى في حزيران هي هزيمة نظام حديث التكوين كان يسعى منذ نشأته إلى تغيير مصري شامل داخليا وعربيا ودوليا بوسائل محدودة وفي ظل ظروف ضاغطة وبمواجهة عدو استراتيجي على الحدود مجهز ومدعوم من قوى العالم العظمى.

خامساً: إن اختيار عبد الناصر لسياسة خارجية عربية هجومية كان ينطلق من نظرة ثاقبة لدور مصر الاستراتيجي في المحيط وكان يهدف إلى رفع شان الأمة العربية وتخليصها من العبودية والاستعمار والذل الذي ضربها لقرون طويلة وفي ظني أن هذه السياسة كانت مفيدة لمصر وللعرب في الآن معاً. ذلك أن انكفاء مصر كما هو واقع اليوم ضاعف من مشاكلها الداخلية وحمل إليها مشاكل الجوار لتتكسر عزلتها الذاتية التي تمت في عهد الرئيس الراحل أنور السادات. إن تجارب التاريخ تشير بوضوح إلى أنه إذا لم تردع الخارج فانه سيطرق بابك وهو ما يحصل في مصر اليوم.

سادساً: إن التحليل الطبقي للناصرية وحصرها بالبرجوازية الصغيرة بات ينتمي إلى إرث ايدولوجي فقد عموماً قيمته ولم يعد مفيداً في تفسير وتحليل الوقائع السياسية العربية ما يعني أن التقييم الماركسي للناصرية يحتاج إلى إعادة نظر جديدة من طرف الماركسيين العرب الاصلاحيين الذين راجعوا باخلاص تجاربهم السابقة دون ان يلتفتوا إلى ضرورة أن تشمل هذه المراجعة مواقفهم السلبية من الناصرية فضلاً عن أن نقاد الناصرية الماركسيين كانوا يأخذون عليها تمثيلها للبرجوازية الصغيرة من موقع هو نفسه بورجوازي صغير. عندما ننظر اليوم إلى حكم سياسي ماركسي من نوع أن البورجوازية الصغيرة الناصرية سقطت في هزيمة حزيران - يونيو عام 1967 وأن نظام الطبقة العاملة وحده قادر على خوض مجاهدة مظفرة في الصراع العربي الاسرائيلي فإن هذا الحكم يبدو مضحكاً ليس لأن البورجوازية الصغيرة ما زالت في مكانها بعد عقود على اعلان سقوطها، بل لأن البورجوازية الصغيرة الموصوفة تخوض مجاهدات ناجحة ضد اسرائيل في جنوب لبنان وفلسطين والعراق بل ربما ندين لها بأول انتصار جدي في الصراع العربي

الاسرائيلي. لقد اطلقت المعارضة الماركسية النار على الناصرية قبل وفاة عبد الناصر وبعد وفاته فساهمت من حيث لا تريد في صعود الراسمالية الطفيلية والمتوحشة إلى سدة الحكم في مصر مبرهنة عن بؤس مدقع في النظر والتحليل والاختيار السياسي. نعم ينتمي هذا البؤس إلى الماضي فهل يصفه أصحابه أو من تبقى منهم على قيد الحياة؟ لقد فعلت فريدة النقاش ويا حبذا لو يفعل صادق جلال العظم وأحمد فؤاد نجم وآخرون. لكن ما قيمة الناصرية فعلاً.

قيمة الناصرية

يجمع نقاد الناصرية عن حق ان "الريس" لم يخلف من بعده حزبا جديرا بالتعبير الحصري عنه وعن تجربته. لذا يلاحظ أن الاحزاب الناصرية في العالم العربي متعددة ومتباينة واحيانا تتنازع إرث الرجل وقد أخفقت خلال أكثر من ثلاثة عقود في تجاوز انقساماتها وحساسيتها المحلية والقطرية وبالتالي الاتفاق على صيغة توحيدية تنم عن احترام اقله معنوي لسيرة "الريس". ربما تكون المحدودية الايديولوجية التي ميزت الناصرية مسؤولة جزئيا عن تشتت ناصريي هذه الايام لكن المحدودية نفسها تضيف جاذبية على الناصرية كحركة تحرر ذات أفق مفتوح على الافادة من التجارب السياسية المختلفة.

ينطوي "فلسفة الثورة" كتاب عبد الناصر الاساسي على عناوين واختيارات سياسية عامة. انه اشبه بـ "البيان الشيوعي" لكارل ماركس وفردريك انجلز من دون الجهاز الايديولوجي المتكامل للماركسية وبالتالي يصعب أن تبني عليه وحده امنية عربية وإفريقية وإسلامية أو عالمية. بالمقابل يتيح الكتاب كما مواقف وسياسات جمال عبد الناصر المتصلة بالهوية والوحدة العربية والنضال ضد الاستعمار والحركة الصهيونية والدعوة للنظام العالمي العادل. كل ذلك يتيح انتماء عريضا لارث عبد الناصر يتعدى الاطر الحزبية إلى فئات واسعة من العرب بين المحيط والخليج. بهذا المعنى تشبه الناصرية في العالم العربي الديغولية في فرنسا والبوليفارية في أميركا اللاتينية والاتاتورية في تركيا والبيرونية في الارجنتين والغاندية في الهند.. الخ.

لم تترهل العديد من الاختيارات السياسية الناصرية خصوصاً ما يتصل منها بالهوية والوحدة والسيطرة على الموارد العربية وبناء فضاء سياسي متضامن ومواجهة التسلط الدولي والحركة الصهيونية وثقافة الممانعة.. الخ. هذه الاختيارات كانت وما زالت وستبقى صالحة ما يعني ان ما صنعه عبد الناصر ينطوي على قيمة تبادلية راسخة يصح معها القول ان العربي كان او هو اليوم او سيكون يوماً ما ناصرياً⁽⁶⁾.

(6) استعير هذا الوصف من شائع القول عن الديغولية في فرنسا.

موت الرئيس هل يؤذن بنهاية الناصرية؟

بقلم: مكسيم رودنسون

الناصرية كما عرفت نفسها تدريجياً في السياسة رفضت في الآن معاً الثورة الاجتماعية والأصولية البالية الرجعية التي تزعم البحث عن حلول لعدد من مشاكل اليوم من خلال العودة إلى زمن الخلفاء الراشدين المجيد. وعلينا أن نتذكر دائماً إن ناصر علق الزعماء الايديولوجيين للأخوان المسلمين على المشانق بعد محاولة اغتيال كادت تؤدي بحياته وكان يقول: " لم أفهم إطلاقاً كيف يمكن ممارسة الحكم بالاستناد إلى القرآن حصراً".

والناصرية المحصورة بين اليمين واليسار والمقتصرة على الخيارات التي رفضتها، كانت مضطرة لإيكال قيادة الحركة إلى "نخبة" بيروقراطية وعسكرية. كان ناصر يدرك نقاط ضعف هذه الطبقة. لذا بذل بعض الجهود من أجل ترفيع كادرات وافدة من الفئات الشعبية. ولكن تركيب النظام (الناصري) كان يتعارض مع نجاح هذه الجهود إذ لم يكن بوسع ناصر أن يغضب كثيراً الكادرات التي كانت في متناول يده في تلك اللحظة. وفي أفضل الحالات كان يسعى للتحضير للمستقبل.

الخيار الراديكالي لمناهضة الإمبريالية

عدا التحالفات الخارجية التي كان يجيد اللعب بها كالمايسترو والتي كان مستعداً لتغييرها في كل لحظة فان ناصر كان يتمسك في عدااته للإمبريالية بخيار راديكالي. على الأقل بدا هذا الخيار راديكالياً حتى آخر عهده. ولكن لنفسر قليلاً معنى كلمة الإمبريالية التي استخدمها بإفراط.

من الواضح أن تجربة ناصر جعلته حساساً للغاية إزاء تهديدات الإمبريالية الرأسمالية لاستقلال بلده. في حين كانت الإمبريالية الاشتراكية أدنى طموحاً أقله حينذاك. بمعنى آخر كان بالإمكان ضبط مؤثرات هذه الإمبريالية الخاضعة تماماً

للسلطة السياسية والحد منها بل التخلص منها عموماً عبر اللجوء إلى أعدائها. علماً أن هذه الإمبريالية لم تكن شديدة الانشغال بتقدم العالم الثالث لكنها على الأقل لم تضع في دربه أية عقبات. بالمقابل كان الخضوع للإمبريالية الاقتصادية اشد خطراً ذلك أنه ما أن تثبت آلياتها في مكان ما حتى يصعب السيطرة عليها ولو بواسطة السلطة السياسية التي ترتبط بها من حيث المبدأ المصالح المعنية. فالآلية العمياء لحواجزها المختلفة ترمي إلى الحفاظ على التخلف والتبعية بل على مضاعفتها. عموماً تلك هي صورة انتظام الأشياء التي ارتسمت في قسم كبير من العالم الثالث حينذاك والتي لم تكن تعدم بعض المصادقية.

في الواقع كانت راديكالية الناصرية في نضالها ضد الإمبريالية محدودة، ومع ذلك كانت تثير حماس العالم العربي وتنقل الحماس نفسه إلى شرائح وجماعات العالم الثالث المشابهة لتلك التي خلقتها في مصر. وفي هذا السياق جرى الحديث عن اتجاهات ناصرية في تركيا وفي أميركا الجنوبية. لقد وصلت هذه الراديكالية إلى حد التحالف مع الاتحاد السوفيتي ضد الهيمنة الأميركية وإلى حد إنشاء آليات وبنى اقتصادية تابعة للدولة للخلاص من التبعية التي كانت تشجعها الليبرالية على الصعيد العالمي.

كثيرون قمنوا الموت لجمال عبد الناصر: عملاء أميركيون وإسرائيليون وأقدام سود⁽⁷⁾ واشتراكيون⁽⁸⁾ وجنرالات فرنسيون⁽⁹⁾ وأخوان مسلمون وكثيرون غيرهم ممن سيكشف عنهم التاريخ. وأنا متأكد إن البعض منهم - بما في ذلك الإخوان

(7) الأقدام السود هم الفرنسيون والأوروبيون الذي استعمروا الجزائر وبعضهم ولد فيها منذ العام 1830 وكانوا يعتبرونها أرضاً فرنسية وقد اضطروا لمغادرة الجزائر بعد استقلالها عام 1962 ويعتبرون أن جمال عبد الناصر يتحمل مسؤولية أساسية عما أصابهم.

(8) خاض جمال عبد الناصر معارك طاحنة مع فرنسا التي كان يحكمها الاشتراكيون. فقد تسبب في انهيار الجمهورية الرابعة الفرنسية الاشتراكية بعد غزو قناة السويس الفاشل وتسبب بإضعاف الاشتراكيين في باريس عبر دعم الثورة الجزائرية وكان بمثابة كابوس حقيقي لهؤلاء الذين اضطروا للطلب من خصمهم شارل ديغول تسلم الحكم لإنقاذ فرنسا من ورطتها الممتدة من السويس إلى جبال الجزائر والمغرب العربي الكبير بفعل التدخل الناصري.

(9) المقصود بالجنرالات الذين هزموا في السويس وفي الجزائر وكانوا يحتفظون بمقدد مرضي على جمال عبد الناصر ومن بينهم الجنرال جاك ماسو والجنرال سالان والجنرال بيجار وغيرهم.

المسلمين على الرغم من أن القرآن لا يسمح لهم بذلك - يرفعون أُنخاب الشمبانيا هذا المساء. كثيرون منهم لم يفهموا إن قتل عبد الناصر لا يعني قتل الناصرية. ذلك أن عبد الناصر إن كان مكروهاً فلأنه يجسد أحلام شعبه.

وبخلاف الاعتقاد السائد فيما يخص النضال ضد إسرائيل لم يكن لدى أية حكومة عربية القدرة على تحاشي الصراع ولم يفعل ناصر سوى الانخراط في التيار محاولاً في كل مرحلة فرملة نفاد الصبر وتحجيم التهور لدى العامة. لكن هل ماتت الناصرية نفسها أيضاً مع ناصر؟ المستقبل وحده يحمل لنا الجواب. بالانتظار لعل "الرجعيين" سيندمون سريعاً على موت لطالما تمنوه لهذا الرجل. ولكن ماذا عن الثوريين؟ هل ستكون الثورة الراديكالية بديلهم الممكن للناصرية؟ هل العالم العربي ناضج للثورة الراديكالية؟ وهل تسمح القوى العظمى بقيامها في هذا العالم حيث الفعل ليس توأماً للحلم.

لوموند في 30 سبتمبر - أيلول 1970

خاتمة

لا يستحق العرب المصير الذي وقفنا على بعض وجوهه في هذا الكتاب فهم يحتفظون بكل العناصر والمقومات والشروط التي تتيح نهوضاً مدوياً وموقعاً عالمياً جديراً بالتقدير. فتاريخهم الطويل ومشاركاتهم الأساسية في الحضارة العالمية وانجازاتهم التأسيسية في علومها وتقدمها ورقبها ودينهم المتسامح وتجارهم الطويلة في الدمج والاندماج وانفتاحهم على الثقافات العالمية ناهيك عن مواقعهم الاستراتيجية وثرواتهم البشرية والمادية كل ذلك يؤهلهم لاحتلال مكانة مرموقة بين الأمم.

ولئن أخفق العرب في احتلال المكانة التي يستحقونها فهذا من أثر ثقافتهم السياسية البائسة التي حاولت في هذا الكتاب أن أطرح عليها الكثير من الاسئلة والقليل من الاجوبة راجيا أن يساهم هذا الجهد في إثارة قدر جدي من التفكير المصري شحذ الارادة الجمعية والمشاركة مجددا في هموم نهضوية حملها باخلاص عرب مميّزون خلال الالفية الثانية من ابن رشد حتى شكيب ارسلان.